نظرات فى الأدب العربى ونقده

دراسة تحليلية

دكتور
عبد الهادى عبدالله عطية
جامعة الإسكندرية

2006

مكتبة بستان المعرفة
طباعة ونشر وتوزيع الكتب
كفر الدوار الحدائق بجوار نقابة التطبيقيين
☎: ٠٤٥/٢٢٢٤٢٢٨ & ٠١٢١١١٥١٢٣٧

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلي أستاذي

الأستاذ الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي

رئيس رابطة الأدب الحديث، والأستاذ بجامعة الأزهر،
الذي كان له دور في حياتي العلمية، وهأنذا أرد له بعض
بضاعته جزاء ما قدم من علم غزير، وفكر مستنير.

مقدمة

أحمد الله تعالي، وأصلي وأسلم علي رسوله الكريم، وبعد.

فإنني - بحمد الله تعالي - أقدم هذا العمل في محراب خدمة لغة القرآن وأدب العرب، متخذا من التراث العربي العظيم منهلا، أنهل منه، ليكون نبراسا رائعا أمام محبي لغة القرآن الكريم، المحافظين عليها، الذين لا يألون جهدا في خدمة لغتنا التي هي أساس في فهم كتاب الله تعالي، وسنة رسوله صلي الله عليه وسلم.

ولغتنا العربية لغة التذوق، والجمال، وروعة التعبير، ولا غرو، فهي لغة الإعجاز القرآني، ولا يعوزها إلا من يفهم دقائقها، ويعرف حدودها، ورسومها، وقواعدها، حتي يصل إلي سعادة فهمها، وراحة تذوقها، وروعة فهم معانيها.

وقد رأينا النقاد العرب، والذواقين من رواة الأشعار، وسدنة اللغة يوازنون بين الأشعار، في المعاني، والألفاظ، والتعبير، والأسلوب، فقرأنا عنهم ما يقف الذواقة أمامه بإعجاب، وتعجب، وكذلك رأينا أثر الشعر.

روي أن بني أنف الناقة إذا ذكر أحد عند أحد منهم أنف الناقة، فضلا عن أن ينسبهم إليه اشتد غضبهم عليه، فما هو إلا أن قال الحطيئة يمدحهم:

سيري أمام فإن الأكثرين حصي والأطيبين إذا ما ينسبون أبـا

قوم إذ اعقدوا عقدا لجارهم شدوا العنـاج وشدوا فوقـه الكربـا

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ومن يسوي بأنف الناقة الذنبا(١)

فصار أحدهم إذا سئل عن انتسابه لم يبدأ إلا به.

***

وروي أن بني العجلان كانوا يفخرون بهذا الاسم، ويتشرفون بهذا الوسم، إذ كان جدهم عبد الله بن كعب إنما سمي العجلان، لتعجيله القري للضيفان.

وذلك أن حيا من طيئ نزلوا به، فبعث إليهم بقراهم عبد اله، وقال له: اعجل عليهم، ففعل العبد، فأعتقه لعجلته، فقال القوم: ما ينبغي أن يسمي إلا العجلان، فسمي بذلك، فكان شرفا لهم، حتي قال النجاشي الشاعر يهجوهم:

---

(١) زهر الآداب وثمر الألباب ١/٥٤

أمام: منادي حذف منه حرف النداء، مع الترخيم، وأصله أمامة، العناج: بفتح العين، حبل الدلو، وزمام الناقة، الكرب: بفتح الكاف والراء: أيضا من حبال الدلو، والمراد أنهم إذا عقدوا عقدا ربطوه بحبل بعد حبل، وهذا كناية عن وثاقة العهد، والحطيئة هو جرول بن أوس، شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام، كان سليط اللسان، لم يكد يسلم من هجائه أحد، وقد سجنه عمر بن الخطاب لذلك، توفي نحو سنة ثلاثين من الهجرة.

وما سمي العجـــلان إلا لقــولهم

خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل[١]

فصار الرجل منهم إذا سئل عن نسبه، قال: كعبي، ويكني عن العجلان.

***

وزعمت الرواه أن بني العجلان استعدوا علي النجاشي لما قال هذا الشعر عمر بن الخطاب، رضي الله تعالي عنه، وقالوا: هجانا.

قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالي عنه: وما قال النجاشي فيكم؟

فأنشد بنو العجلان عمررضي الله عنه قول النجاشي:

إذا الله عادي أهل لؤم ورقة   فعادي بني العجلان رهط ابن مقبل [٢]

فقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالي عنه: إن الله تعالي لا يعادي مسلما.

قال بنو العجلان: فقد قال النجاشي:

---

(١) زهر الأداب وثمر الألباب ١/٥٤

القعب: بفتح القاف، القدح الضخم الغليظ الجافي، والجمع القليل: أقعب، بضم العين، والجمع الكثير: قعاب، بكسر القاف، والنجاشي اسمه قيس بن عمرو.

(٢) زهر الآداب وثمر الألباب ١/٥٥

رقة: أي ذلة، أو ضعف نسب، أو الأمر القليل الخير، أو الخساسة، وهي المرادة هنا، وعلي أنها استحياء، أو رقة، وقد فسرت بهما.

قبيلة لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل[1]

فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: وددت أن آل الخطاب كانوا كذلك.

قال بنو العجلان: فقد قال النجاشي:

تعاف الكلاب الضاريات لحومهم

وتأكل من عوف بن كعب بن نهشل[2]

فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: كفي ضياعا من تأكل الكلاب لحمه.

قال بنو العجلان: فقد قال النجاشي:

ولا يردون الماء إلا عشية إذا صدر الوراد عن كل منهل[3]

فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ذلك أصفي للماء، وأقل للزحام.

قال بنو العجلان: فقد قال النجاشي:

---

(١) زهر الأداب وثمر الألباب ١/٥٥

قبيلة: تصغير قبيلة، ويقصد أن قبيلته لا تقدر علي ظلم الناس لضعفهم، حبة خردل: يضرب بها المثل في الصغر.

(٢) الضاريات: الشديدة الضراوة

(٣) عشية: وقت العشي بعد زوال الزحام، الوارد: من يردون الماء للاستقاء، منهل: مكان الماء، النهل.

وما سمي العجلان إلا لقولهم   خذ القعب واصلب أيها العبد واعجل[1]

فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: سيد القوم خادمهم.

***

وروي أن الراعي النميري الشاعر كان يفضل الفرزدق علي جرير، فهجاه جرير، واستمر بينهما العداء، حتي توفي سنة تسعين من الهجرة، سمع الراعي منشدا ينشد قول جرير:

وعاوعوي من غير شئ رميته   بقافية أنفاذها تقطر الدمـا

خروج بأفـواه الرواة كأنها   فري هند واني إذا هز صمما[2]

فارتاع الراعي النميري له، وقال: لمن هذا الشعر؟

قيل: هذا الشعر لجرير بن عطية الخطفي.

قال الراعي النميري: لعن الله من يلومني أن يغلبني مثل هذا.

***

---

(١) زهر الآداب وثمر الألباب ١/٥٥

(٢) زهر الآداب وثمر الألباب ١/٥٨

عاو: اسم فاعل من العواء، وهو رفع الصوت، وهو صوت الذئب علي التصوير، قافية: مجاز مرسل عن الشعر علاقته الجزئية، أنفاذ: جمع نفذ، بفتحتين، وهو الشق تحدثه الطعنة النافذة، فري: الشق والصدع، الهنداوني: السيف، صمم: أصاب المفصل وقطعه.

وروي أن زهير بن أبي سلمي ألقي علي المداحين فضول القول، كما قال الأحنف بن قيس لمعاوية بن أبي سفيان، وأخيه زياد، في قول زهير:

وما يك من خير أتوه فإنما ... توارثه آباء آبائهم قبل

وهل ينبت الخطي إلا وشيجه ... وتغرس إلا في منابتها النخل[1]

***

وروي أن زهير بن أبي سلمي قال في القصيدة التي أنشد منها هذين البيتين:

سعي بعدهم قوم لكي يدركوهم ... فلم يفعلوا ولم يلاموا ولم يألوا [2]

فأخذ هذا المعني طريح بن إسماعيل الثقفي الشاعر المنوفي نحو سنة مائة وسبعين من الهجرة، فقال لأبي العباس السفاح الخليفة العباسي الأول:

قد طلب الناس ما بلغت ولم ... يألوا فما قاربوا وقد جهدوا[3]

***

---

(١) زهر الآداب وثمر الألباب ٨٨/١

الخطي: الرماح المنسوبة إلي الخط، وهو مرفأ السفن بالبحرين، وتنسب إليه الرماح، لأنها تباع به، لا أنه منبتها، والوشيج: عروق القصب.

(٢) زهر الآداب وثمر الألباب ٨٨/١

لم يألوا: لم يقصروا.

(٣) زهر الآداب وثمر الألباب ٨٩/١

جهدوا: تعبوا، ما قاربوا: ما أوشكوا علي اللحاق به.

وروي أن أبا نواس الشاعر قال:

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت   له عن عدو في ثياب صديق

وكان المأمون الخليفة العباسي يقول: لو قيل للدنيا: صفي نفسك ما عدت هذا البيت.

وهذا البيت مأخوذ من قوم مزاحم العقيلي:

قضين الهوي ثم ارقين قلوبنا   بأسهم أعداء وهن صديق[1]

***

وروي أن بني نمير كانوا أحد جمرات العرب، وأشراف بيوت قيس بن عيلان بن مضر، وجمرات العرب ثلاثة، وإنما سموا بذلك، لأنهم يتوافرون في أنفسهم، لم يدخلوا معهم غيرهم، والتجمير في كلام العرب التجميع، وطفئت جمرتان بتحالفهما مع غيرهما، وبقيت نمير لم تحالف، فهي علي كثرتها ومنعتها، وكان الرجل منهم إذا قيل له: ممن أنت؟ قال: نميري كما تري، إدلالا بنسبه، وافتخارا بمنصبه، حتي قال جرير بن عطية الخطفي لأحد بني نمير:

فغض الطرف إنك من نمير   فلا كعبا بلغت ولا كلابا[2]

---

(١) زهر الآداب وثمر الألباب ٩٣/١

ارقين: افتعل من رمي.

(٢) زهر الآداب وثمر الألباب ٥٥/١-٥٦

غض: اخفض، كعب وكلاب: قبيلتان ابنا ربيعة بن عامر بن صعصعة.

فصار الرجل منهم إذا قيل له: من أنت؟ يقول: عامري، ويكني عن نمير.

***

وقد رد بعض النميريين يجيب جريرا عن شعره:

نمير جمـرة العـرب التي لم   تزل في الحـرب تلتهب التهابا
وإني إذ أسب بها كليبا   فتحت عليهم للخسف بابـا
ولولا أن يقال هجا نميرا   ولم نسمع لشاعرهم جـوابا
رغبنا عن هجاء بني كليب   وكيف يشاتم الناس الكلابا[1]

فما نفع نميرا، ولا ضر جريرا.

وقال محمد بن مناذر في هجائه ثقيفا:

وسوف يزيدكم ضعة هجائي   كما وضع الهجاء بني نمير[2]

هكذا رأينا أثر الشعر، مما يدل علي مكانة الشعر، وقيمته في حياة العرب، ولا يزال الشعر ذا أثر عظيم في حياتنا الأدبية.

---

(١) زهر الآداب وثمر الألباب ١/٥٧

جمرة العرب: الذين لم يدخلوا معهم غيرهم، الخسف: الذل والهوان، والضعة، رغبت عن: كرهب، رغبت في: أحببت، الكلاب: تورية عن القبيلة.

(٢) زهر الآداب وثمر الألباب ١/٥٨

يشير الشاعر إلي هجاء جرير بني نمير، ضعة: وضاعة.

فهيا بنا نمعن النظر في هذا الفن الجميل، الذي يرقق الأحاسيس، ويهذب المشاعر، ويسمو بالنفس، ويؤثر في القلب، ويشرح الصدر، لنري أثر هذا الفن الجميل، ونتدوقه، حتي نشعر بجمال لغة الضاد، لغة القرآن الكريم.

والله أسأل التوفيق والسداد

دكتور عبد الهادي عبد الله عطية

الثلاثاء ٣٠ من يناير سنة ٢٠٠١ م

٥ من ذي القعدة سنة ١٤٢١هـ

الفصل الأول

نقد الشعر في مقامات الهمذاني

***

في المقامة الساسانية[1] يقول بديع الزمان الهمذاني، علي لسان أبي الفتح الإسكندري، بطل مقاماته:

هذا الزمان مشوم كما تـراه غشوم

الحمق فيه مليح والعقـل عيب ولوم

والمال طيف ولكن حول اللئام يحوم

هذه المقطوعة تمثل فكر البطل عن الزمان،فإذا كان الزمان جلابا للشؤم والنحس، وإذا كان ظلوما قاسيا، فالحمق محمود، والعقل عيب، ونقص، ولؤم، والمال طيف يحوم حول اللئام،لا الكرام.وهذا ما يجعل البطل يتخذ من هذه الأفكار ذريعة لما يصنعه من الخداع،لأنه يشعر كما يشعر الهمذاني بأن الدهر يقف حجر عثرة في وجه كل عالم.

---

(١) المقامة التاسعة عشرة، شرح مقامات بديع الزمان ص ١٠٩-١١٠، مقامات أبي الفضل ص ٩٢-٩٣.

مشوم: تخفيف مشئوم، أي جلاب للشؤم آت بالنحس، غشوم: قاس ظالم، الحمق: الغباوة وضعف العقل، وهو مما لايبالي معه بالأعمال أيا كانت، فهذا الوصف مليح لأنا نري أربابه، وذوي الاتصاف به في خير ونعمة، أما العقل فقد عد في هذا الزمان عيبا ونقصا، ولؤما وسوء طبع، لأن الجملة إذا كانت علي اختلال أنكرت ما يخالف حالها من الانتظام، وعدت المنتظم منه مختلا، والصحيح معتلا، لوم: مخفف لؤم، والمعني: إن الجهالة وضعف المدارك أمر مستحسن مقبول في زمننا هذا، والعقل منقصة ومذمة، الطيف: الخيال في المنام ونحوه، يحوم: يدور، والمعني: إن المال سريع في انتقاله سرعة الطيف، وشيك التحول، كثير التردد، ولكنه إنما يدور علي اللئام، ويقع لدي الخبيثين، فمن شاء أن يثري، أو يكون ذا بسطة من المال فليس له إلا أن يتصف بصفاتهم، ويتخلق بأخلاقهم. وإنما كان المال طيفا، لأنه لا بقاء له، يكسب لينفق، ويختزن ليبذل، فإن لم ينفذه الإنفاق أنفذته عوادي الزمان، ولهذا لا تري غنيا يخلد له غناه، ولا فقيرا يسجل عليه فقره، غير أنه وإن كان طيفا زائلا، إلا أنه لا يحوم إلا حول اللئام، ولا يطيف إلا بهم.

***

وفي المقامة الفردية[1] يقول الهمذاني، علي لسان الإسكندري، بطل مقاماته:

الذنب للأيـام لا لي فاعتب علي صرف الليالي
بالحمق أدركت المني ورفلت في حلل الجمـال

ينحو علي الأيام باللائمة، لأن الذنب ذنبها، لذا فالعتاب يكون علي صرف الليالي، التي جعلته يتخذ من الحمق وسيلة لإدراك الغني،والترفل في حلل الثروة،ولم يتخذ من العقل وسيلة إلي ذلك،محاولا تبرير مايصنعه.

***

وفي المقامة الموصلية[2]يقول يقول الهمذاني، علي لسان الإسكندري، بطل مقاماته::

---

(١) المقامة العشرون، شرح مقامات بديع الزمان ص١١٢، مقامات أبي الفضل ص٩٤
صرف الليالي: محنها ومصائبها أوما تتصرف به في الناس في نوائبها، وأراد من الحمق التحامق والتباله، فإن صاحب الحيلة ليس بأحمق، وكثيرا ما أفاد الحمق أهله عند أهله، وأكسبهم أعظم أمانيهم لديهم، رفل في حلله وأثوابه إذا جر ذيولها متبخترا، أراد أنه بحمقه كسي في نظر الناس جمالا صافيا يرفل في أثوابه، وإنه بالحمق كسب المال فاكتسي به أفخر الثياب، وهي مجلبة الجمال، والمعني: إنه لا ذنب لي في انتهاج هذه الخطة، لأن شدائد الدهر هي التي ساقتني إليها، فإن كنت عاتبا ولابد فاجعل عتابك موجها لها، وإنني نلت ما تمنيت، وبلغت ما أملت بتجاهلي، وذلك لأن الزمن لا يسعف إلا الجهلاء.

(٢) المقامة الحادية والعشرون، شرح مقامات بديع الزمان ص ١٣٠، مقامات أبي الفضل ص ١٠٠-(٣) لا يبعد: جملة دعائية، تحتمل معنيين: أحدهما أن يكون أصله البعد الذي هو ضد القرب، والثاني أن يكون معناه لا يهلك، يدعو لنفسه بالقرب من الله تعالي، أو بطول الحياة. =

لا يبعد الله مثلي وأين مثلي أينـا

لله غفلة قـــوم غنمتها بالهـوينا

اكتلت خيرا عليهم وكلت زورا ومينا

يعتد بنفسه أيما إعتداد ،فهوماكر ، أريب،حصيف،عاقل ،لا نظير له في ذلك،لذا فمن حقه أن يخدع الناس بالزور والمين. كلها محاولات لتبرير ما هو فيه،إذ يحاول إيجاد المبرر لما يصنعه،وكأنه يعرف قبل غيره أن ما يصنعه لا يجب أن يصنع.

***

= وقال الأستاذ الإمام: دعاء لمثله بالقرب من الله تعالي، وأن لا يبعده عن أبوايه، وهو كناية عن امتداح نفسه بأنه مستحق لمقامات القرب، لما له من الحذق الذي لا يشابهه فيه غيره، ولما وجد من نفسه قوة الحيلة، وأن الناس صيد لشباكه يخلب عقولهم بخزعبلاته، ويخدعهم بترهاته ادعي التفرد في وصفه فاستفهم عن وجود مثله استفهام المنكر، فقال: وأين مثلي أين، أي لا يوجد مثلي، أي لا نظير له في التماس الأسباب، وأخذ الناس بما يتفتق عنه ذهنه من الحيل علي طريق الاستفهام، وينسب الشئ إلي الله تعالي إذا كان عجيبا، فهو يتعجب من غفلتهم لكثافة حجابها عليهم، وبلوغها من تغليف قلوبهم حدا لا يقدر علي إيصالها إليه إلا الله سبحانه وتعالي، وقد غنم هذه الغفلة، وجني ثمرتها بالهوينا، والهوينا: تصغير الهوني، مؤنث الأهون، وهو السهل المنال، القريب المأخذ، والغفلة: ذهول الإنسان عما يعرض له، وعدم تبصره بما يعقبه، ثم بين كيف غنم الغفلة، اكتال: أخذ لنفسه الكيل، فهو لما أخذ منهم أخذ الخير لنفسه من زواج العذراء، ونيل الغذاء من البقرة الصفراء، أما هو فقد كالهم: أي أعطي لهم بالكيل، زورا: أي باطلا، ومينا: كذبا، فما أربح صفقته، وما أخسر صفقتهم، يقول: إنني رجل داهية، يندر وجود مثلي في الدهاء والحيلة، ولقد استطعت أن أصل إلي ما أغلق دون الناس جميعا بغير كد، ولا اجتهاد، وأخذت منهم عظيما، ومع ذلك لم أعطهم شيئا غير الكذب والخداع، وفي نسخ كثيرة: لله قلعة قوم فتحتها بالهوينا، والقلعة: الحصن، مثل حالهم وحاله، بحال المتحاربين، يغنم أحدهما ما كان فيه الآخر من مال، بعد غلبته عليه.

وفي المقامة الحرزية[1] يقول الهمذاني علي لسان السكندري، بطل مقاماته :

---

(١)المقامة الثالثة والعشرون، شرح مقامات بديع الزمان ص١٤٨-١٤٩، مقامات أبي الفضل ص ١١٨-١١٩

أي إنه صبر لعلمه بفوائد الصبر، فلولا الصبر، وظهور الطمأنينة عليه، واهتمامهم بسؤاله عن حاله، واحتياله عليهم بالأحراز ماملأ الكيس ذهبا، فهي إحدي فوائد الصبر، جواب للسؤال في قوله: كيف نصرك الصبر وخذلنا، أي أنه لولا ما تذرعت به من الصبر لما سألتموني، وكشفت لكم المسألة، ونشأ عن ذلك أني أخذت منكم مالا ملأت به كيسي، من ضاق صدره بما يغشاه : أي يطرأ عليه من الكروب، فهو ضعيف العزم واهنه، فلا ينهض به عزمه إلي بلوغ المجد ونيله، والمعني: إن بلوغ المجد والوصول إلي غاية الرفعة لا يكونان مع الجزع والخوف، أعقبني: أورثني، والمعني: إن الذي أعطيته، وهو ماأخذته منكم في السفينة، لم يكن سببا في إيصال الضر إلي، ولم يورثني شيئا من المساءة، وبعد ما بين في البيت السابق أن الصبر من قوة العزيمة، وفاقده ليس أهلا لنيل المجد، وهي مزية ذاتية تحمل علي اقتنائه، وإلزام النفس بالتحلي به، أراد أن يبين أنه مع تلك المزية لا يكلف ضرا وخسارا، بل أفادني فوائد، فهو في البيت الأول استدل علي فضل الصبر بالفائدة المحسوسة، وفي الثاني بالمزية الذاتية، وأنه من آيات قوة النفس وعلو الهمة، وضده من علامات الخسة والانحطاط، وفي الأبيات الثلاثة الأخيرة رجوع إلي تفصيل ما أجمل في الإشارة إليه في البيت الأول، وقدم المحسوس لأنه أقرب تناولا، ثم ثني بالمعقول لأن النفس قد ركنت إلي التصديق، فاستعدت للتأمل، فلا يبعد عليها إدراك ما علا عن الحس، ثم ثلث بتفصيل الفوائد الحسية للصبر ترشيحا للاستدلال، والأزر: الظهر، واشتداده: قوته، وما أخذه من المال يعين الضعيف، فيقويه، وينصره علي الفقر، وجبر الكسر: إزالة أثره، وإعادة الكسير إلي صحته، ثم يكني به عن سد الحاجة، وما المحتاج بأحسن حالا من الكسير، والمعني: إن الذي أخذته لم يتسبب لي عنه ضرر، بل بالعكس سيقوي به ساعدي، ويصلح حالي، وينعم عيشي، ولو غرقت السفينة، وكنت معكم في الغرقي لما وجد من يقول: أين ما وعدت به من السلامة بسر أحرازك، حتي أتكلف له عذرا، وهذا بيان لبصيرته في حيلته، وهي من روح الصبر، وشعلة من ناره، أي لو كنت غرقت معكم لما كان هناك ضرر علي، وذلك لأنه لا يوجد حينئذ من يسألني عن فائدة حرزي، فأتكلف له الاعتذار، وأتمحل أوهن الحجج، وأضعف البراهين، علي صدقي، والمراد أن يذكر له أنه كان يعتقد فوزه في حال نجاتهم بما يأخذه منهم، وإذا كان الغرق قد كتب عليه معهم فما ضره أن يأخذ منهم، فرأي أن يحتال هذه الحيلة ليبتز منهم ما يصلح شأنه، ويقيم حاله، ويسعد باله، فإن نجوا ونجا معهم أفاد مما أخذه، وإن غرقوا وغرق معهم فقد سلم من اعتراضهم عليه بأن حرزه لم تكن له فائدة، لأنه لن يكون هناك من يوجه اعتراضا، ولا من يوجه إليه الاعتراض.

ويك لولا الصبر ما كنـ ت ملأت الكيس تبرا
لن ينال المجد من ضا ق بما يغشـاه صبرا
ثم ما أعقبني السـا عة ما أعطيت ضـرا
بل بـه أشتـد أزرا وبـه أجبـر كسرا
ولو اني اليوم في الغر قي لما كلفت عـذرا

يذكر لنا وسيلته في الظفر بما يريد،والصبر وسيلة عظيمة،لكن الصبر الذي صنعه البطل في هذه المقامة يمثل لونا من ألوان الخداع،ومظهرا من مظاهر التمويه والتلبيس علي الناس لينال ما يريد، دون أن يخسر شيئا . فالنظر للأبيات يجب أن يكون مشفوعا بقراءة المقامة حتي يظهر ما صنعه البطل من الخداع،والتمويه،هذا مع إعجابي بالبيت الثاني،لأنه يصلح كمعني مجرد من فكرة المقامة.

***

وفي المقامة المارستانية[1] يقول الهمذاني علي لسان السكندري، بطل مقاماته :

---

(١) المقامة الرابعة والعشرون، شرح مقامات بديع الزمان ص١٦٠-١٦١، مقامات أبي الفضل ص ١٢٤-١٢٥ أي أنا مصدر كل عجيبة، ومورد كل غريبة، ومعدن كل شاردة، السنام: أعلي ظهر البعير، وهو مثل في العلو، والغارب: الكاهل، وهو كذلك مثل في الارتفاع، غير أنه دون السنام، أي إذا عزم علي تمويه الباطل عد في البارعين من المبطلين، فالبيان مطاوعه، واللسن مشايعه، والسارب: الذاهب في الأرض نهارا كالهائم الذي لا يدري أين يتوجه، لا يقصد غاية ينتهي إليها ، إسكندر: أي مدينة إسكندر، أو إنه أطلق إسم إسكندر علي مدينته، ثم يقول: إنه ذو ألوان، فتارة يدعو إلي هذا وطورا إلي ذاك، والمراد مجرد التقلب إلي ألوان مختلفة في مختلف الأحوال، ولا يريد أنه يكون نصرانيا تارة، ومسلما تارة أخري، ولكنه يريد مطلق الأحوال، ولم يسعفه التعبير الحسن.

أنا ينبوع العجائب · في احتيالي ذو مراتب

أنا في الحق سنام أنا في الباطل غارب

أنا إسكندر داري في بلاد الله سارب

أغتدي في الدير قسيـ سا وفي المسجد راهب

والأنوية بارزة في هذ المقطوعة في قوله أنا ،وهو معتد بنفسه إلي درجة بعيدة في البيتين الأولين،وفي البيتين الأخيرين يذكر بعض أساليبه في التنقل،التمويه،والتلبيس،وقد ذكر الدير والمسجد ،والقسيس والراهب،علي سبيل المثال،لا الحصر،لكل أعماله التي يموه بها علي ضحاياه.

***

وفي المقامة المجاعية[1] يقول:

أنا من ذوي الإسكندريه من نبعه فيهم زكيه

سخف الزمان وأهله فركبت من سخفي مطيه

---

(١) المقامة الخامسة والعشرون، شرح مقامات بديع الزمان ص ١٦٧، مقامات أبي الفضل ص ١٢٨- من ذوي الإسكندرية: من أهلها، والنبعة: واحدة النبع، وهو من أجود شجر تتخذ من القسي، وأصلبه، ومن أغصانه تتخذ الرماح، وأراد من أصل أصيل، وزكية: طيبة، سخف: رق عقله، فأتي بما لا يحسن، والمعني إن الزمان وأهله قد رقت عقولهم، وضعفت أحلامهم، فالتزمت أن أكون مثلهم، فتعمدت السخف، وتصنعت الجهالة، أي لما كان الزمان وأهله في سخف ، ورداءة عقل عاملتهما بما ينبغي لهما، ولهذا تساخفت، واتخذت لي مطية من سخفي، تحملني إلي حيث أشاء من المآرب، فالزمان السخيف لا يعلو فيه، ولا ينال أربه إلا السخيف.

الأنوية أيضا بارزة في قوله أنا. والعناية برفعة أصله، ثم يأتي في البيت الثاني بحسن تعليل لركوبه السخف في تعامله مع الناس،إذ جعل الزمان سخيفا ،وأهله سخفاء،فلا بد له أن يركب مطية السخف ليصل بها إلي مبتغاه.

***

وفي المقامة الوعظية أيضا يقول الهمذاني علي لسان الإسكندري، بطل مقاماته، عن الشيب:[١]

نذيـــر ولكنه ساكت　　　وضيف ولكنه شامت

وإشخاص موت ولكنه　　　إلي أن أشيعه ثابت

وهو وصف للشيب يناسب مقام الوعظ في هذه المقامة.

***

وفي المقامة الحمدانية[٢] يقول الهمذاني علي لسان الإسكندري، بطل مقاماته:

---

(١) أي إنه نذير ينذرني بالموت ودنو الأجل، ولكن مع الصمت، وضيف نزل بي غير أنه شامت بي بسبب ما صرت إليه، إشخاص موت: أي إزعاجه، وعبر بالإشخاص عن فاعله، وهو الرسول، أي هو رسول موت يزعجني بالدعوة إليه، ولكنه لا يكتفي بتبليغ الرسالة، ثم يذهب، بل هو ثابت معي حتي أشيعه، وأودعه بالفراق الأبدي، فهو لا يرحل وإنما يظل منتظرا أن أفارق فيودعني، أو يفارق فأودعه الوداع الأبدي.

(٢) المقامة التاسعة والعشرون، شرح مقامات بديع الزمان ص٢١٤، مقامات أبي الفضل ص ١٥٦ السخف: الحمق، والمساخفة: المحامقة، كأن كلا من المتعاملين يعامل الآخر بالحماقة، وحيث إن الزمان سخيف أحمق، لهذا تراه لا يواتي إلا الحمقي،فإن لم تكن سخيفا فساخفه،وعليك أن=

ساخف زمانك جدا   إن الزمان سخيف

دع الحمية نسيا   وعش بخير وريف

وقل لعبدك هذا   يجيئنـــا برغيف

ينصح غيره بفلسفته،وهي مساخفة الزمان،وترك الأنفة مما يشين. ولكي يأتي بمثال عملي علي هذه المساخفة،طلب من المخاطب أن يجيئه عبده برغيف،وهذا يفيده في مطلبه،إذ يطلب ما يسد الرمق، إذن هو محتاج.

***

وفي المقامة الأرمنية[1] يقول الهمذاني علي لسان الإسكندري، بطل مقاماته:

= تجاري الدهر في حماقته، لتنال منه رغبتك، فإنه لا يفل الحديد إلا الحديد، الريف: السعة في المأكل والمشرب، والوريف: الممتد المتسع، أي وعش بخير ممتد ومتسع، والحمية: الأنفة مما يشين عرضا، أو يمس شرفا، وكم يحتمل صاحبها في التوقي من الضيم، والانتقام للنفس ممن يرومها بالسوء، وكم يحرم من منافع كان يصيبها لو لم تنب به الحمية عن مواردها، فهو يأمر بترك الحمية، بل بنسيانها، لكن أهل الحمية يرون فيها من اللذة ما يري الإسكندري في السخافة، بل ما يجدونه أوفر مما يجده.

(١) المقامة السادسة والثلاثون، شرح مقامات بديع الزمان ص ٢٨٤، مقامات أبي الفضل ص ١٩٠-١٩١، تتغثي من غثث النفس: خبثت واضطربت واندفعت إلي القئ أو كادت،يقول: إن الشهم القوي الفؤاد لا يليق به أن يتغثي من شئ يتنطف منه، لأن الشهم يكون قد ظلف نفسه وجشمها كل شاق حتي مرنت علي الرضا بالكرائه، فإن من يعيش في هذا الدهر لابد من تقلب الأحوال عليه بحكم طبيعة هذا الوجود الأدني، فتارة يأكل سميناً، ويلاقي طيبا، وتارة يأكل غثا مرزولا، ولا يجد إلا خبيثا وعلي هذا يجب أن يوطن الشهم نفسه، فيا أيتها النفس،=

يا نفس لا تتغشي   فالشهم لا يتغشي

من يصحب الدهر يأكل   فيه ثمينا وغثا

فالبس لدهر جديدا   والبس لآخر رثا

البيت الأول يتعلق بحكاية المقامة، والبيت الثاني حكمة توافق حاله، والبيت الثالث بيان لفلسفة الخداع والتمويه علي الناس، والبيت الثاني يصلح حكمة جميلة.

***

وفي المقامة العلمية[1] يقول الهمذاني علي لسان الإسكندري، بطل مقاماته:

إسكندرية داري   لوقر فيها قراري

لكن بالشام ليلي   وبالعراق نهاري

= اسكني، واستقري في مكانك، ولا يذرعك القئ، فهذه عادة الدهر يتقلب دائما، ولابد لمن صحبه أن يجد في تصاريفه عجبا، فيجد الضيق يوما، والسعة يوما، وينزل بساحته العسر يوما، واليسر يوما، وهكذا، وخليق بمن يسايره أن يكون مثله، فيرتدي رداء التقلب أيضا فإذا كنت في دهر اليسر والسعة والمكنة، من لبس الجديد فالبس له جديدا، وإن كنت في زمن العسر والشدة، ولا تجد إلا رثا باليا، فالبس له ما تيسر.

(١) المقامة الأربعون، شرح مقامات بديع الزمان ص ١٣٥

المعني: إن مطلعي ومكاني الذي منه نشأت، وفيه درجت هو الإسكندرية، ولكني لا أطيل البقاء بها، فأنا متنقل دائما، فساعة تراني بالعراق، وأخري تجدني بالشام، والمراد مطلق التنقل إلي مطلق الجهات.

بيان لفلسفته وحياته،وحاله،فهو سريع التنقل،كثير الترحال في الليل والنهار،وقد ذكر الشام والعراق كمثالين لكثرة أسفاره،ورحلاته.

***

وفي المقامة الصفرية[1] يقول الهمذاني علي لسان الإسكندري، بطل مقاماته:

المجد يخدع باليد السفلي   ويد الكريم ورأيه أعلي

حكمة طيبة،واقتباس من الحديث الشريف،لكن الشئ الغريب أنه يعرف ذلك،ومع ذلك،ومع معرفته هذه يجعل يده في المرتبة السفلي دائما.

***

وفي المقامة الخمرية[2] يقول الهمذاني علي لسان الإسكندري، بطل مقاماته:

---

(١) المقامة السادسة والأربعون، شرح مقامات بديع الزمان ص٤٠٢، مقامات أبي الفضل ص٢٣٠ اليد السفلي: المستعطية، التي تطلب العطاء، وتستجدي أكف الناس، واليد العليا: المعطية، والمانحة، والمعني: إن المستمنح يخدع المانحين، ويختلبهم، بما يلقيه إليهم من الحديث، وما يمده نحوهم من شراك الاسترفاء، ولكن ذلك ليس دليلا علي ضعف المعطي، ولا حجة علي خباله، لأنه لا يزال صاحب اليد العليا، والرأي الناضج، والفكر السليم فاليد السفلي تخدع المجد، فتسترفده، فتنال من الاحتيال عليه، غير أن ذلك لا يعد نقصا في المجد بما يقال إنه ضعف في العقل، بل لا يزال الرأي الأعلي للكريم، مع انخداعه، ويده هي العليا في اغتراره.

(٢) المقامة التاسعة والأربعون، شرح مقامات بديع الزمان ص ٤٣٦ - ٤٣٧، مقامات أبي الفضل ص ٢٤٢ دع من اللوم: اتركني من لومك، وخلني منه، وليس ذلك لتنزهي عما يلوم عليه اللائمون فإني دكاك، والدكاك: أصله الهدام، وأراد منه هنا المحتال، لأنه بحيلته يهدم كل بناء ترفع الأمانة، صرحه وتعلي الثقة ذراه، والمعني: خلني من لومك، واتركني من عتبك، ولا=

دع من اللوم ولكن　　أي دكاك ترانـــي

أنا من يعرفــه كل　　ل تهـام و يمــاني

أنا من كل غبار　　أنـا من كل مكاني

ساعة ألزم محرا　　با وأخري بيت حان

وكذا يفعل من يعـ　　قل في هذا الزمـان

أنوية واضحة، وفخر بصفات يبعد معها الفخر، فهو فخر بأنه دكاك، يخادع الناس ويخدعهم، وبأنه معروف مشهور، تعرفه كل الأرض، ثم ذكر

= تذكر لي تقريعك وتأنيبك، فإني محتال أي محتال، التهامي: المنسوب إلي تهامة، وهي ما امتد إلي البحر من سفح جبال الحجاز، ويقابل نجدا، ويماني: منسوب إلي اليمن، والمعني: إنني لا أخفي علي أحد، ولا ينكرني إنسان، فأنا مشهور ذائع الصيت، مرفوع الذكر، قد عرفني الناس جميعا، ومعرفة اليمانيين والتهاميين له لشهرته بينهم بالدك والحيلة، الغبار: أصله التراب، وأراد منه البقعة من الأرض، إيماء إلي أن مزاجه يتفق مع كل أرض، كأنه خلق منها، وكذلك الأمكنة، كالأرض كلها لديه سواء يسهل عليه المعيشة فيهـا، وإنقاذ حيله بين سكانهـا، وإن اختلفت طباعهم، وتباينت أحوالهم، فنفسه تحت سلطان إرادته،يشكلها بالشكل الذي يألفه من يريد معاملتهم والفوز بينهم، والمعني: إنني أنزل بكل أرض، وأحط رحلي بكل مكان، فلا أجد في نفسي نفورا عنها، ولا تأبيا منها، بل بالعكس، توافقني، وتلائم مزاجي، كأنما قد خلقت منها، فتسهل علي المعيشة في كل أرض، وإنفاذ حيلتي بأي مكان، مهما اختلفت طبائع الناس. وتباينت أحوالهم ، ثم بين بعض أفاعيله في البيت الآتي، واحتج بهذا المذهب في البيت الذي يليه، المحراب: مكان الإمام في المسجد، وبيت الحان: الخمارة، ومكان معاقرة الخمر، والمعني: إنني لا ألتزم حالة واحدة من النسك والعبادة، أو المعاقرة والمعصية، بل تجدني طورا أعمل عمل الزهاد، والمتنسكين، وأسير سير العباد، والمستقيمين، وطورا أترك هذا إلي بيت الحان، وفصد الدنان، وسماع الألحان، ومنادمة الحسان، وهذه الحال يتصف بها كل عاقل أريب في هذا الزمان، وذلك لأن زماننا هذا زمان فاسد، ومن فساده أنه لا يروج فيه إلا من كان فاسدا مثله، فهو يرفع الأسافل، ويهبط بالأعالي، فإن كنت تريد أن تعيش عيشة ناعمة رافهة، فكن مثل زمانك، وإلا فاستعد للعناء والشقاء الدائمين.

في البيتين الأخيرين مثالا لتلونه،ويقرر أن ذلك من صفات العقلاء،فهو يغري غيره بفعله هذا.

***

وفي المقامة المطلبية[1] يقول الهمذاني علي لسان الإسكندري، بطل مقاماته:

---

(١) المقامة الخمسون، شرح مقامات بديع الزمان ص ٤٤٧-٤٤٨، مقامات أبي الفضل ص ٢٤٦

هو الجبار الذي أفرده الزمان بهذا الوصف، ولم يجعل له فيه ثانيا، ولذلك خص بالإضافة إليه، والسخف: الحمق، ورقة العقل، وضعف المدركة، وأراد من معاني السخف هنا أطوار السخف، وما ينشأ عنه، ولا يكون منه إلا الأفاعيل والأقاويل، فهو في الحقيقة متساخف لا سخيف، متغاب وليس بغبي، والمعني: إنني الجبار الذي تفردت في زماني هذا بما أصنع من الحيل، وغرائب الأمور، وبما أرتكب من الشعبذة التي لا تنطلي إلا علي ضعاف العقول، ثم يقول: إنني لا أبالي بالإنفاق، ولا أكترث بالبذل، بل أنا أنفق عن سعة، وأبذل من غير تقتير، لأنه لو فرغ ما معي من المال فلست أعدم كيس الأماني أنفق منه، وهو لا يأتي عليه الإنفاق، ولا يستنفذه البذل، لأن لي في كل لحظة مئات الأماني، وما لا عدد له منها، والمراد: أن عنده من الأماني ما يسليه عن المال عند فقره، وقد يكون المعني إنه كما يعطي المال ثمنا لما يأخذ من السلع يعطي من الأماني ما يقوم مقام المال، فإنه بخداعه يمنح القلب أمنية تقوم عنده مقام ما كان يأخذ من الثمن أو تزيد، وقد صدق في دعواه هذه، أوليس هو الذي نقود جماعة بما مناهم المطلبين، ووعدهم بالكنزين، القصف: العكوف علي ملاذ الطعام والشراب، والغرف: بالغين والراء غرف الطعام، أو الشراب،يكني به عن الإكثار من شراب الخمر، فهو يغترف، ولا يرتشف، والعزف: بالعين والزاي: الرنين والمثاني من ذوات الأوتار المطربة: ما له وتران، اصطفي: اختار وانتقي واستحسن، والمردان: جمع أمرد، وهو من لم تنبت لحيته، ولاخط شاربه، وهو بعد ذلك إما أن يكون قد أراد أن يزين القصف والعزف، واصطفاء المردان، ويحبب الناس، ويرغبهم فيها، ويذكر حسناتها، ويدعو إليها، فهو علي هذا يقول: من أراد ذلك، ونزع إليه وشغف به أقبلت الدنيا إليه، وتكالبت وانثالت عليه، وعززت لديه الأحوال، وكثر لديه الدرهم والدينار، وامتلأ من حظ الحياة ومتاعها جرابه، فهو بسبب ذلك آمن مطمئن لايخشي الفقر، ولا يخافه، ولا ينتظر حلوله=

أنا جبــار الزمــان لي من السخف معاني

وأنا المنفق بعد الـ مال من كيس الأمـاني

من أراد القصف والغر ف علي عزف المثاني

واصطفي المروان جهلا من فــلان وفـــلان

صار من مال وإقبا ل تراه في أمـــان

أنوية واضحة في البيتين الأولين،ثم رسم لطريقة من يريد أن يعيش في مـال، وإقبـال من الدنيـا ،وهو عـلي الأرجح،لأنه يلائم فـلسفـة البـطل،أو يعيش بغير مال حتي يأمن، والوسيلة في كلا المعنيين غريبة.

= بناديه وإما أن يكون مراده أن من نزع إلي هذه الأمور، ورغب فيها، وأحبها، فقد آمن من المال والإقبال وكأنهما شئ يخشي منه، ويخافه، أو تخاف بادرته، من كان منها في أمان بهذا المعني كان الفقر له ملازما، والإملاق له حليفا، وكان الغني أبعد شئ منه، وكلا المعنيين له حظ من دلالة اللفظ عليه، وله وجه، وإن تخالفا، وأشبها أن يكونا متضادين.

الفصل الثاني

ملامح فنية في الأدب العربي

حكي عن المبرد[1]، وبراعته في اللغة والأدب أنه تواضع بعض اللغويين علي مسألة، لا أصل لها، كما ورد علي لسان أحدهم، أنه قال: نسأله عنها، لننظر كيف يجيب؟، وكنا قبل ذلك تمارينا في عروض بيت الشاعر:

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا حنانيك بعض الشر أهون من بعض

فاختلفوا في البحر الذي سار عليه وزن هذا البيت[2].

---

(١) المبرد: هو أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الأزدي الثمالي، من تلاميذ أبي عثمان المازني، وأبي حاتم السجستاني، ولد المبرد بالبصرة سنة مائتين وعشر من الهجرة، أو سنة مائتين وعشرين، وكان رأس نحاة البصرة في زمانه، كما كان ثعلب رأس نحاة الكوفة، وتحدد الخلاف بين المذهبين باختلاف هذين الرأسين، وكثيرا ما سلك المبرد في النحو طريقا خاصا به، ولم يتردد أحيانا في مخالفة سيبويه نفسه، بل حاول أيضا في بعض مصنفاته نقض آراء سيبويه، كما ذكر السيوطي في المزهر ١٨٨/٢.

وقد لقبه شيخه أبو عثمان المازني بالمبرد - بكسر الراء - أي المثبت للحق، لأنه لما صنف المازني كتاب الألف واللام، سأله عن دقيقه، وعويصه، فأجابه بأحسن جواب، فحرفه الكوفيون وفتحوا الراء.

وقدم المبرد إلي بغداد في شيخوخته، وتوفي سنة خمس وثمانين ومائتين من الهجرة، أو سنة ست وثمانين ومائتين، وهو صاحب كتب الكامل في اللغة والأدب، والفاضل، والمقتضب، والتعازي.

قال ابن خلدون عنه: سمعت من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول فن الأدب، وأركانه أربعة دواوين وهي كتاب الكامل للمبرد، وأدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر لأبي علي القالي البغدادي، وما سوي هذه الأربعة فتبع لها، وفروع منها. معجم الأدباء ١٣٧/٧، المزهر: ٢٦٧/٢ ، ١٨٨، تاريخ الأدب العربي، بروكلمان: ١٦٤/٢، صفحة العنوان في كتاب الكامل في اللغة والأدب.

(٢) أبا منذر: منادي، أي يا أبا منذر، أفنيت: أي أحبابك، أو إخوانك، أو أفنيت شبابك،=

يقول: فقطعناه، وترددعلي أفواهنا تقطيعه، ومنه: قبعضنا.

يقول: فقلت له، أي المبرد: أيدك الله تعالي، ما القبعض عند العرب؟

فقال المبرد: القطن، يصدق ذلك قول الشاعر:

كأن سنامها حشي القبعضا[1]

يقول: فقلت لأصحابي: ترون هذا الجواب، والشاهد، إن كان صحيحا فهو عجب، وإن كان اختلق الجواب في الحال فهو أعجب[2].

***

= بعضنا: البعض منا، حنانيك: يطلب منه الحنان والشفقة، والرفق، بعض الشر أهون من بعض: قول مأثور، وحكمة مشهورة.

وأصل تقطيعه علي وزن بحر الطويل: فعولن، مفاعلين، أربع مرات، في الشطرين، مرتين في كل شطر.

ومن تقطيعه: قبعضنا: بوزن مفاعلن.

· والتقطيع لون من الموسيقي التي تخضع للنغمة من حيث الحركة والسكون، ولا علاقة له بوضع الكلمة وتمامها، فالوزن يجوز أن يكون من كلمة، أو بعض كلمة، أو كلمة وبعض كلمة، أو من كلمتين، أو من ثلاث كلمات، وهكذا، كما هنا: القاف من كلمة: فاستبق، مع الكلمة الثانية، وهي: بعضنا.

(١) يصف ناقة، فيقول: كأن سنامها: وهو ما يعلو ظهر الناقة من الشحم: حشي: أي محشو، بصيغة اسم المفعول، القبعض: القطن علي هذا الرأي الذي ارتآه المبرد.

(٢) يقصد إن كان هذا المعني صحيحا، فهو معني عجيب لا يعلمه إلا المبرد، وإن كان هذا المعني مختلقا لا أصل له، فهو أعجب، لأن المبرد توصل إلي هذا المعني بذكاء، وسرعة بديهة، لأنه أتي بالمعني وبشاهد عليه مصنوع علي وزن بحر الوافر، مفاعلتن ست مرات ، في كل شطر ثلاث منها.

وقال أبو العباس ثعلب[1] فيه حين مات:

ذهب المبـرد وانتهت أيامه ... وليذهبن بعـد المبـرد ثعلب

بيت من الآداب أضحي نصفه ... خربا وباقي النصف منه سيخرب

فتزودوا من ثعلب فبكأس ما ... شرب المبرد عن قـريب يشرب

أوصيكم أن تكتبـوا أنفاسـه ... إن كانت الأنفاس مما يكتب[2]

وذلك علي رغم ما حكي أنه كان بين أبي العباس المبرد، وأبي العباس

---

(١) هو أبو العباس أحمد بن يحيي، ثعلب، مولي بني شيبان، إمام الكوفيين في زمانه، ولد سنة مائتين من الهجرة، وأخذ عن الفراء، وله ثماني عشرة سنة، وبلغ خمسا وعشرين سنة، وهو عنده، وما بقي له مسألة للفراء إلا وهو يحفظها، كما أنه لزم ابن الأعرابي بضع عشرة سنة، كما أخذ عن البصريين، ولكنه التزم مذهب الكوفيين، وثقل سمع ثعلب في آخر حياته، ثم أصيب أيضا بالصمم، فانصرف يوم جمعة من المسجد بعد العصر، وإذا بدواب آتية من ورائه، لم يسمع وقع حوافرها، فصدمته، فسقط في هوة من الطريق، ولم يقدر علي القيام، فحمل إلي منزله، ومات لتوه سنة إحدي وتسعين ومائتين من الهجرة، وله كتب: الفصيح، وكتاب قواعد الشعر، وشرح ديوان زهير بن أبي سلمي، وشرح ديوان الأعشي، وكتاب الأمالي، وشرح بانت سعاد، وكتاب المجالسات، ومعاني القرآن، وكتاب النوادر، وكتاب الأبيات السائرة، وكتاب غريب الحديث، وكتاب مجاز الكلام وتصاريفه، تاريخ الأدب العربي، بروكلمان ٢/ ٢١٠-٢١٣.

(٢) ذهب المبرد: مات، وانتهت أيامه: أي أيام حياته في الدنيا، أو أيام علمه وشهرته، وليذهبن بعد المبرد ثعلب: يقصد نفسه، أي أنه سيموت هو أيضا، بيت من الآداب: يقصد المبرد وثعلب، أضحي نصفه خربا: يقصد المبرد، وباقي النصف منه سيخرب: يقصد أنه أيضا سيموت، فتزودوا من ثعلب: يطلب من تلاميذه، أو العلماء أن يتزودوا منه علما نافعا، فبكأس ما شرب المبرد عن قليل يشرب: أي سيموت ثعلب بعد قليل من موت المبرد، أوصيكم أن تكتبوا أنفاسه: مبالغة في كتابة علمه كله، والمقطوعة علي وزن بحر الكامل، ووزنه متفاعلن ست مرات، في كل شطر ثلاث.

ثعلب، من المنافرة ما لا خفاء به.

وذلك يدل علي مكانة المبرد العظيمة.

***

وكذلك لأنه روي أن ثعلبا وصم المبرد بكلام قبيح، فبلغ ذلك المبرد، فأنشد المبرد بيتين من الشعر: هما قوله:

رب ما يعنيه حالي　　وهو لا يجـري ببالي

قلبه مـــلآن مني　　وفؤادي منه خالي[1]

فلما بلغ ثعلبا ذلك الشعر للمبرد لم يسمع من ثعلب بعده في حق المبرد كلمة قبيحة.

***

لكن أهل التحقيق يفضلون المبرد علي ثعلب، وفي ذلك يقول أحمد بن عبد السلام:

رأيت محمد بن يزيد يسمو　　إلي الخيرات في جاه وقدر

جليس خلائف وغذي ملك　　وأعلم من رأيت بكل أمـــر

وكان الشعرقد أودي فأحيا　　أبو العباس دائـر كل شعـر

---

(١) من يعنيه حالي: يقصد ثعلبا، وهو لا يجري ببالي: لا يذكره، قلبه ملآن مني: أي ملآن غيظا، وحنقا، وغضبا، وفؤادي منه خالي: أي لا أكن له بغضا، أو لا يعنيني أمره، والبيتان علي وزن بحر الرمل المجزوء.

وقالوا ثعلب رجل عليم ... وأين النجم من شمس وبدر

وقالوا ثعلب يفتي ويملي ... وأين الثعلبان من الهزبر[1]

***

وفي الحقيقة، فإن سمو مكانة كل منهما جعل الناس يشغلون بالتفضيل للمبرد، لكنهما كانا ذوي قدر كبير في اللغة.

فقد روي أن بعض أكابر أولاد طاهر، سأل أبا العباس ثعلبا، أن يكتب له مصحفا، علي مذهب أهل التحقيق.

فكتب «والضحي» بالياء، علي مذهب الكوفيين، للضمة في أوله، وإن كانت من ذوات الواو.

فنظر المبرد في ذلك المصحف، فقال: ينبغي أن يكتب «والضحا» بالألف، علي مذهب البصريين.

فجمع أبو طاهر بينهما، فقال المبرد لثعلب: لم كتبت والضحي بالياء؟

فقال ثعلب: للضمة أوله.

فقال له المبرد: ولم إذا ضم أوله، وهو من ذوات الواو، تكتبه بالياء؟

فقال ثعلب: لأن الضمة تشبه الواو، وما أوله واو يكون آخره ياء، فتوهموا أن أوله واو.

---

(١) يمدح المبرد بالسمو إلي الخيرات في العلم، والقدر، والمنزلة عند الخلفاء والملوك، وأنه أعلم العلماء، وأنه أحيا الشعر بعد ما أودي وذهب، ويصفه بالبدر والأسد، بينما يصف ثعلبا بالنجم، والثعلب، فهو عليم يفتي ويملي، لكن المبرد أعلم، والمقطوعة علي وزن بحر الوافر، بوزن: مفاعلتن ست مرات.

فقال المبرد: أفلا يزول هذا التوهم إلي يوم القيامة؟

***

وقال أحد الشعرا في مدحه وتفضيله علي ثعلب:

وأنت الذي لا يبلغ الوصف مدحه   وإن أطنب المـداح في كل مطنب
رأيتك والفتح بن خاقان راكبا   وأنت عديل الفتح في كل موكب
وكان أمير المؤمنين إذا دنـــا   إليك يطيل الفكـــر بعد التعجب
وأوتيت علمـــا لا يحيط بكنهــه   علوم بني الدنيـــا ولا علم ثعلب
يروح إليك النـــاس حتي كأنهـــم   ببابك في أعلي مني والمحصب(١)

***

وقال آخر في مدحه:

وإذا يقال من الفتي كل الفتي   والشيخ والكهل الكريم العنصر
والمستضاء بعلمــه وبرأيـــه   وبعقله؟ قلت ابن عبد الأكبر(٢)

---

(١) شرح مقامات بديع الزمان الهمزاني ص ٢٣٨-٢٤١، لا يبلغ الوصف مدحه: أي مدحه أعلي من الوصف، أطنب: أطال: مطنب: استفاضة، الفتح بين خاقان: هو وزير المتوكل الخليفة العباسي، عديل: مكافئ ومساو، ومواز، أمير المؤمنين: يقصد المتوكل الخليفة العباسي، بكنهه: بحقيقته وشأنه، يصورالناس ببابه في أعلي مني والمحصب، أي في الأماكن المقدسة، ويقصد الزحام حول بابه، لطلب العلم. والأبيات علي وزن بحر الطويل.

(٢) من الفتي كل الفتي: أي الفتي الكامل، والتعريف للجنس، أو التعظيم، العنصر: الأصل، والمنبت والمحتد، ابن عبد الأكبر: هو المبرد، والأبيات علي وزن بحر الكامل.

ولعل المبرد كان يترددعلي مواضع المجانين.

فقد حدث المبرد قال:قال لي المازني[1]:أنت تنصرف من مجلسنا، فتصير إلي مواضع المجانين، والمعالجين، فما معني ذلك؟

فقلت: أي المبرد: أعزك الله تعالي، إن لهم طرائف من الكلام.

قال المازني:

فأخبرني بأعجب ما لقيته من المجانين.

فقلت أي المبرد: دخلت يوما إليهم، فمررت علي شيخ منهم، وهو جالس علي حصير قصب، فجاوزته إلي غيره.

فقال الشيخ: سبحان الله تعالي، أين السلام؟ من المجنون أنا أو أنت؟

فاستحييت منه، فقلت أي المبرد: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فقال الشيخ: لو كنت ابتدأت لأوجبت علينا حسن الرد، علي أنا نصرف سوء أدبك علي أحسن جهاته من العذر، لأنه كما يقال: إن للقادم علي القوم دهشة، اجلس أعزك الله عندنا.

وأوما إلي موضع من الحصير، يقول المبرد: فقعدت ناحية، أستجلب مخاطبته.

---

(١) أبو عثمان بكر بن بكر بن عثمان المازني، أعظم النحاة بعد سيبويه، توفي سنة تسع وأربعين ومائتين من الهجرة، أو سنة ست وثلاثين ومائتين، تاريخ الأدب العربي ١٦٢/٢.

فقال لي الشيخ: وقد رأي معي محبرة: أري معك آلة رجلين، أرجو ألا تكون أحدهما، أمجالس أصحاب الحديث الأغثاث، أو الأدباء أصحاب النحو والشعر؟

فقلت أي المبرد: الأدباء.

قال الشيخ: أتعرف أبا عثمان المازني؟ قلت، أي المبرد: نعم.

قال الشيخ: أتعرف الذي يقول فيه؟

وفتي من مازن　　أستاذ أهل البصره

أمــه معــرفة　　وأبــوه نكـــره[1]

فقلت أي المبرد: لا أعرفه.

فقال الشيخ: أتعرف غلاما له نبغ في هذا العصر معه ذهن، وله حفظ وقد برز في النحو يعرف بالمبرد؟ فقلت أي المبرد: أنا والله عين الخبير به قال الشيخ: فهل أنشدك شيئا من شعره؟ قلت أي المبرد لا أحسبه يحسن قول الشعر. قال الشيخ: يا سبحان الله أليس هو القائل:

حبذا ماء العناقيـ　　ـد بريق الغانيـــات

بهمـــا ينبت لحمي　　ودمـــي أي نبـــات

أيها الطالب أشهي　　من لذيذ الشهــوات

---

(١) يقصد أبا عثمان المازني، البصري يقصد مذهبا في النحو واللغة، معرفة، توريتان.

كل بماء المزن تفا ح خدود الغانيات[١]

قلت أي المبرد: قد سمعته ينشد هذا في مجلس الأنس.

فقال الشيخ: يا سبحان الله، أولا يستحي أن ينشد هذا حول الكعبة؟

ثم قال الشيخ: وما تسمع ما يقولون في نسبه؟

قلت أي المبرد: يقولون إنه من الأزد، أزد شنوءة، ثم من ثمالة.

قال الشيخ: قاتله الله، ما أبعد غوره، أتعرف قوله:

سألنا عن ثمالة كل حي فقال القائلون: ومن ثماله ؟

فقلت:محمد بن يزيد منهم فقالوا: زدتنا بهم جهاله

فقال لي المبرد خل قومي فقومي معشر فيهم نذاله[٢]

فقلت أي المبرد: أعرف هذا لعبد الصمد بن المعذل[٣]يقولها فيه.

---

(١) حبذا:أسلوب مدح،ماء العناقيد:يقصد الخمر المستخرج من العنب، ماء المزن:الماء يأتي من السحاب،أي المطر،الماء العذب، تفاح خدود:تشبيه من إضافة المشبه به إلي المشبه، الغانيات:النساء اللاتي استغنين بجمالهن عن الزينة،والمقطوعة علي وزن مجزوء الرمل

(٢) ثمالة:قبيلة المبرد، حي:أي شخص، أو قبيلة، ومن ثمالة:الاستفهام للتحقير،محمد بن يزيد:أي المبرد، زدتنا بهم جهالة:يقصد أن المبرد نكرة أيضا مثل قومه لا يشار إليه ولا إليهم بالبنان، خل قومي:اتركهم وشأنهم،أو لا تتحدث عنهم، نذالة:قلة المروءة، والأبيات علي وزن بحر الوافر.

(٣) عبد الصمد بن المعذل من قبيلة عبد القيس، ومولده ومنشؤه بالبصرة،وهو من بيت شعر، وفي أشعاره ما يدل علي أنه كان يختلف إلي حلقات الرواة واللغويين من أمثال الأصمعي،وخلف الأحمر، وكان هجاء خبيث اللسان، حتي ليصبح الهجاء عنده كأنه غريزة، وكثرت معاركه مع الشعراء، وهجا أخاه، وابن أخيه،وجيرانه،والقيان، والمقينين، وله أشعار في=

فقال الشيخ: من ادعاها ،هذا لرجل لا نسب له،يريد أن يثبت له بهذا الشعر نسبا.

فقلت أي المبرد: أنت أعلم.

فقال الشيخ: يا هذا قد غلبت خفة روحك علي قلبي، وقد أخرت ما كان يجب تقديمه، ما الكنية أصلحك الله؟

قلت أي المبرد: أبو العباس.

قال الشيخ: فما الاسم؟

قلت أي المبرد: محمد.

قال الشيخ: فالأب؟

قلت أي المبرد: يزيد.

قال الشيخ: قبحك الله، أحوجتني إلي الاعتذار مما قدمت ذكره.

ثم وثب باسطا يده يصافحني، فرأيت القيد في رجله إلي خشبة، فأمنت غائلته.

فقال الشيخ: يا أبا العباس صن نفسك عن الدخول إلي هذه المواضع، فليس يتهيأ أن تصادف مثلي، علي مثل هذه الحالة، أنت المبرد؟

= الغلمان، وكان حسن الوصفللطبيعة، ووصفه فيه دقة، وإحاطتوكان شاعرا بارعا خصب القريحة، حريصا علي الألفاظ المألوفة، والمتانة، والرصانة، وتوفي سنة مائتين وأربعين من الهجرة، تاريخ الأدب العربي،والعصر العباسي الأول، دكتور شوقي ضيف ٣/٣٣٦-٣٦٩.

أنت المبرد ؟

وجعل يصفق، وانقلبت عينه، وتغيرت حالته، فبادرت مسرعا خوفا أن تبدر لي منه بادرة، وقبلت - والله - منه، فلم أعاود إلي مجلس مثله بعدها.[1]

***

أشأم من البسوس، البسوس بنت منقذ التميمية، زارت أختها أم جساس بن مرة، ومع البسوس جار لها، من جرم،يقال له سعد بن شمس، ومعه ناقة يقال لها سراب،فرعت في حمي كليب مع إبل جساس،ولم يكن يرعاه إلا إبل جساس بسبب الصهر بينهما، لأن جليلة بنت مرة، أخت جساس،كانت زوجا لكليب،فرماها كليب،فأقبلت إلي صاحبها، وضرعها يشخب دما، ولبنا، فصرخ بالذل، فنادت جارته البسوس: واذلاه.

ثم أنشدت البسوس جساسا:

لعمرك لو أصبحت في دار منقذ
لما ضيم سعد وهو جار لأبياتي
ولكنني أصبحت في دار غربة
متي يعد فيها الذئب يعد علي شاتي
فيا سعد لا تغرر بنفسك وارتحل
فإنك في قوم عن الجار أموات

---

(١) شرح مقامات بديع الزمان ص.١٥٠-١٥٢

ودونك أذوادي فـإني عنهـم
لـراحلة لا يـفقـدونـي بنيـاتي

***

فقال جساس: ليقتلن جمل هو أعظم من ناقة جارك، ولم يزل يتوقع غرة كليب، حتي وجدها، فطعن كليبا.

ولحقه عمرو بن الحارث، فقال له كليب: أغثني بشربة ماء، فأجهز عليه، وقال:

المستجير بعمرو عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار

***

وقال جساس لأبيه:

تأهب عنك أهبة ذي امتناع فإن الأمر جل عن التلاحي
فإني قد جنيت عليك حربا تغص الشيخ بالماء القراح

فأجابه أبوه:

فإن تك قد جنيت علي حربا فلا وان ولا رث السلاح
سألبس ثوبها وأذب عنها بها يوم المذلة والفضاح

***

ونشب الشر بين تغلب وبكر، أربعين سنة، كانت كلها لتغلب علي بكر.

وكان الحارث بن عباد البكري قد اعتزل القوم، فاجتمعوا إليه، فأرسل

إلي مهلهل ابنه بجيرا، فقتله، وقال بؤ بشسع كليب.

فقال الحارث:

قربا مربط النعامة مني   لقحت حرب وائل عن حيال

لم أكن من جناتها علم اللـ   ـه وإني بحرها اليوم صالي

لا بجير أغني قتيلا ولا رهـ   ـط كليب تزاجروا عن ضلال

ثم قاتل بني تغلب علي جبل قضة، فلم يقوموا لبكر بعدها.[1]

***

وقيل: إن كليبا قد ساد في ربيعة، فبغي، وكان ينزلهم، ويرحلهم، وبلغ من بغيه أنه اتخذ جرو كلب، فكان إذا نزل منزلا، به كلأ، قذف الجرو، فعوي، فيكون حماه من الكلأمدي ما بلغ إليه صوت الجرو، وضرب به المثل فقيل: أعز من كليب وائل.

وكان يحمي الصيد أيضا، وكان لا يمر بين يديه أحد إذا جلس، ولا يحتبي أحد في مجلس غيره.

وكان لمرة بن ذهل بن شيبان بن ثعلبة عشرة بنين، جساس أصغرهم سنا، وكانت أختهم جليلة زوجا لكليب.

---

(١) مجمع الأمثال ٢٥٤/١، خزانة الأدب ٣٠١/١، لسان العرب ٣٢٦/٧، الفاخر ص ٩٣ - ٩٦

وجاءت البسوس، أو البسوسة، خالة جساس، فنزلت علي ابن أختها، جارة لبني مرة، ومعها ابن لها، وناقة خوارة اسمها سراب، وبها يضرب المثل في الشؤم يقال: أشأم من سراب - وهي من نعم بني سعد، ومعها فصيل.

وقد سأل كليب زوجه: من أعز وائل؟

قالت أخواي جساس، وهمام.

فأخذ القوس، ورمي فصيل ناقة البسوس، فقتله، فأغمضوا علي ذلك.

ثم لقي كليب ابن البسوس، فقال: ما فعل فصيل ناقتكم؟

قال: قتلته، وأخليت لنا لبن أمه، فأغمضوا علي ذلك أيضا.

ثم أعاد كليب علي زوجه: من أعز وائل؟

فقالت أخواي جساس وهمام:

فأسرها في نفسه، حتي مرت إبل جساس، فرأي الناقة فأنكرها، ولما عرف أنها لخاله جساس قال: أوقد بلغ من أمر ابن السعدية أن يجير علي بغير إذني؟

فرمي ضرع الناقة، فاختلط دمها بلبنها، وأبلغ الرعاة جساسا فقال: احلبوا لها مكيالي لبن بمحلبها، ولا تذكروا لها من هذا شيئا، ثم أغمضوا علي ذلك أيضا.

وركب جساس بن مرة، وابن عمه عمرو بن الحارث بن ذهل، فمرت بكر بن وائل علي نهي،يقال له:شبيث، وآخر يقال له: الأحص،فنفاهم كليب عنهما، ومنعهم بطن الجريب، ثم نزلوا الذنائب وأتبعهم كليب، وحيه.

فقال له جساس: طردت أهلنا عن المياه، حتي كدت تقتلهم عطشا.

فقال كليب: ما منعناهم من ماء، إلا ونحن له شاغلون.

فقال جساس: هذا كفعلك بناقة خالتي.

فقال له كليب: أوقد ذكرتها ؟ أما إني لووجدتها في غير إبل مرة لاستحللت تلك الإبل،فطعنه جساس، فأنفذ حضينه.

وقال أبوه لما رأته أخت جساس خارجا ركبتاه: والله ما خرجت ركبتاه إلا لأمر عظيم.

فقال جساس: طعنت طعنة لتشغلن بها شيوخ وائل زمنا، قتلت كليبا، فقال أبوه: وددت أنك، وإخوتك كنتم متم قبل هذا، ما بي إلا أن تتشائم بي أبنا موائل.

***

وقال جساس لأخيه نضلة، وكان يقال له عضد الحمار:

وإني قد جنيت عليك حربا   تغص الشيخ بالماء القراح

مذكرة متي ما يصح عنها   فتي نشبت بآخر غير صاح

تنكل عن ذئاب الغي قوما   وتدعو آخرين إلي الصلاح

***

فغدا مهلهل بالخيل، ومعه قومه.

فقال بنو تغلب: لا تعجلوا علي إخوتكم حتي تعذروا بينكم وبينهم.

فانطلق رهط من أشرافهم إلي مرة بن ذهل، وقال له: اختر منا خصالا: إما أن تدفع إلينا جساسا، نقتله بصاحبنا، فلم نظلم من قتل قاتله.

وإما أن تدفع إلينا هماما.

وإما أن تقيدنا من نفسك.

فقال: أما جساس فغلام، حديث السن، ركب رأسه، فهرب، حين خاف، فلا علم لي به.

وأما همام فأبوعشرة، وأخو عشرة ولو دفعته إليكم لصيح بنوه في وجهي، وقالوا:دفعت أبانا للقتل بجريرة غيره.

وأما أنا فلا أتعجل الموت، وهل تزيد الخيل علي أن تجول جولة فأكون أول قتيل؟ ولكن هل لكم في غير ذلك؟ هؤلاء بني، فدونكم أحدهم، فاقتلوه به، وإن شئتم فلكم ألف ناقة.

فقالوا: إنا لم نأتك، لتؤدي لنا بنيك، ولا لتسومنا اللبن، ووقعت الحرب.

وتكلم قوم منهم في ذلك، عند الحارث بن عباد، فقال: لا ناقة لي في

هذا ولا جمل، وهو أول من قالها وأرسلها مثلا.

ودامت الحرب أربعين سنة.

***

وكان منها يوم عنيزة، يقول مهلهل:

كأنا غـــدوة وبني أبينـــا بجنب عنيزة رحيـــا مدير

ولولا الريح أسمع من بحجر صليل البيض تقرع بالذكور

وكذلك يوم واردات، وقتل فيها بجير بن الحارث بن عباد.

يقول مهلهل:

فإني قد تركت بـــواردات بجيرا في دم مثل البعير

هتكت به بيوت بني عباد وبعض الغشم أشفي للصدور

ويوم القصيبات، وقتل فيها همام بن مرة، ويوم قضة وهو يوم التحالق ويوم الفصيل.

وقيل إن آخر من قتل في حرب بكر وتغلب هو جساس بن مرة، وهو قاتل كليب.

وكانت جليلة أخت جساس، وزوج كليب، قد رجعت إلي أهلها، بعد مقتل زوجها، وهي حامل، فولدت غلاما سمته الهجرس، ورباه خاله، وزوجه ابنته، فكان لا يعرف أبا غير خاله.

فوقع بينه وبين رجل من بني بكر بن وائل، ما جعل البكري يقول له: ما

أنت بمنته حتي نلحقك بأبيك، فدخل الهجرس إلي أمه كئيبا، فسألته فأخبرها، فلما أوي إلي فراشه، ونام تنفس فأحست امرأته لهيب نار، ففزعت قد أقلتها رعدة، وقصت علي أبيها.

فقال جساس: ثائر ورب الكعبة، ثم قال للهجرس: رأيت أن تدخل فيما دخل فيه الناس، من الصلح، وأن تنطلق معي حتي نأخذ عليك، مثل الذي أخذ علينا، وعلي قومنا.

فقال الهجرس: أنا فاعل، ولكن مثلي لا يأتي قومه إلا بلأمته وفرسه.

فمنحه جساس فرسا، ولأمة، ودرعا، وخرجا حتي أتيا القوم، وقص عليهم جساس، وقال: وهذا الفتي ابن أختي، قد جاء ليدخل فيما دخلتم فيه، ويعقد فيما عقدتم.

فلما قربوا الدم، وقاموا إلي العقد، أخذ الهجرس بوسط رمحه وقال: وفرسي وأذنيه، ورمحي ونصليه، وسيفي وغراريه، لا يترك الرجل قاتل أبيه، وهو ينظر إليه، ثم طعن جساسا فقتله، ثم لحق بقومه، فكان آخر قتيل في بكر بن وائل.

وسار شؤم البسوس مثلا ونسبت الحرب إليها لكونها سببا، وهي من أشهر حروب العرب، وقال المغلس:

وكأن بين يمينــــه   وترائه حرب البسوس[1]

---

(١) ثمار القلوب ص٣٠٧ . ٣٠٨.

يضرب حرب البسوس مثلا.

وما صنعه الهجرس مع خاله جساس يدل علي أنه ابن كليب حقا، فقد وافق شن طبقة، كما يقول المثل العربي.

***

يقول المثل: وافق شن طبقه.

قيل: كان شن من دهاة العرب، فقال: والله لأطوفن حتي أجد امرأة مثلي، فأتزوجها.

فبينما هو في بعض مسيره، إذ وافقه رجل في الطريق، فسأله شن أين تريد؟

فقال الرجل: موضع كذا، يريد القرية التي يقصد لها شن، فرافقه.

فلما أخذا في مسيرهما قال له شن: أتحملني أم أحملك؟

فقال له الرجل: يا جاهل، أنا راكب وأنت راكب، فكيف أحملك، أو تحملني؟

فسكت عنه شن وسارا، حتي إذا قربا من القرية، إذا هما بزرع قد استحصد، فقال له شن: أتري هذا الزرع أكل أم لا؟

فقال له الرجل: ياجاهل تري نبتا مستحصدا، فتقول: أتراه أكل أم لا؟

فسكت عنه، حتي إذا دخلا القرية، لقيتهما جنازة، فقال شن: أتري

صاحب هذا النعش حيا أم ميتا؟

فقال له الرجل الرفيق: ما رأيت أجهل منك، تري جنازة فتسأل عنها، أميت صاحبه أم حي؟

فسكت عنه شن، وأراد مفارقته، فأبي الرجل أن يتركه، حتي يصيربه إلي منزله، فمضي معه.

وكانت للرجل ابنة، يقال لها: طبقة، فلما دخل عليها أبوها، سألته عن ضيفه، فأخبرها بمرافقته إياه، وشكا إليها جهله، وحدثها بحديثه، فقالت طبقة: يا أبه، ما هذا بجاهل.

أما قوله: أتحملني، أم أحملك؟

فأراد: أتحدثني، أم أحدثك؟

حتي نقطع طريقنا.

وأما قوله: أتري هذا الزرع أكل، أم لا؟

فإنما أراد: أباعه أهله، فأكلوا ثمنه، أم لا؟

وأما قوله في الجنازة، فأراد: هل ترك عقبا يحيا بهم ذكره، أم لا؟ فخرج الرجل، فقعد مع شن، فحادثه ساعة، ثم قال الرجل لشن: أتحب أن أفسر لك ما سألتني عنه؟

قال شن: نعم.

ففسره، فقال شن: ما هذا من كلامك، فأخبرني من صاحبه؟

فقال الرجل: ابنة لي، فخطبها إليه، فزوجه إياها، وحملها إلي أهله فلما رأوهما قالوا: وافق شن طبقة.

***

برد العجوز، وهي أيام سبعة في آخر فصل الشتاء:

أربعة أيام من آخر شهر شباط الرومي.

ثلاثة أيام من أول شهر آذار الرومي.

***

. قيل: إن عجوزا، دهرية، كاهنة، من العرب كانت تخبر قومها، ببرد يقع في آخر الشتاء، وأوائل الربيع، فيسوء أثره علي المواشي، فلم يكترثوا بقولها، وجزوا أغنامهم، واثقين بإقبال الربيع، فلم يلبثوا إلا مديدة، حتي وقع برد شديد، أهلك الزرع، والضرع.

فقالوا: هذا برد العجوز، يعنون العجوز التي كانت تنذر به.

***

وقيل:إن عجوزا كانت بالجاهلية، ولها ثمانية بنين، فسألتهم أن يزوجوها.

فقالوا لها: إن كنت تزعمين أنك شابة،فابرزي للهواء ثماني ليال، فإننا نزوجك بعدها.

وتعرت تلك الليلة، فلما أصبحت قالت العجوز:

إيها بني إنني لناكحه

إن أبيتم إنني لجامحه

هان عليكم ما لقيت البارحه.(١)

فقالوا لها: لابد أن تنجزي وعدك في الليالي السبع.

ففعلت، وماتت في الليلة السابعة.

***

وفيها شعر مصنوع هو:

كسع الشتاء بسبعة غبر   أيام شهلتنا من الشهر

فإذا انقضت أيام شهلتنا   بالصن والصنبر والوبر

وبآمر وأخيه مؤتمر   ومعلل وبمطفئ الجمر

ذهب الشتاء موليا عجلا   وأتتك وافدة من الجمر(٢)

وتروي في الصحاح: بتغيير في البيت الثاني:

فإذا انقضت أيامها ومضت   صن وصنبر من الوبر

وكذلك تغيير في نهاية البيت الرابع:

---

(١) جامحة: تاركة رأيك خارجة غضبي وأتزوج، برأيي، إيها: بمعني هيهات، أو بعد.
(٢) كسع: ولي وذهب، غبر: بلون الغبار، والشهلة: بضم الشين: أن يشوب سواد العين زرقة.

ذهب الشتاء موليا عجلا   وأتتك واقدة من النجر

قال صاحب مختار الصحاح: قلت: ترتيبها هو الترتيب المذكور في الشعر، إلا في مطفئ الجمر، فإنه السادس، ومكفئ الظعن هو السابع، وهو الذي ذكر معلل مكانه.[1]

***

وقد نسب صاحب الصحاح هذه الأبيات لابن أحمر، وقال: وهي عند العرب خمسة أيام: صن، وصنبر، وأخيهما وبر، ومصطفئ الجمر، ومكفئ الظعن.

وقال أبو الغوث: هي سبعة أيام، وأنشد الأبيات السابقة.

***

وقال بعض المفسرين: إنها الأيام التي أهلك الله تعالي فيها عادا، فقال تعالي:[2]

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ۝٨﴾

---

(١) مختار الصحاح ص٤٣٩
الصن: بكسر الصاد، وتشديد النون، وهو يوم من أيام العجوز، والصنبر: بكسر الصاد، وتشديد النون وفتحها، وسكون الباء: يوم من أيام العجوز، وكذلك الوبر: بفتح الواو وسكون الباء، المعلل: بصيغة اسم الفاعل، لأنه يعلل الناس بشئ من تخفيف البرد، ومطفئ: بصيغة اسم الفاعل.

(٢) الحاقة ٦ - ٨

***

وقال ابن المعتز في هجاء عجوز:

جمد برد العجوز في كوزها الـ   ماء وأطفي نيران مجمرها[1]

فليت برد العجوز في فمها   ....

***

وقال ابن الرومي يهجو مغنيا بالبرود:

فتغني فهزني البرد حتي   خلت أني في وسط برد العجوز[2]

***

ونسب العرب إليها برد الأيام الثمانية، وأسماؤها (الصن، والصنبر، والوبر، وآمر، ومؤتمر، ،معلل، ومطفئ الجمر، ومكفئ الظعن).

***

غداة البين: وقت فراق الأحبة.

قال امرؤ القيس:

كأني غداة البين يوم تحملوا   لدي سمرات الحي ناقف حنظل

(١) جمد: من شدة البرد، والكوز: إناء الماء، المجمر: موقد الجمر.

(٢) ثمار القلوب ص٣١٣-٣١٥

يصف المغني بالبرود، حتي أثر بروده في السامعين، لثقله وثقل غنائه علي السمع.

وقوفـا بها صحبي علي مطيهم　　يقولـون لا تهلك أسي وتجمـــل

وإن شــفائى عبرة إن سفحتهـا　　وهـل عند رسـم دارس من مـعـول

كـدينك من أم الحـويرث قبلـها　　وجـارتـها أم الـرباب بمـأسـل

ففاضت دموع العين منى صبابة　　علي النحر حتى بل دمعى محملى[1]

غداة البين دموع ، و أسى ، و عبرة . و صبابة .

***

وقال كعب بن زهير :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول　　متيم إثـرهـا لـم يفـد مكبـول

وما سعاد غداة البين إذ رحلوا　　إلا أغن غضيض الطرف مكحول[2]

---

(١) ديوان امرئ القيس ص٩

- السمر:شجر أم غيلان،وهي شجر الصمغ العربي، الناقف:المستخرج حب الحنظل، والحنظل له حرارة تدمع منها العين، فشبه ما جري من دمعه لفقد أهل الدار بما يسيل من عين ناقف الحنظل، وإنما خص ناقف الحنظل، لأنه لا يملك سيلان دمعه، كما لا يملكه من اشتد شوقه، وحزنه.
المطي:الإبل، والواحدة مطية، وانتصب بالمصدر:وقوفا ، وقوفا :حبسا .

- رسم دارس:درس، ولم يذهب كله، لأنه قال:لم يعف رسمها ، المعول:من العويل، والبكاء، وقوله:واعولاه، أو من التعويل علي الشئ، أي إن البكاء علي الرسوم لا يجدي شيئا ، فلا ينبغي أن يعول عليه.

- الدين:الدأب،والعادة، أي لقيت من هذه ما كنت تلقي من أم الحويرث، وهي: هر، أخت الحارث بن حصين بن ضمضم، مأسل: موضع.

- الصبابة: رقة الشوق، المحمل: سير يحمل به السيف، وأراد أنه بكي بكاء شديدا ، حتي بل دمعه محمل سيفه.

(٢) نصوص ص١٣٧

بانت: نأت وفارقت فراقا بعيدا ،والفاء: للسببية يبين بما بعدهامن البيت ما نشأ عن الفراق،=

***

بين و فراق ، و حزن.

ومن معنى غاة البين يولد الشعراء معنى فراق الأحبة.

قال النابغة الذبيانى :

نعب الغراب بأن رحلتنا غد   وبذلك تنعاب الغراب الأسود

= القلب: الفؤاد، والعرب تعتقد أنه موضع الحس والشعور، ولعل السر في هذا الاعتقاد أن القلب أكثر أعضاء الجسم تأثرا بالانفعالات النفسية، والاستجابة لها، ويصح أن يراد بالقلب هنا: العقل، متبول: سقيم عليل، أو ذاهب من هول، من تبله الحب، بمعني أسقمه وأضناه، أو أذهب عقله، لم يفد: تقدم الفدية لإنقاذه، وفك أسره، ويروي: لم يشف، من الشفاء والبرء من المرض، مكبول: مقيد، إذا وضع في رجله الكبل، وهو القيد مطلقا، أو القيد الضخم.

يبين أثر الفراق في نفسه، فقد أصبح مضني القلب، ذاهب العقل، ذليلا مستعبدا بحبها، أسيرا مقيدا في هواها، لا يجد له فداء من الأسر، ولا فكاكا من القيد.

– غداة البين: ساعة الفراق المبكرة، والغداة: أول النهار من ظهور الفجر إلي مطلع الشمس، وهو المراد الراجح هنا، ويجوز أن يراد منها مطلق الزمان، فغداة البين: ساعته ووقته، بدون ملاحظة معني التبكير، أغن: هو الذي في صوته غنة، وهو صوت لذيذ يخرج من أقصي الأنف، وبه يشبه حفيف الرياح في الأشجار الملتفة، وطنين الذباب في الرياض، ويقال: واد أغن، وروضة غناء، والموصوف بالغنة هنا محذوف، وهو الظبي الذي يشبه به حبيبته، في جمال الصوت، وفيما بعده من أوصاف، غضيض الطرف: فعيل بمعني مفعول، من غض البصر: خفض البصر عند النظر، ولم يحدقه، إما عن فتور الأجفان، وتكسرها خلقة، وإما بسبب الخفر، والحياء، وكلاهما جائز هنا، لأن الأول من صفات الحسن والجمال، والثاني من أفضل الخصال، والطرف: العين، مكحول: هذا الوصف في ذاته يحتمل أن يكون من الكحل، بفتح الكاف والحاء، أو من الكحل، بضم الكاف، وسكون الحاء، ولكنه في مثل هذا الموطن ينصرف غالبا إلي الأول، والكحل: بفتحتين، سواد يعلو الجفنين خلقة، ويغني عن الاكتحال، يتحدث عن بعض محاسن سعاد التي ظهرت له في وقت الرحيل، وبقيت صورتها في ذهنه، فقد بدت له كالغزال في ثلاث صفات: في غنة الصوت، وفي فتور الجفون، وفي كحل العيون.

لا مرحبا بغد و لا أهلا به   إن كان تفريق الأحبه فى غد

***

يعتقدون في الغراب، وزجره، والسانح، والبارح، والتفاؤل والتشاؤم، فقد زعم الغراب عند زجره، بأن الرحلة ستكون فى الغد، ولذلك فالغراب يصيح بالفراق، و من عجب أن الغراب لونه أسود.

ثم يعلن ضيقه بالغد، يكرهه، و لا يرحب به، لأن فى الغد أمرا عسيرا على نفسه، و قلبه، وعقله، و هو تفريق الآحبة بالارتحال،والبين، فلا مرحبا، ولا أهلا بالغد إن كان الغد يحمل أمرا صعبا مثل تفريق الآحبة .

***

وقال صاعد :

قلت له و الرقيب يعجله   مستعجلا للفراق أين أنا

قال للحبيبة، والرقيب عليها يعجلها للارتحال، والبين، والفراق،أين أنا منك، أى أنت منى قريب حبيب، لا أستطيع فراقك، والرقيب يجعلك على الفراق، فموقعى عنده أريد معرفته، أين موقعى منك ؟

***

وقال آخر :

لا كان يوم الفراق يوما   لـم يبـق للمقتلـين نومـا

شتت منى ومنك شملا   فـسر قـوما وسـاء قـومـا

يا قوم مالى بفقد خـل ... يسومنى فى العذاب سوما

مالا منى الناس فيـه إلا ... بكيت كيـما أزاد لوما[1]

يدعـو عـلى يوم الفـراق، فـلا كـان هـذا اليـوم يومـا ، لأنه لم يـبق نـومـا للعين، من الضيق به، والحزن فيه .

شتت يوم الفراق منه و من محبوبه شمـلا ، ففرقـهـمـا ، فسر هذا الفراق قوما ، وهم أعدؤه وساء قوما ، وهم أحبابه، هو ومحبوبه .

ثم ينادي: يا قوم، مالى احتمال بفقد الحبيب، الذى يسومنى سوما فى العذاب .

مـالا منى النـاس فيـه، و فى حبى إياه إلا بـكيت دلالة عـلى الحب، وذلك ليزيدنى الناس لوما فى هذا الحبيب، على هذا الحب .

***

ثقل الدين: الدين هم بالليل، ومذلة بالنهـار، وثقله عـلى ذى المروءة لا يطاق، ويضرب به المثل .

قال ابن الرومى :

وثقيـل كأنه ثقـل ديـن ... يتعداه طالعا كل عين

حمل الله ثقلها ثقلها ثم ... م براه عـلاوة الثقلين[2]

---

(١) شرح مقامات بديع الزمان ص٣٧٧

(٢) ثمار القلوب ص ٦٦٨

يصف الثقيل وصفا غاية فى الثقل، فجعل ثقل الدين مثلا لنهاية الثقل، لأن ثقل الدين لا يطاق .

ثم يدعو على هذا الثقيل بأن يحمله الله ثقل الدين، ويزيده ثقل الثقلين من الإنس والجن .

***

ويروي أن لقمان قال لابنه :

يا بنى، حملت الصخر و الحديد، فلم أحمل أثقل من الدين، وأكلت الطيبات، و عانقت الحسان فلم أصب ألذ من العافية، وذقت المرارات فلم أذق أمر من الحاجة إلى الناس.[1]

***

أى إن حمل الدين أثقل من حمل الصخر والحديد، وليس ثمت مرارة أمر من الحاجة إلى الناس.

شجر الزقوم: شجر مر كريه، يخرج فى أراضى تهامة.

قال تعالى:[2]

أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا

---

(١) المصدر السابق ص ٦٦٨
(٢) الصافات ٦٢- ٦٦

فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾

وقال تعالى:[1]

إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾

وقال تعالى:[2]

ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾.

***

منع الماعون: كل ما ينتفع به من منافع البيت، أو الزكاة.

كما في قوله تعالى:

وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾

وقال الراعي:

قوم على الإسلام لما يمنعوا ماعونهم و يكذبوا التنزيلا

أي لم يمنعوا الماعون، و لم يكذبوا القرآن الكريم.

أو الماعون: أي الماء ، أنشد الفراء:

---

(١) الدخان ٤٣-٤٦
(٢) الواقعة ٥١-٥٣
(٣) الماعون ٧

يمج صبيره الماعون صبا[1]

***

- سنة الطاعون:[2] فكانت العرب تسميه رماح الجن.

وجاء فى الحديث الشريف: إنه وخز أعدائكم من الجن.

ولما كان طاعون عمواس، قام عمرو بن العاص فى الناس، خطيبا، فقال: يا أيها الناس، إن هذا الطاعون قد ظهر، و إنما هو وخز من الشياطين، ففروا منه فى الشعاب.

وبلغ ذلك معاذ بن جبل، فأنكر عليه هذا القول، ثم لم يلبث أن مات فيه.

قال الجاحظ: وقدكانت الطواعين تقع كثيرا، فتصير تواريخ، كطاعون عمواس، وطاعون العذارى، وطاعون الآ شراف، وغيرها.

***

قال العمانى للرشيد:

قد أذهب الله رماح الجن   وأذهب التعليق والتجنى

يقصد برماح الجن: الطاعون.

---

(١) الفاخر ٢٤٣

(٢) ثمار القلوب ص٦٨

***

وقالت امرأة قتل ابنها غير أكفائه:

لعمرك ما خشيت على على   رماح بنى مقيدة الحمار

ولكنى خشيت على عــدى   رماح الجن أوإياك جــار

أى خشيت عليه الطاعون والجار.

***

وقال المنصور يوما لأبى بكر بن عياش:

من بركتنا أن رفع عنكم الطاعون، فقال: لم يكن الله ليجمعكم علينا، و الطاعون.

والطاعون: داء يستأصل شأفه البلد التى يحلها، فهو مشؤوم، وسنته مكروهة.

***

كلام المعيد سمج قبيح، و قبحه من قبح المحدث، أو الحديث،أما إذا كان المحدث مرغوبا فيه، فإنه يحسن حديثه، مثل قول الشاعر:

من الخضرات البيض ود جليسها إذا ما انقضت أحدوثة لو تعيدها[١]

---

(١) شرح مقامات بديع الزمان ص٣٧٩

أى ذات حياء وخفر، وأصل كريم، يود الجالس معها التى تحدثه أن لا ينتهى حديثها أبدا، فإذا انقضت أحدوثة، فإنه يود أن تعيدها عليه، لجمال حديثها.

***

وتنحنح المضيف إذا كسو الرغيف، إنما هى علامة بخل المضيف، وإشارة للضيف تدل على الضجر، والضيق.

قال أبو نواس:

وإن فقد الرغيف بكى عليه   بكا الخنساء إذ فجعت بصخر[1]

***

وأنشد الأصمعى أو ابن الأعرابى:

لعمرك إن قرص أبى بليل   لبادى اليبس محشوم الأكيل

فالأول تهكم وسخرية، وهجاء، و ذم بالبخل لمهجوه، فهو إذا فقد الرغيف بكى عليه وكأنه فقد مالا يرجع أبدا، أو فقد عزيزا عليه.

ثم يصور بكاءه تصويرا يدل على شدة هذا البكاء، فقد ضرب له مثلا ببكاء الخنساء الشاعرة، على أخيها صخر، وبكاء الخنساء على صخر أمر مشهور فى الشعر العربى.

---

(١) مختار الأغاني ٣/ ٢٨٠، ديوان أبي نواس ص٥٣٢

والثانى يقسم على أن قرص الخبز لأبى بليل ظاهر اليبس، خجلان آكله.

– نكهة الصقور أى رائحة الفم للبازى والشاهين، وهى لا تأكل إلا اللحم، لذا فهى موصوفة بالبخر.

قال الشاعر:

وله نكهة ليث   خالطت نكهة صقر

أى له رائحة فم الليث والصقر فى البخر.

وقيل فى وصف رجل: شملت من الصقر بخره.

ومن كلام البديع:

ولقد صادفت من فمه صقرا.[1]

وقال ابن حميد لابن هفان يوما: أنا الأسد، فقال: ليس فيك من الأسد إلا النكهة.

***

– وتد الدور، يضرب به المثل فى تحمل الضيم، و الرضا بالأذى، لأنه لا يزال يدق حتى يتحطم.

قال المتلمس:

---

(1) ثمار القلوب ص٣٨٤، ٤٥٦-٤٥٧

ولا يقيم على ضيم يقر به		إلا الأذلان عير الحى و الوتد

هذا على الخسف مربوط برمته		وذا يشج فلا يرثى له أحد[1]

وقال دريد بن الصمه:

فى منزل نازح م الحى منتبذ		كمربط العير لا أدعى إلى خبر[2]

***

فقول الملتمس يبين أنه لا يقيم على الضيم، والذل والخسف الذى يقع عليه إلا الأذلان، وهما عير الحى المربوط الذى يركبه كل من يريد حاجة، فهو مربوط للذل والهوان، لايمنع أحدا من ركوبه، ولا يستعصى على أحد.

والوتد الذى يضرب رأسه، حتى يشج، ومع ذلك لا يرثى له أحد، ولا يشفق عليه أحد.

أما قول دريد بن الصمة فهو يبين أنه نازح بعيد عن ديار الحى منتبذ من أهله، وقومه، كمربط العير، إما الوتد، أو المكان لا يدعى إلى خبر، وإنما هو بعيد عن فكر القوم.

***

- خذروفة القدور.

---

(١) نهاية الأرب ٣/٦٤، الفاخر ص٢٧٤
(٢) مختار الأغاني ٥/٢٢٦

الخذروفة مؤ نث الخذروف، لعبة من الطين، مثقوبة يجعل فيها الصبيان خيطا، يديرونها به، تشبه ما يسمى الأن النحلة، ويضرب بها المثل فى السرعة.

قال امرؤ القيس يصف الفرس:

دريز كخذروف الوليد أمره   تتابع كفيه بخيط موصل[1]

وهو يقصد الذي يمر علي القدور ليأكل، فهو شره علي قدور غيره، أو ضيف ثقيل يأكل عند كل الناس، أو أنه لا يحسن الأدب في الطعام، وإنما يمر علي أنواعها سريعا.

***

- الأربعاء التي لا تدور، قيل في يومه:

الأربعاء يوم وحش   النحس فيه منكمش

الأخذ فيه والعطا   من ذوي المودات خطا

***

ولابن الحجاج في رثاء ابن العميد:

---

(١) ديوان امرئ القيس ص٢١

درير: يعني في عدوه، أي سريع خفيف، الخذروف: الخرارة التي يلعب بها الصبيان تسمع لها صوتا، وهي سريعة المر، وخيطها محكم الفتل، وجعل الخيط موصلا، لأنه قد لعب بها كثيرا، حتي خف، وأخلق، وتقطع خيطه فوصل، فذلك أسرع لدورانه.

أقول ليوم الأربعاء وقد غدا على بوجه أغبر اللون قاتم
بعثت علي الأيام نحسا مؤيدا بشؤمك يايوم الندي والمكارم

***

وقيل: آخر أربعاء في الشهر نحس مستمر، وتمثل به من قال:

لقاؤك للمبكر يوم سوء ووجهك أربعاء لا تدور[1]

فالبيتان الأولان يقول صاحبهما: الأربعاء يوم سئ، والنحس فيه منكمش ليظهر في هذا اليوم، أي منكمش قبله حتي هذا اليوم، فيخرج عن انكماشه.

الأخذ فيه والعطاء فيه من أصحاب المودة خطأ، لأنه سيصيبهم بنحسه.

***

أما قول ابن الحجاج في رثاء ابن العميد، فإنه يقول: إن يوم الأربعاء غدا عليه بوجه أغبر اللون قاتم بعثت عليه الأيام فيه نحسا مؤيدا بشؤم يوم الأربعاء، فيقول له علي التهكم والسخرية: يايوم الندي والمكارم.

***

أما البيت الأخير فيبين أن لقاء للمبكر لقاء سوء في يوم سوء، ووجهه أربعاء نحس لا تدور.

---

(١) ثمار القلوب ص ٦٤٩

***

وقيل: يوم الأربعاء ولد فيه يونس بن متي عليه السلام، فضاق موضعه، وقلت كسوته، حتي وصل علي ورقه القرع.

وولد فيه يوسف عليه السلام فطال حبسه، وغربته بما فعل فيه إخوته، وأوحي إلي إبراهيم عليه السلام، فأوقد له قومه الأتون، ونصر فيه رسول الله صلي الله عليه وسلم يوم الأحزاب، بعد أن زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وظنوا بالله الظنون، هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا.[1]

***

وقيل: هي آخر أربعاء من شهر صفر، أو آخر أربعاء من كل شهر.[2]

***

قال أبو تمام في قصيدته البائية في مدح الخليفة العباسي المعتصم، وتهنئته بفتح عمورية، والانتصار علي الروم:

السيف أصدق أنباء من الكتب   في حده بين الجد واللعب

بيض الصفائح لاسود الصحائف في   متهونهن جلاء الشك والريب

---

(١) ثمار القلوب ص ٦٤٩ - ٦٥٠.
(٢) ثمار القلوب ص ٦٥٠.

والعلم في شهب الأرماح لامعة بين الخميسين لافي السبعة الشهب

أين الرواية بل أين النجوم وما صاغوه من زخرف فيها ومن كذب

تخرصا وأحاديثا ملفقة ليست بنبع إذا عدت ولا غرب

عجائبا زعموا الأيام مجفلة عنهن في صفر الأصفار أو رجب

وخوفوا الناس من دهياء مظلمة إذا بدا الكوكب الغربي ذو الذنب

وصيروا الأبرج العليا مرتبة ما كان منقلبا أو غير منقلب

يقضون بالأمر عنها وهي غافلة مادار في فلك منها وفي قطب

لو بنيت قط أمرا قبل موقعه لم تخف ماحل بالأوثان والصلب[1]

---

(١) ديوان أبي تمام ١/ ٤٠ - ٤٥

كان المنجمون قد حكموا أن المعتصم لا يفتح عمورية، وراسلته الروم بأنا نجد في كتبنا أنه لا تفتح مدينتنا إلا في وقت إدراك التين، والعنب، وبيننا وبين ذلك الوقت شهور يمنعك من المقام بها البرد والثلج، فأبي أن ينصرف، وأكب عليها، ففتحها، فأبطل ما قالوا.

الحد الأول للسيف، والحد الثاني الذي يفصل بين الشيئين، أي إن السيف إذا استعمل فقد برئ الأمر من الهزل.

الصحيفة: الكتاب، والدفتر، الصفائح: جمع صفيحة، وهي الحديدة العريضة، والجلاء، بكسر الجيم، كشف الأمر، ورفع الغطاء عنه، حتي يظهر الكامن المستتر فيه، والمعني: أن السيوف تفصل بين الحق والباطل، حتي تتبينه، ولم يقل جلاء الحق، لأن الحق معروف واضح جلي، وإنما يتبين ما يشك فيه.

يرد علي المنجمين ما حكموا به، لأن الظفر كان قبل حكمهم، شهب الأرماح: أسنتها، السبعة الشهب: الطوالع التي أرفعها زحل، وأدناها القمر، وبعضها الشمس، وهي: زحل، والمشتري، والمريخ، والشمس، والزهرة، وعطارد، والقمر، وجعل الشمس والقمر شهابين للغلبة، الخميسان: الجيشان، لأن الملوك إذا غزت أخذت خمس الغنيمة، بمعني مخموس.

- الزخرف: ما يعجبك من متاع الدنيا، وخص به الذهب، ويقال للقول الحسن المكذوب زخرف، لأنه حسن ليغر. =

ذكر صفر الأصفار، أو رجب، أي الوقت من صفر إلي رجب، عندظهور الكوكب الغربي ذي الذنب.

***

وربما كان هذا المعني له علاقة بالمثل المشهور: عش رجبا تر عجبا.

وقائل هذا المثل الحارث بن عباد، من بني ثعلبة، وكان طلق بعض

= - التخرص: الكذب، وافتراء القول، ملفقة: ضم بعضها إلي بعض، وليست من شكل واحد، النبع: شجر صلب ينبت في رؤوس الجبال، وتتخذ منه القسي، وهو صلب لا يقدر علي كسره، ومن أمثالهم: النبع يقرع بعضه بعضا، الغرب: شجر ينبت علي الأنهار ليست له قوة.

يقول: هذه الأحاديث ليست بقوية، ولا ضعيفة، أي هي غير شئ، أو هو كالمعدوم ليس عنده خير ولا شر.

- مجفلة: هاربة بعجلة ذعر، أو منكشفة، صفر الأصفار: عظم شأنه، لأنه ينتظر فيه أمر شاق، أي أخبروا أن أمورا تظهر في صفر، أو رجب، وأن الأيام تسرع في إظهارها.

- دهياء: داهية، وكانوا قد حكموا أن طلوع ذلك الكوكب الموصوف يكون فتنة عظيمة، وتغير أمر، فأنكر أبو تمام ذلك من أحكامهم.

- صيروا التدبير للنجوم، الأبراج: بروج السماء التي أولها الحمل، وآخرها الحوت، والمنجمون يزعمون أنها علي ثلاثة أقسام:

أربعة منقلبة، وهي: الحمل، والسرطان، والميزان، والجدي.

وأربعة ثابتة، وهي: الثور، والأسد، والعقرب، والدلو.

- وأربعة ذوات جسدين، وهي: الجوزاء، والسنبلة، والقوس. والحوت.

أي كانوا يحكمون في أخبارهم بهذه البروج، إذا ورد عليهم خبر في وقت، الطالع فيه برج ثابت حققوه، وإن كان الطالع برجا منقلبا لم يحققوه.

- الفلك: مدار النجوم الذي يضمها، وكل مستدير فلك، والقطب كل ما ثبت فدار عليه شئ، وفي السماء قطب الجنوب، وقطب الشمال، يقول: يحكمون عليها بأحكام مختلفة، وهي لا تعرف شيئا من ذلك، وما يحكمون به لم يدر في فلك منها، ولا قطب.

- لو بان بهذه البروج أمر قبل موقعه لبان أمر هذا الفتح الذي لم يكن فتح أجل منه.

نسائه من بعد ما أسن، فخلف عليها من بعده رجل، فكانت تظهر له من الوجد به، مالم تكن تظهر للحارث، فلقي زوجها الحارث، فأخبره، بمنزلته منها.

فقال له الحارث: عش رجبا تر عجبا، كأنه قال؛ عش رجبا بعد رجب.[1]

***

أيضا هذا المعني له علاقة بالمثل المشهور: العجب كل العجب بين جمادي ورجب.[2]

هذا المثل قاله عاصم بن المقشعر الضبي، وكان أخوه أبيدة علق امرأة الخنيفس الشيباني، وكان أغير أهل زمانه، وأشجعهم، وكان أبيدة عزيزا منيعا.

فبلغ الخنيفس أن أبيدة قد مضي إلي أمرأته، فركب الخنيفس فرسه وأخذ رمحه، وانطلق يرصد أبيدة، فأقبل أبيدة راجعا إلي قومه، وهو يقول:[3]

ألا إن الخنيفس فاعلموه   كما سماه والده اللعين

---

(١) الفاخر ص٦٥

(٢) الفاخر ص ٢٥٤ - ٢٥٥

(٣) يهجو الجنيفس، بأن والده قد سماه اللعين، وهو أسود اللون محتقر ضئيل، لئيم الخليقة بخيل، فكيف يتوعدني وقد لهوت بجاريته، ويزعم أنه أنف لا يقبل الذل.

بهيم اللون محتقر ضئيـــل لئيمات خلائقــه ضنين

أيوعدني الخنيفس من بعيد ولما ينقطع منه الوتـين

لهوت بجارتيه وحـاد عني ويـزعم أنه أنف شفون

***

فسدد إليه الخنيفس رمحه فقتله وقال:

أيابن المقشـعر لقيت لـيثا له في جـوف أيكتـه عريـن

تقول صددت عنك خناوجبنا وإنـك مـاجـد بطـل مـتين

وإنـك قـد لهـوت بجـارتينا فهـاك أبيـد لا قـاك القرين

ستعـلم أينـا أحمـي ذمـارا إذا قصرت شمالك واليمين

لهوت بـها فـقد بـدلت قـبرا ونائحـة عـليك لها رنين[1]

***

فلما بلغ نعيـه أخاه عاصمـا، لبس أطمـارا له، وركب فرسـه، وتقلد سيفه، وذلك في آخر يوم من جمادي الآخرة، وبادر قتله قبل دخول رجب، لأنهم كانوا لا يقتلون في رجب أحدا.

---

(١) يصف نفسه بالليث له عرين في أيكته، ويعيب عليه أنه قال: إنه صد عنه جبنا وخنا، وأنه ماجد بطل، وإنك لهوت بجارتينا، فقد لقيت القرين، وستعرف من منا أحمي ذمارا، وأنك إن لهوت بجارتي فقد بدلت قبرا ونائحة.

فانطلق حتي وقف بفناء خباء الخنيفس، فنادي عاصم: أغث المرهق، وطالما أغثت.

فقال الخنيفس: ما ذاك؟

قال عاصم: رجل من بني ضبة غضب أخي امرأته، وشد عليه فقتله، وقد عجزت عنه.

فأخذ الخنيفس رمحه، وخرج معه، حتي انطلقا إلي موضع بعد فيه عن قومه.

فلما علم عاصم أنه قد بعد، دنا منه، حتي قاربه، ثم قنعه بالسيف، فأطار رأسه، وقال: العجب كل العجب بين جمادي ورجب.[1]

***

- ضجر اللسان: عيه، قال صلي الله عليه وسلم: وهل يكب الناس في النار علي وجوههم إلا حصائد ألسنتهم؟

وقال الشاعر:

يموت الفتي من عثرة بلسانه وليس يموت المرء من عثرة الرجل[2]

أي إن اللسان إذا عثر قد يسبب موت الفتي، أما إذا عثرت الرجل فإن تلك العثرة قد تكون أسهل من عثرة اللسان.

---

(١) الفاخر ص٢٥٤ - ٢٥٥

(٢) شرح مقامات بديع الزمان ص ٣٨٠

وقال امرؤ القيس:

وذلك من نبأ جاءني   وخبرته عن بني الأسود
ولو عن نثا غيره جادني   وجرح اللسان لجرح اليد[1]

أي جرح اللسان كجرح السيف.

***

وقال آخر:

جراحات السيوف لها التئام   ولا يلتام ما جرح اللسان

أي جراحات السيوف، أو السنان تلتئم، لكن جرح اللسان لا يلتئم، لأن جرح اللسان يعلق، وجراحات السيف تزول.

***

وقال بعض الحكماء: جرح اليد يجبر،وجرح اللسان لايبقي ولا يذر[2].

***

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: إن البلاء موكل بالمنطق.

وقال أكثم بن صيفي في وصية لبنيه: مقتل الرجل بين فكيه.[4]

---

(١) ديوان امرئ القيس ص ١٨٥، النثا: يكون في الخير والشر، يقول: الإنسان يبلغ بلسانه وقوله من هجاء وذم ما يبلغ السيف إذا ضرب به، من شدة ذلك على المقول فيه.
(٢) ثمار القلوب ص ٣٣٣ - ٣٣٤
(٣) الفاخر ص ٢٣٥ - ٢٦٣

وقيل: المرء بأصغريه: قلبه ولسانه.

***

- وشفاعة العريان، لها قصة، حدثت مع الفرزدق، وذلك أن النوار بنت أعين بن ضبيعة المجاشعي خطبها رجل من قريش، بعد مقتل أبيها، فبعثت إلي الفرزق، تقول: أنت ابن عمي، وأولي الناس بي، تريد أن يقبل خطبتها، ويتولي عقد زواجها.

فقال: إن بالشام من هو أقرب إليك مني، ولا آمن آن يقدم منهم قادم، فينكر ذلك، فإن كان ما تقولينه حقا، فأشهدي علي نفسك، أنك جعلت أمرك إلي.

ففعلت فخرج الفرزدق بالشهود من عندها، إلي مجمع كبار قومها، فقال: إن نوار بنت أعين قد جعلت أمرها إلي، وإني أشهدكم أني قد تزوجتها، علي مهر مائة ناقة.

فكرهته، وأبت أن تمضي معه، وشخصت إلي ابن الزبير.

***

فأتي الفرزدق حمزة بن عبد الله بن الزبير، يستشفع به علي أبيه، وقال:

أمسيت قد نزلت بحمزة حاجتي ... إن المفوه باسمه الموثوق
بأبي عمارة خير من وطئ الحصي ... ذخرت له في الصالحين عروق

بين الحواري الأغر وهاشم ثم الخليفة بعد والصديق

***

وأتت النوار خولة ابنة منظور بن زبان بن سيار الفزاري أم حمزة، وزوج عبد الله بن الزبير.

فكلم حمزة أباه في الفرزدق، وكلمته زوجه في النوار، فقضي ابن الزبير للنوار، ولم يجز للفرزق تزويجه.

***

فقال الفرزدق في ذلك:

أما بنوه فلم تنجع شفاعتهم وشفعت بنت منظور بن زبانا

ليس الشفيع الذي يأتيك مؤتزرا مثل الشفيع الذي يأتيك عريانا

فضربه مثلا في أن شفاعة النساء أنفذ من شفاعة الرجال.(١)

***

ويروي أن حمزة كلف أمه أن تعطف النوار علي الفرزدق، ففعلت، ثم شفعت عند زوجها، فنجحت شفاعتها، فأمر عبد الله بن الزبيرالفرزدق أن يأخذ النوار إلي البصرة، فيصححا أمرهما، عند عامله علي البصرة.(٢)

---

(١) الفاخر ص ٣١٠ - ٣١١
(٢) شرح مقامات بديع الزمان ص ٣٨١ - ٣٨٢

***

قوس قزح: ذو الألوان الذي يظهر في السحاب غب المطر، وفيه يقول سيف الدولة الحمداني:

وساق صبيح للصبوح دعوته   فقام وفي أجفانه سنة الغمض

يطوف بكاسات العقار كأنجم   فمن بين منقض علينا ومنفض

وقد نشرت أيدي الجنوب مطارفا   علي الجودكنا والحواشي علي الأرض

يطرزها فوق السحاب بأصفر   علي أحمر في أخضر تحت مبيض

كأذيال خود أقبلت في غلائل   مصبغة والبعض أقصر من بعض[1]

وصف جميل، وتصوير رائع لقوس قزح.

***

وقال العلوي الحمامي:

فشبهت سرعة أيامهم   بسرعة قوس يسمي قزح

تلون معترضا في السماء   فما ثم ذلك حتي نزح

***

وتسمي قوس الله، وقوس السماء، وقوس السحاب، وقوس الغمام.

---

(١) ثمار القلوب ص ٢٤- ٢٥، شرح مقامات بديع الزمان ص ٣٨٣ - ٣٨٤

قال الوأواء الدمشقي:

أحسن بيوم تري قوس السماء به   والشمس مسفرة والبرق خلاس

كأنها قوس رام والبروق لها   رشق السماء وعين الشمس برجاس

ويروي: سقيا ليوم بدا قوس الغمام به.[1]

***

– وأقل من لاش: أقل منها في المعني، وربما يكون في اللفظ أيضا، لأنها يضرب بها المثل في قصر المدة، قال الشاعر:

يكون نزول القوم فيها كلا ولا

أي كحاصل صوت كلمة لا.

وقال ذو الرمة:

أصاب خصاصة فبدا كليلا   كلا وانفل سائره انفلالا

أي ضعيفا ككلمة: لا، السريعة في النطق.

وقال عمر بن أبي ربيعة:

فبت وليلي كلا أو بلي   لديها وبل ليلتي أقصر

أي ليله قصير كالتلفظ بكلمتي لا، بلي، وليلته أقصر من ذلك.

---

(١) ديوان الوأواء الدمشقي ص ١٣١

وقال الكميت:

كلا وكذا تغميضة ثم هجتم لدي حين أن كانوا إلي القوم أفقرا[1]

مثل كلمة لا، وذا.

***

أفضح من عبرة، قال العباس بن الأحنف:

لا جزي الله دمع عيني خيرا وجزي الله كل خير لساني

كنت مثل الكتاب أخفاه طي فاستدلوا عليه بالعنوان

فالعبرة فضحت ما في نفسه، أو في قلبه من اللوعة.

***

- كلمة ليت، قال مسلم بن الوليد:

قل لابن مي لا تكن جازعا لن يرجع البرذون بالليت[2]

أي لن يرجع البرزدون بالتمني، فالتمني لا يفيد شيئا.

وقال الأحوص:

بل ليت شعري وليت غير مدركة وكل مادونه ليت له أمد[3]

---

(1) شرح مقامات بديع الزمان ص ٨٠ - ٨١، ٣٨٧

(2) مختار الأغاني ٢٢/٨

(3) شعر الأحوص ص٩٤

أي ليت بمعني التمني غير مدركة، فالتمني لا يدرك.

وقال البحتري:

ليت تلهفت عليه وما يغني علي اليوم من ليت[1]

أي لا يغني التمني شيئا.

وقال أيضا:

ذهب الكرام بأسرهم وبقي لنا ليت ولو[2]

أي لم يبق لنا إلا التمني.

وقال الخليل بن أحمد:

هذا لعمري كفاف فلا يغرك ليت[3]

أي لا تغترر بالتمني.

وقال أبو زيد:

ليت شعري وأين مني ليت إن ليتا وإن لوا عناء[4]

أي إن التمني عناء، وعذاب، وألم، لا يفيد شيئا.

وقال الراجز:

---

(١) ديوان البحتري ٣٩٢/١

(٢) ديوان البحتري٣/٢٤٤٧

(٣) روضة العقلاءص١٥٣

(٤) لسان العرب٢٠/٣٦٠

وليلة ذات مدي سريت ولم يلتني عن ندا هاليت[1]

أي لم يلتني عن خيرها التمني.

***

وقال آخر في لو:

وقدما أهلكت لو كثيرا وقبل اليوم عالجها قدار

أي لو مهلكة ضارة تهلك من يتمني بها.

وقال آخر:

علقت لوا تكرره إن لوا ذاك أعيانا[2]

أي إن لوا أي التمني بلو أعيانا، وأعجزنا، فلا يفيد شيئا، ولا يحقق رجاء.

وصدق رسول الله صلي الله عليه وسلم: فإن لو تفتح عمل الشيطان.

***

الخمس: من صفات الإبل وهو أن تمنع الورود ثلاثة أيام، ثم ترد في الرابع لتشرب في الخامس، ويكون لغير الإبل أيضا.

قال أبو العلاء المعري:

---

(١) لسان العرب٢/٢٩٣

(٢) لسان العرب٢٠/٣٥٨

وجدنا أذي الدنيا لذيذا كأنما جني النحل أصناف الشقاء الذي نجني

فما رغبت في الموت كدر مسيرها إلي الورد خمس ثم يشربن من أجن

يصادفن صقرا كل يوم وليلة ويلقين شرا من مخالبه الحجن

ولا قلقات الليل باتت كأنها من الأين والإدلاج بعض القنا اللدن

ضربن مليعا بالسنابك أربعا إلي الماء لا يقدرن منه علي معن[1]

أي وجدنا أذي الدنيا لذيذا، ونحن لا نجد فيها إلا الشقاء، وكأنه جني النحل، أو العسل، وحب الحياة يسيطر علي البشر، والحيوان، والطير.

فما رغبت في الموت القطا التي تسير إلي ورود الماء خمس ليال، ثم يشربن من الماء الآجن، ويعانين الشقاء، فيصادفن صقرا كل يوم وليلة، ويلقين من مخالبه المعوجة شرا.

كذلك حمر الوحش باتت ليلا، وكأنها من الأعياء، وسير الليل كله

---

(١) شروح سقط الزند٢/٩١٩ - ٩٢١

جني النحل: العسل، حب الحياة يسيطر علي البشر، والحيوانات، والطيور، الكدر من القطا: الغبر الألوان، الرقش البطون والظهور، الصفر الحلوق، خمس: خمس ليال، أي ورود الماء في كل خمسة أيام، أجن: ماء متغير، أي آجن، أو ذو أجن، الورد: بكسر الواو، النصيب من الماء، الحجن: جمع حجناء، وهي المعوجة المعطوفة، قلقات الليل: حمر الوحش لقلقها في السير إلي الماء، وإنما تسير إليه ليلا، لأنها تخاف الصائد نهارا، الأين: الإعياء، الإدلاج: سير الليل كله، القنا: الرماح، اللدن: بضم اللام: جمع اللدن، بالفتح، وهو اللين من كل شئ، المليع: الأرض الخالية من الماء، أو الواسعة، أو التي لا نبات فيها، أو البعيدة المستوية، السنابك: جمع سنبك، وهو طرف الحافر، أربعا: أربع ليال، المعن: الشئ القليل، أو يطلق علي القليل، والكثير، والماء الظاهر، وكل ما انتفعت به، أو اليسير، أو الهين.

بعض الرماح اللينة، فقد سرن في أرض خالية واسعة أربع ليال إلي الماء، لا يقدرن من الماء علي اليسير، ومع ذلك لا ترغب في الموت، وذلك حب الحياة.

***

- إنما المرء بالجار، من وصايا علي بن أبي طالب رضي الله عنه: سل عن الرفيق قبل الطريق، والجار قبل الدار.

قال أحد الشعراء:

يلومونني أن بعت بالرخص منزلي ولم يعلموا جارا هناك ينغص

فقلت لهم كفوا الملام فإنما بجيرانها تغلو الديار وترخص[1]

تغلو قيمة الديار، وترخص بالجار، فقد يكون الجار منغصا فيضطر صاحب الدار، كرها في الجار، إلي بيعها بالرخص، كما قال الشاعر.

***

وقال الرسول صلي الله عليه وسلم: مازال جبريل يوصيني بالجار حتي ظننت أنه سيورثه.

وقال صلي الله عليه وسلم: يا أبا ذر، إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها، وتعاهد جيرانك.

---

(١) شرح مقامات بديع الزمان ص ١٢٦

وقال صلي الله عليه وسلم: والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن.

قيل: من يارسول الله؟

قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه.

وقال صلي الله عليه وسلم: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلي جاره.

وقال صلي الله عليه وسلم: وخير الجيران عند الله تعالي خيرهم لجاره.[1]

***

لازمني ملازمة الغريم، والكلب لأصحاب الرقيم.

يضرب مثلا لمن يلازم، ولا يفارق، والغريم رب الدين، وملازمته لمدينه يضرب بها المثل.

كتب أبو دلامة يشكو غريما له، قد لازمه.

وأما بعد ذاك فلي غريم   من الأعراب قبح من غريم

غريم لازم لفناء داري   لزوم الكلب أصحاب الرقيم

له مائة علي ونصف هذا   ونصف النصف في صك قديم

---

(١) رياض الصالحين ص١٢٨، ١٢٩

دراهم ما انتفعت بها ولكن   وصلت بها شيوخ بني تميم

يهجو هذا الغريم بمثل هذا الشعر السهل، فهو يلازم داره ملازمة الكلب لأصحاب الرقيم.

***

وقد ضربه دعبل مثلا في هجاء المعتصم لما كان ثامن بني العباس من الخلفاء، فجعله ثامن أهل الكهف، أي كلبهم، كما ذكر القرآن الكريم:

ملوك بني العباس في الكتب سبعة   ولم تأتنا عن ثامن لهم كتب

كذلك أهل الكهف في الكهف سبعة   كرام إذا عدوا وثامنهم كلب[1]

أي المعتصم كان ثامن خلفاء بني العباس، كثامن أهل الكهف يقصد أنه كلب، وهو هجاء مر، وفيه تطاول شديد على خليفة من خلفاء بني العباس.

***

أبو مرة كنية إبليس، وإنما يكنى بهذه الكنية، لأن الشيخ النجدي الذي ظهر إبليس في صورته فأشار على قريش بأن يكونوا سيفا واحدا على النبي صلى الله عليه وسلم كان يكنى أبا مرة، أنشد الخوارزمي لنفسه من أبيات:

---

(١) ثمار القلوب في المضاف والمنسوبص٣٩٢ . ٣٩٣، ديوان دعبل ص٣١٤

ويا من صبر يوم عنـــ ـــه في حكم الهوي كفره

ويا من طرفه جيش كـثـيـف لأبي مـــره

أي لا يطاق فراقه، فصبر يوم عنه كفر به في حكم الهوي، وطرفه جيش كثير من جيوش إبليس، أبي مرة.

***

ولابن الحجاج:

فما تلاقينا سوي مره حتي أتي الشيخ أبو مره

أي لم يلتقيا إلا باجتماعهم مع إبليس، أي جعل اجتماعهم خطأ.

***

وللصاحب من رسالة مداعبة: وأرجو أن يساعدنا الشيخ أبو مرة، كما ساعد مرة، فنصلي للقبلة التي صلي عليها، ونخطب علي الدرجة التي خطب عليها.[1]

أي إبليس

***

- فقر الأنبياء يضرب بها المثل.

---

(١) ثمار القلوب ص٢٤٥ - ٢٤٦

قال البحتري:

فقر كفقر الأنبياء وغربة　　وصبابة ليس البلاء بواحد

أي فقر كفقر الأنبياء المشهورين بالفقر.

ولذلك يقال فقر الأنبياء لأن فقراءهم أكثر من أغنيائهم والفقر شعار الصالحين.[1]

***

إن مع اليوم غدا، أي إنه قريب منه، ينحو نحوه، كقولهم: كل آت قريب.

ومثله قول طرفة:

أري الموت أعداد النفوس ولا أري　　بعيدا غدا ماأقرب اليوم من غد[2]

أي إن غدا قريب من اليوم، فهو لا يري أن غدا بعيد، إذ هو قريب.

ويقال إن أول من قال هذا القول: وإن مع اليوم غدا، أكتم بن صيفي، وكذلك قال وكل ما هو آت قريب.[3]

***

---

(١) ثمار القلوب ص٦٢

(٢) شرح مقامات بديع الزمان ص٢٦٣

(٣) المفضل ص٢٦٥

- السعادة تنبط الماء من الحجارة.

قال الأبرش:

لو كان في صخرة في البحر راسية صماء ململمة ملس حواليها

رزق لعبد براه الله لانفلقت حتى تؤدي إليه كل ما فيها

فالرزق يخرج من الحجارة، التي هي المثل في الصلادة، والصلابة، والشدة، وكذلك السعادة قد تهيىء لصاحبها إنباط الماء من غير موضع الماء، وهو الحجارة.

ولعل هذا المعنى مقتبس من القرآن الكريم.

***

- الصامت: المال من الذهب، والفضة، ونحوهما من المعادن، والجواهر، في مقابلة الناطق، وهي الأموال من الحيوان، كالإبل، والبقر، والغنم، ونحوها.

قال الشاعر:

فما المال يخلدني صامتا هبلت ولا ناطقا ذا كبد

ذريني أروي به هامتي حياتي وقدك من اللوم قد[1]

---

(١) الفاخر ص ٤٠

فذكر المال الصامت، والمال الناطق، وأوضحه بقوله: ذا كبد، فدل على أنه المال من الحيوان، كالإبل، والبقر، والغنم، ونحوها.

ثم يطلب منها أن تتركه يروي هامة حياته، وأن تقلل من لومها إياه.

***

المجد الصاعد، أي الحظ الوفور.

قال أبو تمام:

أبقيت جدبني الإسلام في صعد   والمشركين ودار الشرك في صبب[1]

أي في حظ موفور، يقصد بني الإسلام، أما المشركون في سفل، وتدن، يقصد الحظ المقهور.

***

قال النابغة:

وشيمة لاوان ولا واهن القوي   وجد إذا خاب المفيدون صاعد[2]

أي وحظ موفور، لا يخيب مهما خاب غيره، والمفيد: المستفيد، والمعطي، ضدان.

---

(١) بني الإسلام: أي المسلمون، الجد: الحظ، واليخت، والنصيب، صعد: المكان الذي يصعد فيه، الصيب: المكان الذي ينصب فيه، المشركون ودار الشرك: يقصد الروم.

(٢) ديوان النابغة الذبياني ص١٣٨

الشيمة: الطبيعة، الواني: الضعيف، وكذلك الواهن، القوي: الحزم والجلد، وأصل القوي: طاقات الحبل، فضربها مثلا لقوة حزمه وجلده، الجد: البخت، أفاد: استفاد وطلب، وأفاد: إذا أعطي، الصاعد: النامي الزائد.

***

- أخذة خلس، أي اختلاس واستراق بمعني سريعة.

قال البحتري:

قد سقاني ولم يصرد أبو الغو ث علي العسكرين شربة خلس[1]

أي شربة سريعة، قصيرة، وكأنها خلسة، أو مختلسة، من منغصات الحياة، أو شقائها وكدرها.

***

- اشتريته بثمن بخس.

قال البحتري:

صنت نفسي عما يدنس نفسي وترفعت عن جدا كل جبس

وتما سكت حين زعزعني الدهـ ـز التماسا منه لتعسي ونكسي

بلغ من صبابة العين عندي طففتها الأيام تطفيف بخس[1]

---

(١) ديوان البحتري ٢/١١٥٨

لم يصرد: لم يقلل، أبو الغوث: يحيي بن البحتري، شربة خلس: أي مختلسة سريعة، والبيت في وصف إيوان كسري، العسكرين: المعركة المصورة علي جدران إيوان كسري بين الفرس والروم.

(٢) ديوان البحتري ٢/١١٥٢، ١١٥٣

الجبس: الجبان، واللئيم ، والفاسق، والثقيل الروح، النكس: انقلاب الرجل علي رأسه، أو سقوطه كلما نهض، البلغ: جمع بلغة، وهي ما تبلغ به في العيش، ولا يفضل منه شئ، والأبيات مطلع قصيدة البحتري في وصف إيوان كسري.

أي طففتها الأيام بالبخس، وليس بالزيادة، فهي بلغ يتبلغ بها، من عيشه القليل، الضئيل، ومع ذلك بخستها الأيام، ونقصتها، وكأن الأيام تحاربه، أو تقصده بمصائبها.

***

- فما أشبهك في الإخلاف إلا بشجر الخلاف.

يشبه ما يروق منظره، ولا يحصل ثمره بشجر الخلاف.

قال ابن الرومي:

فغدا كالخلاف يورق للعيـ ن ويأبي الإثمار كل الإباء

يصوره بشجر الخلاف، يورق للعين، ولا يثمر.

***

وقصد ابن لتلك هذا المعني فنقله للسرو، حيث يقول:

في شجرا لسرو منهم مثل له رواء وماله ثمر[(١)]

يجعل مثلهم شجر السرو، فهو جميل منظرا، بغير ثمر.

وشجر الخلاف: هو شجر الصفصاف أو نوع منه.

***

---

(١) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ص٥٩٢

الكتاب من عنوانه، دلالة العنوان علي الكتاب من قول العباس بن الأحنف:

لا جزي الله دمع عيني خيرا   وجزي الله كل خير لساني

كنت مثل الكتاب أخفاه طي   فاستدلوا عليه بالعنوان[1]

صور دمع عينه الذي بدر مثل عنوان الكتاب، فكما أن عنوان الكتاب يدل عليه، كذلك دمع عينيه دل علي ما في نفسه، أما لسانه فلم يظهر شيئا، فدمع عينه أظهر ما في قلبه من لوعة الحب.

***

الذريعة: الوسيلة، وأصل الذريعة: جمل يرسل مع الوحش، يرعي معها، حتي تأنس به، ولا تنفر منه، فإذا أراد مريد أن يصطاد الوحش، استتر بذلك الجمل، حتي إذا دنا من الوحش رمي، ثم جعل كل شئ يدني من الإنسان ذريعة.

قال الراعي:

وللمنية أسباب تقربها   كما تقرب للوحشية الذرع[2]

صور أسباب المنية، التي تدنيها بالذرع لصيد الوحوش، فكما أن الأسباب تقرب المنية، فالذرع وسيلة لتقريب صيد الوحوش.

---

(١) شرح مقامات بديع الزمان ص٣٠٢

(٢) الفاخر ص ٢٠١

***

يرقأ: يسكن، ويرفع.

قال الأصمعي: أصل ذلك في الدم، إذا أخذ أهل المقتول الدية، رقأ الدم.

قال مسلم الوالبي يصف إبلا:

من اللاتي يزدن العيش طيبا وترفع في معاقلها الدماء[1]

أي ترقأ الدماء ولا تراق.

***

- حلب الدهر أشطره، مثل.

قال الأصمعي: أتت عليه كل حال من شدة ورخاء، كأنه استخرج درة الدهر في كل حالاته.

وأنشد للقيط بن يعمر الإيادي:

ما انفك يحلب در الدهر أشطره يكون متبعا طورا ومتبعا[2]

والأشطر جمع شطر، ويقال لأخلاف الناقة أشطر، وكل خلفين منها شطر أيضا، ومن حلب القادمين منها فقد حلب شطرها، ومن حلب جميعها فقد حلب الأشطر كلها.

---

(١) الفاخر ص ٣٩ - ٤٠
(٢) الفاخر ص ١٣٠

***

يقال: غنك خير من سمين غيرك.

وذلك أن معن بن عطية المذحجي، أغاث رجلا من حي من العرب كانوا أعداء قبيلته، ثم هزموا قومه، وأسروه، وأخاه روقا، فإذا بمن أغاثه وهو أخو رئيس القوم.

فقال معن:

يـاخيــر جـار بيــد   أوليتـها أنجـي منجيـكا

هل من جزاء عندك الـ   يــوم لمـن رد عواديكـا

من بعد مانالتك بالـ   كلم لدي الحرب غواشيكا

***

فعرفه، وسأل أخاه أن يخلي سبيله، ويختار أسيرا آخر، فاختار أخاه، وترك سيد مذحج في الأسري، فلما سئل وحدث قومه أنبوه أنه لم ينقذ رئيسهم، وأنقذ أخاه الفسل، فقال: غنك خير من سمين غيرك.(١)

وأصل الغث المهزول ضد السمين.

***

(١) الفاخر ص ٢٠٦

- عبقري: بلغ الغاية في الجودة، نسبة إلي عبقر، وهو كما يزعم العرب-واد تسكنه الجن، وينسبون إليه كل ما فاق أمثاله، وقالوا عنهم: جنة عبقر.

قال لبيد:

ومن فاد من إخوانهم وبينهم   كهولا وشبانا كجنة عبقر[1]

يصورهم بجنة عبقر، أي جن وادي عبقر.

وقال لبيد أيضا:

غلب تشذر بالذحول كأنها   جن البدي رواسيا أقدامها

يصورهم بجن البدي، وهو مكان.

وقال حاتم الطائي:

عليهن فتيان كجنة عبقر   يهزون بالأيدي الوشيج المقوما[2]

صور الفتيان بجنة عبقر.

***

وقال التابغة الذبياني:

---

(١) ثمار القلوب ص ٢٣٤، ديوان لبيد ص٥٤، فاد: مات.

(٢) ثمار القلوب ص ٢٣٤، ديوان لبيد ص ٣١٧، غلب: غلاظ الأغناق، تشذر: تهدد، الذخول: الأحقاد، البدي: موضع.

وبنوقعين لا محالة أنهم آتوك غير مقلمي الأظفار

سهكين من صدأ الحديد كأنهم تحت السنور جنة العبقار[1]

صورهم بجنة العبقار، أوجنة البقار.

***

وقال زهير بن أبي سلمي:

بخيل عليها جنة عبقرية جديرون يوما أن ينالوا ويستعلوا

عليها أسود ضاريات لبوسهم سوابغ بيض لايخرقها النبل[2]

---

(١) ثمار القلوب ص ٢٣٤، ديوان النابغة الذبياني ص٥٦

آتوك غير مقلمي الأظفار: أي أتوك متهيئين لمحاربتك، وسلاحهم كامل، ولا يأتونك مسالمين، بلا سلاح، وضرب الأظفار مثلا للسلاح، لأن أكثر السباع وجوارح الطير تصيد بمخالبها، وتمتنع بها، بنوقعين: حي من أسد.

- سهكين: أي عليهم سهكة الحديد، وهي الرائحة المتغيرة، والسنور: ما كان من حلق، وقيل: السلاح التام، والبقار: اسم رمل كثير الجن، وهو من أدني بلاد طئ إلي بني فزارة، وإذا أرادت العرب المبالغة في وصف الرجل نسبوه إلي الجن، ويروي: جنة العبقار، وجنة البقار، والسوابغ: السلاح.

(٢) شرح ديوان بن أبي سلمي ص١٠٣

يريد أن هؤلاء القوم الذين ذكرهم يسرعون إلي نصرة المظلوم بخيل عليها فرسان مثل الجن، في إقدامهم، وجرأتهم، ونفوذهم فيما حاولوه، جنة: جمع جن، عبقرية: من جن عبقر، وعبقر: أرض، أو قرية يسكنها الجن فيما يزعمون، وكان العرب إذا رأوا شيئا فائقا غريبا مما يصعب عمله، ويدق، أو شيئا عظيما في نفسه نسبوه إليها، فقالوا: عبقري، ثم اتسع فيه، حتي سمي به السيد الكبير، يقول: كأنهم في جنتهم جن عبقر، يستعلوا: يظفروا ويعلوا، جديرون: خليقون، أي إنهم في شبابهم، وفتوتهم، ونشاطهم.

- ضاريات: أي متعودات للحرب، يعني الفرسان، السوابغ: الدروع الواسعة، بيض: يريد أنها صقيلة لم تصدأ، اللبوس: ما يلبس، يقصد هنا الدروع، وقد ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم، لا يخرقها: لا ينفذها، أي لم تخالط جوفها ثم يخرج طرفها من الشق الآخر، وسائرها فيه، أي جواز الشئ، وخلوص منه.

أي فرسان كجنة عبقر، أو شباب وكهول، وفتوة ونشاط، كجنة عبقر في هذه الصفات.

***

قال الجاحظ: هو كما تقول العرب: أسد الشري، وذئاب الغضي، وبقر الجواء، ووحش وجرة، وظباء جاسم، فيفرقون بينها وبين ماليس كذلك، إما في الخبث والقوة، وإما في السمن والحسن.

فكذلك يفرقون أيضا بين مواضع الجن، فإذا نسبوا الشكل منها إلي موضع معروف، فقد خصوه من الخبث، والقوة، والعرامة بما ليس لجملتهم.

ولذلك قالوا لكل شئ فائق، أو شديد: عبقري[1]

***

وفي القرآن الكريم:

مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾[2]

وفي الحديث الشريف في صفة عمر رضوان الله عليه: فلم أر عبقريا يفري فرية.[3]

وقال أعرابي: ظلمني والله ظلما عبقريا.

(١) ثمار القلوب ص٢٣٤

(٢) الرحمن ٧٦

(٣) شرح ديوان زهير بن أبي سلمي، هامش صفحة ١٠٣

***

الحرز في اصطلاح المعوذين: ما يكتب، ويحمل، فيقي حامله من الخطر، أو يبلغه إلي وطر، أو يحفظ عليه صحة، أو يقيه من مرض، كل ذلك في مزاعمهم.

قال المتنخل:

ياليت شعري وهم المرء ينصبه والمرء ليس له في العيش تحريز[1]

أي ليس له ما يقيه، ويحميه في الحياة.

وقال:

فاذهب فأي فتي في الناس أحرزه من حتفه ظلم دعج ولا جبل[2]

أي الناس حماه، ووقاه من حتفه

وقال الهمذاني:

لا زلت ياكنف الأمير لنا من الأحداث حرزا

أي حماية، ووقاية، يمدح الأمير الذي يقصده، ويدعو له أن يظل علي الأيام، والأحداث حرزا، وحماية، وهو يدعو للأمير، وباطنه الدعاء لنفسه أيضا، أن يظل محميا بكنف الأمير، وحياطته، وحفظه علي الأيام.

---

(١) ديوان الهذليين ٢/٣٥

(٢) يتيمة الدهر ٤/٢٩٤

***

- السبال جمع سبلة، وهو ما على الشوارب من الشعر.

وقيل: هي الشعرات التي تحت اللحي من الأسفل، والسبلة عند العرب مقدم اللحية، وما أسبل منها على الصدر.

قال أبو نواس:

وأشمط رب حانوت تراه لنفخ الزق مسود السبال[1]

أي مسود الشعر في مقدم اللحية.

وقال ابن قيس الرقيات:

فظلال السيوف شيبن رأسي واعتناقي في القوم صهب السبال[2]

***

والشقاق: جمع شقشقة، وأصلها النفاخة التي يخرجها فحل الإبل من حلقه، عند هياجه، ورغائه، يرجع فيها هديره، ويردده.

ثم قيل للسان الذرب: شقشقة.

قال الأخطل:

إذا هدرت شقاشقه ونشبت له الأظفار ترك له الهدار

***

(١) ديوان أبي نواس ص٦٢
(٢) لسان العرب ٢/ ٢٠



الفصل الثالث

ملامح فنية في لغة العرب

حازاه: جاء إلي جنبه، مصدرها محازاة.

وهي فاعل مفاعلة، وتكون بين اثنين.

قال بشامة بن الغدير يصف ناقته بالسرعة، والنشاط:

فمرت علي كشب غدوة وحازت بجنب أريك أصيلا[1]

أي جاءت إلي جنبه، يصف الناقة بالسرعة، أي مرت علي جبل كشب، بضم الكاف، والشين، أو بفتح الكاف، وكسر الشين، غدوة، أول النهار، وجاءت إلي جنب جبل أريك في وقت الأصيل، وبينهما مسيرة أيام، لكن هذه الناقة سارت هذه المسيرة أو قطعت هذه المرحلة في الوقت بين الغدو والأصيل.

***

الصك: الضرب، وهو مصدر صك يصك، بفتح الصاد في الماضي، وضمها في المضارع، وفتحها في المصدر، مع التشديد.

قال متمم بن نويرة يصف ناقته بالصلابة، والقوة، والشدة.

---

(١) المفضليات ص٥٧

كشب- بضمتين- أو بفتح الكاف وكسر الشين، وأريك: جبلان بالبادية، بينهما نأي من الأرض، يصف سرعة الناقة وأنها سارت في يوم ما يسار في أيام، الغدوة: بضم الغين، وسكون الدال، وفتح الواو، الوقت أول النهار، والأصيل: الوقت قبل الغروب، أو عند الزوال، والضمير للناقة في مرت، وحازت.

فتصك صكا بالسنابك نحره   ويجندل صم ولا تتورع[1]

أي تضرب ضربا شديدا بسنابكها، وحوافرها التي تشبه الجندل الصلب، ولا تكف عن هذا العمل لقوتها، وشدتها.

***

وقال المسيب بن علس يصف ناقة:

صكاء ذعلبة إذا استدبرتها   حرج إذا استقبلتها هلواع[2]

أي تتقارب ركبتاها، فيضرب بعضها بعضا، فهي ناقة تشبه النعامة في تقارب الخطو، والسرعة، وذلك عندما تراها وأنت خلفها، لكنها حرج جسيمة ضخمة هيكل، طويلة، سريعة، نشيطة، خفيفة، إذا رأيتها من الأمام.

***

وقال زهير يصف صقرا أمسك بقطاة:

---

(١) المفضليات ص٥١

الصك: الضرب، السنبك: مقدم الحافر جمعه سنابك، الجندل: الحجارة الواحدة جندلة، شبه حوافرها بالجندل في الصلابة، الصم: الصلاب الواحدة صماء، لا تتورع: لا تكف، وقد وحد الجندل، وجمع الصم، ولأن المراد جنادل، وعطف: ولا تتورع، علي قوله: فتصك.

(٢) المفضليات ص٦١

صكاء، صفة للنعامة، لتقارب ركبيتها يصك بعضها بعضا فشبه بها ناقته، ذعلبة: سريعة، حرج: جسيمة طويلة علي وجه الأرض، هلواع: مستخفة كأنها تفزع من النشاط، والهلع: الخفة، صكاء: أنث لأنها صفة النعامة، ذعلبة: بكسر الذال، واللام، وسكون العين، وفتح الباء، أي هي صكاء، وهي حرج.

حتي إذا قبضت أولي أظافره   منـها وأوشـك بمالـم تخشه يقـع

حث عليها بصك ليس مؤتليا   بل هو لأمثالها من مثله يدع[1]

أي بضرب ليس متواليا ، متصلا ، دائما ، لأنه يدخر جهده ، ليصيد غير هذه القطاة ، وذلك لأنه يقبض عليها ، ولن تفلت من يديه.

***

- وقال زهير أيضا يصف ظليما :

أصك مصلم الأذنين أجني   له بالسي تنوم وآء.[2]

أي ضرب العرقوبين أحدهما بالآخر ، فهو أصك ، أي فيه هذه الصفة ، وهو مقطوع الأذنين ، وله جني عظيم في هذا المكان من التنوم ، والآء.

---

(١) شرح ديوان زهير ص٢٤٤-٢٤٥

أظافره: للصقر ، منها : من القطاة ، أو شك به : أخلق به ، وأحربه ، وأحج به ، بما لم تخشه القطاة ، حث عليها يضرب بجناحيه ، وهو الصك ، ليس مؤتليا : لا يألو يصك ، يضرب بجناحيه ، لأمثالها : لأمثال القطاة ، أي ليصيد غيرها ، فهو يبقي من جهده ، يريد أنه يدخر بعض جهده لمطاردة أمثال هذه القطاة.

(٢) شرح ديوان زهير ص٦٤

الصك : اصطكاك العرقوبين ، وإنما يكون ذلك إذا مشي ، فأما إذا عدا فلا ، مصلم الأذنين : مقطوعهما ، أولا أذنين له ، وكل ماله أذن فهو يلد من الحيوان ، وما ليس له أذن فهو يبيض ، أجني : أي أدرك أن يجني ، يريد أنها في خصب ، التنوم : واحدها تنومة ، وهي شجيرة غبراء تنبت حبا دسما يأكلها النعام والظباء ولها حب إذا تفتحت أكمامه اسود ، وله عرق ، وأكثر منا بتها شطآن الأدوية ، السي : أرض ، آء : الواحدة آءة ، وهي ثمر السرح ، والسرحة : دوجة محلال واسعة يحل تحتها الناس في الصيف ، ويبتنون تحتها البيوت ، وظلها صالح ، أو شجر كبار عظام طوال لا ترعي ، وإنما يستظل فيه ، وينبت بنجد في السهل ، والغلظ ، ولا ينبت في رمل ، ولا جبل ، له ثمر أصفر ، يشبه الزيتون.

***

وقال زهير أيضا يصف ناقته:

وقد أراني أمام الحي تحملني   جرداء لا فحج فيها ولا صكك[1]

أي لا يضرب العرقوبان أحدهما الآخر، في هذه الناقة الجرداء، القوية، التي بها من الصفات ما يجعلها سريعة قوية جسورة علي الجري.

***

وقال امرؤ القيس يصف أسدا:

مضامض ماض مصك مطحر[2]

أي يرمي نفسه علي كل شئ، فيضربه، أو يصطدم به، وهو فاتح فمه

---

(١) شرح ديوان زهير ص١٦٩

الفحج: تباعد ما بين الفخدين، وتداني صدور القدمين، وإقبال إحدي رجليه علي الأخري، الصكك: اصطكاك العرقوبين في الدواب وفي الناس في الركبتين، جرداء: قصيرة الشعر، والفحج والصك، بالفتح فيهما.

(٢) ديوان امرؤ القيس ص٣١٧

المضامض: الفاتح فمه، المصك: الذي يرمي نفسه علي كل شئ، المطحر: من الطحر، وهو الدفع، ويلاحظ أن امرأ القيس قد أتي بصفات للأسد كلها مبدوءة بالميم، مصامض: بضم الميم، مصك: بكسر الميم، ماض: بفتح الميم، مطحر: بضم الميم، ويلاحظ أن الصفة الأولي للفم وهي تدل علي عنف الافتراس، والثانية لسرعة الافتراس، فهو ماض في عنقه، وهجومه، وشراسته، والثالثة لقوة الاندفاع، وسرعته، وقذفه بنفسه لا يبالي بالخطر، لشدته، وقوته، وعنفه، والرابعة لقوة دفعه الخصم، أو الفريسة، وقوة هجومه عليها، واندفاعه نحوها، مما يبين عنف الأسد، وشراسته، وقوته.

يتأهب للافتراس، سريع الوثب علي الخصم، يصك كل ما أمامه، فيلقي بنفسه عليه، ويدفع ما أمامه، وذلك لقوته، وعنفه.

***

الشبح: الخيال، جمعها أشباح، والشبح: بفتح الشين المشددة، وفتح الباء.

قال امرؤ القيس يصف موضع ماء بالركود:

وآجن ماؤه ريش الحمام به ‌‌‌‌ كأن أشباح حولياته العطب[١]

أي الخيالات، يصف الماء بأنه آجن راكد ماؤه، غير جار، وقد خيم عليه، أو سبح فوقه ريش الحمام، ثم يصف أشباح الطير الذي سقط فيه، ومضي عليه الحول، كأنها القطن، أو أراد خيالات الطيور التي مضي عليهاسنة كأنهاقطن، فليس فيهامعالم للجسد، أوللجسم الذي كان أولا.

***

---

(١) ديوان امرئ القيس ص٣٠٢

الآجن: الماء المتغير الكدر، الأشباح: الخيالات، حولياته: الطير التي قد أتي عليها الحول، العطب: القطن، يصف الماء بأنه آجن، وقد سقط فيه ريش الحمام، كما أن أشباح الطيور التي قد مضي عليها الحول صارت كأنها القطن، وذلك دليل علي أن هذا الماء راكد، لا يتجدد، ولا يجري، فهو غير صالح، وفعل آجن، أجن، أي تغير الماء، وركد حتي صار كدرا، وآجن ماؤه، أي ماؤه آجن، أو هو آجن، ماؤه ريش الحمام به كأن أشباح حولياته العطب، حوليات: أصلها حولي نسبة إلي الحول، ثم أنث قوله حولي، فصارت: حولية، ثم جمع حولية، علي حوليات، وأضافها الي ضمير الماء، والعطب: وصف عام للمفرد والجمع.

أما السلام فقد ورد كثيرا في الشعر.

قال الشاعر:

وإن جئت الأمير فقل سلام   عـليك ورحمـة اللـه الرحيـم

وأما بعد ذاك فـلي غـريم   من الأعراب قبح من غريم[1]

أي سلام عليك ورحمة الله، أما بعد، فإن حكايتي أن لي غريما من الأعراب، ويصفه، أو يدعو عليه: قبح هذا الغريم غريما.

***

- وقال عبد الله بن كثير السهمي في علي، والحسن، والحسين، رضي الله عنهم:

طبت بيتا وطاب أهلك أهلا   أهل بيت النبي والإسلام

رحمة الله والسلام عليهم   كلما قام قائم بسلام[2]

يدعو لهذا البيت الذي أنجب هؤلاء الأعلام في الإسلام، فيقول: طبت بيتا، ثم السلام عليهم ورحمة الله، أيضا: طاب أهلك، أهل بيت النبي، وأهل الإسلام.

***

(١) البيان والتبين ١٨٣/٣
(٢) المصدر السابق ٢٩٣/٣

وقال مزرد بن ضرار يرثي عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، وتروي أيضا للشماخ في رواية آخري:

عليك السلام من إمام وباركت يد الله في ذاك الأديم الممزق
قضيت أمورا ثم غادرت بعدها بوائق في أكمامها لم تفنق[1]

أي السلام عليك من إمام عظيم، وباركت يد الله القديرة هذا الذي تركته، من بوائق في أكمامها.

***

وأنشد ابن الأعرابي:

وقفنا فقلناها السلام عليكم فأنكرها ضيق المجم غيور[2]

أي وقفنا وقلنا ما يجب أن يقال، فقلناها، وهو السلام عليكم، وهي تحية عظيمة، وما أروعها من تحية السلام.

وقال نصيب:

عليك السلام لا مللت قريبة وما لك عندي إن نأيت قلاء[3]

أي السلام عليك، ويدعو لها: لا جعلك الله تعالي تملين مني، أو من غيري، أما إذا نأيت، فليس لك عندي قلاء، وإنما مودة ومحبة ومحافظة

---

(١) المصدر السابق ٣/٢٩٥-٢٩٦
(٢) لسان العرب ١٤/٣٧٣، ٢٠/٣٧١
(٣) المصدر السابق ٢٠/٦٠

علي العهد، والرحمة، فأنا لا أبغضك، وإنما تقرب المحبة والسلام بيننا.

***

مرحبا: قال الفراء: معناه رحب الله بك، ومعني رحب: وسع.

قال الأصمعي: أتيت رحبا: أي سعة، ومن ذلك الرحبة، سميت لسعتها، وهي تستعمل في اللغة قديما وحديثا، وكذا في الشعر.

وذكر ابن الكلبي وغيره: أن أول من قال مرحبا، وأهلا سيف بن ذي يزن الحميري، لعبد المطلب بن هاشم، لما وفد إليه مع قريش، ليهنئه برجوع الملك إليه.

وذلك أن عبد المطلب استأذنه في الكلام، فقال له سيف: إن كنت ممن يتكلم بين يدي الملوك فقد أذنا لك.

فقال عبد المطلب بعد أن دعا له، وقرظه، وهنأه: نحن أهل حرم الله، وسدنة بيته، أشخصنا إليك الذي أبهجنا لك، فنحن وفد التهنئة لا وفد المرزئة.

فقال سيف: وأيهم أنت؟

قال: أنا عبد المطلب.

فقال سيف: مرحبا وأهلا، وناقة ورحلا، ومناخا سهلا، وملكا ربحلا، يعطي عطاء جزلا.[1]

---

(١) الفاخر ص٤٠٣

***

وقال طفيل:

وبالسهب ميمون الخليقة قوله   لملتمس المعروف أهل ومرحب[١]

وأهل أي أهلك، على الدعاء له، أو أتيت أهلا كأهلك فاستأنس، يقول ذلك ميمون الخليقة، المبارك، وهي صفات للممدوح، يقول لملتمس معروفه، وطالبه، وراغبه، أهل ومرحب، فهو يرحب به، ويلقاه بما هو أهل له من البشر، والتحية، والاستقبال الحسن.

***

وقال عمرو بن الأهتم:

ومستنبح بعد الهدوء دعوته   وقد حان من نجم الشتاء خفوق

أضفت فلم أفحش عليه ولم أقل   لأحرمه إن المكان مضيق

فقلت له أهلا وسهلا ومرحبا   فهذا صبوح راهن وصديق[١]

أي أتيت رحبا، وأهلا كأهلك، وحللت سهلا، وهو ضال، فنبح في ليل

---

(١) المصدر السابق ص٣، الوحشيات ص١٢٦

ميمون: مبارك بصيغة اسم المفعول، ملتمس: بصيغة اسم الفاعل.

(٢) المفضليات ص١٢٦

المستنبح: الرجل يضل الطريق ليلا، فينبح، لتجيبه الكلاب، إن كانت قريبا منه، فإن أجابته تبع أصواتها، فأتي الحي فاستضافهم، النجم هنا: الثريا، وذلك أنها تخفق للغروب جوف الليل فى الشتاء، الصبوح: الشرب بالغداة، الراهن: الدائم الثابت.

الشتاء، واستقبله هذا الكريم بالصبوح.

***

وقال ضمرة النهشلي:

وطارق ليل كنت حم مبيته ... إذا قل في الحي الجميع الروافد

وقلت له أهلا وسهلا ومرحبا ... وأكرمته حتي غدا وهو حامد[1]

أي أتيت رحبا، وأهلا، وسهلا، يرحب به، ويكرمه، ليحمده عندما يغدو، لأنه طارق ليل قصد هذا الكريم، عندما قل الكرماء في الحي.

***

وقال عمر بن أبي ربيعة:

أشارت بطرف العين خيفة أهلها ... إشارة مذعور ولم تتكلم

فأيقنت أن الطرف قد قال مرحبا ... وأهلا وسهلا بالحبيب المتيم[2]

أي أتيت رحبا، أي إن الطرف قد قال بالإشارة، وليس باللسان فهذه

---

(٢) المفضليات ص ٣٢٦
حم مبيته: قصد مبيته، والحم القصد، الحي الجميع: الكثير، الروافد: جمع رافد، والرفد المعونة. وقد ذكر الشاعر طارق الليل الذي يبغي النجدة، والقري، والمبيت، وجعل نفسه مقصد هذا الطارق للمبيت، وجعل الكرماء في الحي، أهل الرفد، والعطاء، والكرم قليلين، ثم وصف ما صنعه مع هذا الطارق ليلا من البشر عند اللقاء والإكرام، حتي غدا الطارق ليلا، وهو حامد ما صنع معه هذا الكريم.

(٢) البيان والتبين ٩٣/١
مذعور: خائف مترقب، خيفة: أي خوف، الطرف: العين، المتيم: الذي تيمه الحب.

الإشارة لها من دلالات عند الشاعر الحبيب المتيم.

***

وقال بعض الأعراب:

وسار تعناه المبيت فلم يدع ... له حابس الظلماء والليل مذهبا

رفعت له بالكف نارا تشبها ... شآمية نكباء أو عارض صبا

فلما آتانا والسماء تبله ... نقول له أهلا وسهلا ومرحبا [1]

أي أتيت رحبا، تكلمة للكرم الذي ذكره الشاعر، فقد رفع ناره، تشبها الريح، وقت المطر.

وقال أبو الهندي:

تركت الخمور لأربابها ... وأقبلت أشرب ماء قراحا

وما كان تركي لها أنني ... يخاف نديمي علي افتضاحا

ولكن قولي له مرحبا ... وأهلا مع السهل وانعم صباحا[2]

أي أتيت رحبا، وأهلا، وسهلا، وطاب صباحك، يقول: تركت الخمور،

---

(1) البيان والتبين ٣/ ١٧١

شآمية نكباء: ريح تهب بين الصبا والشمال، والسماء هنا: المطر.

(2) الشعر والشعراء ٢/ ٦٨٢

أربابها: أصحابها، قراحا: باردا صافيا، النديم: المشارك في الشراب، انعم صباحا: تحية كانت تقال عند العرب، ومعناها: طاب صباحك.

وشربت الماء البارد، وليس ذلك خوف افتضاحي، لأنني لا أشرب الخمر، وإنما لأستطيع أن أرحب بضيوفي، وأهتم بهم، وألقاهم بالتحية، والبشر.

***

وقال أبو العجل:

عذلوني علي الحماقة جهلا   وهي من عقلهم ألذ وأحلي

لو لقوا ما لقيت من حرفة العقـ   ـل لساروا إلي الحماقة رسلا

أذعن الناس لي جميعا وقالو   يا أبا العجل مرحبين وسهلا[1]

مثني مرحبا، وقد عذلوه علي الحماقة لجهلهم، ولو لقوا ما لقي من مهنة العقل لساروا إلي الحماقة سعيا إليها، ولم يعيبوها في لجهلهم.

وقال الأعشي:

فقال له أهلا وسهلا ومرحبا   أري رحما قد وافقتها صلاتها[2]

أي أتيت رحبا، وأهلا، وسهلا، أي نزلت نزلا كريما، ولقيت أهلا مثل أهلك، وسهلا تنزل فيه، ورحبة تأوي إليها.

***

وقال الراجز:

---

(١) طبقات الشعراء ص٣٤١

(٢) ديوان الأعشي الكبير ص٣٦

فقلت اردفني فقال مرحبا[١]

أي أتيت رحبا، حين قلت له: اردفني، أي اجعلني معك على دابة، أو فرس، أو ركوبة واحدة.

وقال آخر:

فلولا اتقاء الله ما قلت مرحبا   لأول شيبات طلعن ولا سهلا[٢]

أي أتيت رحبا، يقول: إن الشيب قد لحق بي، ولولا تقوي الله تعالي ما قلت لأول شيبات لحقن بي: مرحبا وسهلا.

***

وقال كثير:

فإن تكن العتبي فأهلا ومرحبا   وحقت لها العتبي لدينا وقلت[٣]

أي إن تكن العتبي موجودة، أو قائمة، أو كائنة، فأهلا ومرحبا بها، وحقت لها العتبي لدينا، وصارت حقالها، ولا عيب في ذلك، ولا غرابة، فهذا أمر طبيعي لا يستغرب من محب لمحبوبته، وكثير من المحبين، ومن عشاق العرب المشهورين، وصاحبته عزة، حتي اشتهر بها، فقيل: كثير عزة.

---

(١) لسان العرب ١٥/٧٧

(٢) المصدر السابق ٢/١٢٠

(٣) الشعر والشعراء ١/٥١٥

العتبي: الرضا، أي الرجوع عن الإساءة إلي ما يرضي العاتب، حقت: بالبناء للمجهول.

قال امرؤ القيس:

حلو إذا ماجئت قال ألا　　في الرحب أنت ومنزل السهل[1]

أي السعة، يقول: هو حلو، حتي إذا ما جئت قال لك مرحبا: ألا في الرحب أنت ومنزل السهل، أي ألا تكون، أو توجد، في السعة، ومنزل السهل، حيث الكرم، وإكرام الرفادة، وإكرام الضيف، والعرب كانوا يفخرون بذلك، لأن هذا الفخر مما يلائم البيئة العربية التي يكثر فيها القحط، والجدب، وخاصة في فصل الشتاء، فالظروف تتهيأ أمام الكرماء، لبذل كرمهم، ولذلك رأينا هؤلاء الكرماء يوقدون النار في الأماكن العالية، لتجلب إليهم الضيفان، وطارقي الليل، والمستنبحين في ليال الشتاء الشديدة، فالظروف تتهيأ لهؤلاء المطحونين، ولأولئك الكرماء، وذلك لأن البيئة هي التي أتاحت لكل منهما ما يفيد به الآخر.

***

الحسب: الفعال.

قال زهير بن أبي سلمي:

وإما أن يقولوا قد أبينا　　وشرمواطن الحسب الإباء[2]

---

(١) ديوان امرئ القيس:

الرحب: السعة، والرحب، بضم الراء وفتحها.

(٢) شرح ديوان زهير ص٧٤

ـ أبينا: كان يطلب أن يخلوا الأساري الذين في أيديهم. فقال: للحسب مواطن. موطن عطيه. وموطن قتال. فشر مواطنه أن يأبوا أن يعطي شيئا. وقيل: أبينا أن نفي بالعهد. يقول: شر مواطن الذمة إذا أبي صاحبها أن يفي. الحسب: الفعال.

***

أي شر مواطن الفعال الإباء في الوفاء بالعهد، وهو شر مواطن الذمة.

***

أو الحسب: كثرة الشرف والمآثر.

قال زهير:

له في الذاهبين أروم صدق   وكان لكل ذي حسب أروم[1]

أي له في أصوله الماضين من آبائه وأجداده أصول صدق، بأقوالهم، وأعمالهم، ومآثرهم، وشرفهم، ولكل حسب أصول.

***

النادي: المجلس، وقد ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم.

قال بشر بن أبي حازم:

وما يندوهم النادي ولكن   بكل محلة منهم فئام[2]

---

(١) شرح ديوان زهير ص. ٢١

الحسب: كثرة الشرف والمآثر، أي هوذ وحسب، فله أصل كريم، ولكل ذي حسب أصل، في الذاهبين: في الموتي من آبائه وأجداده، الأروم: الأصل، واحدها أورمة، والأصل، والجنث، والقبص، والضئضئ والبؤبؤ واحد، وأورمة الشجرة: ماحول أصلها من التراب، والبيت للمدح، يمدح بالأصول العريقة في الشرف والمآثر، والمكرمات، وهذه الصفات هي صفات المدح عند الشعراء القدماء، من أمثال زهير بن أبي سلمي، ومن هم علي شاكلته، من الشعراء الذين عاشوا في العصر الجاهلي.

(٢) لسان العرب ١٨٩/٢

أي المجلس. أي وما يندوهم، ولا يجمعهم للندوة في النادي.

وقالت الخنساء:

حمال ألوية هباط أودية   شهاد أندية للجيش جرار[1]

أي مجالس، وذلك لمكانته، ومنزلته بين قومه وعشيرته، تصفه بالمكانة العالية، والشجاعة، والرئاسة.

وقال أبو المثلم:

هباط أودية حمال ألوية   شهاد أندية سرحان فتيان[2]

يصف الممدوح بالزعامة، والرئاسة لقومه، والمكانة العالية بين عشيرته، والعشائر الآخري، فهو شهاد أندية.

وقال سلامة ابن جندل:

يومان يوم مقامات وأندية   ويوم سير إلي الأعداء تأويب [3]

أي مجالس في الأندية، ومقامات، ومنازل، ومكانة في السلم، ويوم في الحرب سيرا إلي الأعداء للقتال.

وقال المرقش الأكبر:

شعت مقادمنا نهبي مراجلنا   نأسو بأموالنا آثار أيدينا

---

(١) شرح ديوان الخنساء ص٥١

(٢) العمدة ٢٦/٢. البيان والتبين ٣٢٦/٣، الأغاني ٢/ ٢

(٣) لسان العرب ٢١٣/١

المطمـعون إذا هـبت شـآمـية   وخي رناد رآه الناس نادينا[1]

أي مجلسنا، يفخر بقومه، ويصفهم بالشجاعة، والكرم، وتحمل الديات للقتلي، والمطمعون وقت الحرب عندما تهب هذه الريح التي تدل عند العرب علي القحط والجدب، والفقر، ثم يقول: وخير ناد رآه الناس نادينا أي خير أقوام نحن، فهو يمدح المكان، ويقصد من في المكان، فهو مجاز بالكناية.

***

حياك الله: مشتق من التحية، والتحية تنصرف علي معان ثلاثة:

فالتحية: السلام، ومنه قول الكميت:

ألا حييت عنا يامدينا   وهل بأس بقول مسلمينا

فيكون معني حياك الله: سلم الله عليك.

***

والتحية أيضا: الملك، ومنه قول عمرو بن معدي كرب:

أسير به إلي النعمان حتي   أنيخ علي تحيته بجندي

فيكون المعني ملكك الله.

---

(١) المفضليات ص٤٣١
يعني إننا أصحاب حروب وقري.

***

والتحية: البقاء، ومنه قول زهير بن جناب الكلبي:

ولكل ما نال الفتي قد نلته إلا التحيه[1]

أي إلا البقاء، فيكون المعني أبقاك الله.

***

وقولهم في التشهد: التحيات لله يشتمل علي المعاني الثلاثة. ويروي أن آدم عليه السلام لما قتل أحد ابنيه أخاه مكث سنة لا يضحك، ثم قيل له حياك الله وبياك.[2]

***

وقال سحيم:

أتكتم حييتم علي النأي تكتما تحية من أمسي بحبك مغرما[3]

أي سلم عليكم علي النأي سلام من أحبك مغرما.

***

وقال أيضا:

---

(١) الشعر والشعراء ٣٧٩/١

(٢) الفاخر ص٢

(٣) ديوان سحيم ص٣٤

أغاضر حياك الإله وأسقيت   بلادك صوب الرائح المتحير[1]

سلم الله عليك، وسلام الإله دعاء عظيم، ثم دعا لبلادها بالمطر الكثير.

***

وقال آخر:

ومربح قال لي هاء فقلت له   حياك ربي لقد أحسنت بي هائي

أي سلم عليك ربي.

***

وقال النابغة:

قالت أراك أخارحل وراحلة   تغشي متالف لن ينظرنك الهرما

حياك ربي فإنا لا يحل لنا   لهو النساء وإن الدين قد عزما[2]

أي سلم عليك ربي.

---

(١) المصدر السابق ص٥٢

(٢) ديوان النابغة الذبياني ص٦٢

أراك أخارحل: أي صاحب سفر، وكني بالرحل والراحلة عن ذلك إذ كان استعمال السفر بهما، الراحلة: البعير المتخذ للسفر، تغشي متالف: أي تحمل نفسك علي متالف تقتلك، ولا تنظرك إلي الكبر، أي لا تؤخرك إلي الهرم. حياك ربي: إنما حياها علي جهة الإعراض عنها، والإبعاد لمواصلتها، وإنما كان بعكاظ وفي نية الحج، فعرضت له، فقال لها: حياك ربي فإنا لا يحل لنا ما تريدينه منا من اللهو والصبا، لأننا حجاج، والدين هنا الحج، عزما: أي عزمنا عليه، وقويت نيتنا فيه، فذلك يحجزنا عن الصبا واللهو.

***

وهجر النهار: دخل في وقت الهاجرة

قال نابغة بني جعدة:

وعلقمة الجعفي أدرك ركضنا   بذي النخل إذصام النهار وهجرا[١]

أي دخل في وقت الهاجرة.

***

وقال امرؤ القيس:

فدع ذا وسل الهم عنك بجسرة   ذمول إذا صام النهار وهجرا[٢]

أي دخل في وقت الهاجرة.

***

وهجر: سار في وقت الهاجرة، أو استراح في وقت الهاجرة.

قال أوس:

وفتو هجروا ثم أسروا   ليلهم حتي المجاب حلوا[٣]

---

(١) جمهرة أشعار العرب ص٦٢٨

(٢) ديوان امرئ القيس ص٦٣

الجسرة: الناقة النشيطة، أو التي تجسر علي الهول والسير، والذمول: التي تسير سير الذميل، وهو سير سريع، صام النهار: قام واعتدل، هجر: من الهاجرة وشدة الحر، أي دع ذكر الظعائن والاشتغال بهن، وسل نفسك، وباعد همك باستعمال السفر علي هذه الناقة الشديدة السير في وقت إعياء الإبل وفتور سيرها، إذا قامت الشمس في وسط السماء، وانتصف النهار.

(٣) لسان العرب ٢/٤

أي قضوا هذين الوقتين.

***

والتهجير: السير في الهاجرة.

قال زهير:

إلي هرم تهجيرها ووسيجها   تروح من ليل التمام وتغتدي[1]

أي سيرها في الهاجرة.

وقال النابغة أو أوس بن حجر:

هل تبلغنهم حرف مصرمة   أجد الفقار وإدلاج وتهجير[2]

أي سير في الهاجرة.

وقال ذو الرمة:

راحت من الخرج تهجيرافماوقعت   حتي انفأي الفأرعن أعناقها سحرا[3]

---

(١) شرح ديوان زهير ص٢٣١
التهجير: السير في الهاجرة، وهو نصف النهار عند زوال الشمس إلي العصر، أو عند اشتداد الحر، الوسيج: ضرب من سير الإبل سريع، وأول السير الدبيب، ثم العنق، ثم التزيد، ثم الذميل، ثم العسج، والوسج، ووسيجها: يريد سيرها، وهو ألين السير وأوطؤه، وهو شبيه بالهمجلة أو ألين، وهو سير المهاري، وهي النجائب، ليل التمال: أطول ما يكون الليل، تروح: من الرواج، وهو العشي، أو نقيض الصباح، أو من لدن زوال الشمس إلي الليل.

(٢) ديوان النابغة الأبياني ص١٥٧
الحرف: الضامرة، المصرمة: التي لا لبن لها، لأنها لم تنتج ، وهي أقوي لها، الأجد: الموثقة الخلق، وخفف الجيم لوزن الشعر.

(٣) لسان العرب ٢/٢٠

أي سير في الهاجرة.

***

وقال الفرزدق:

متي تردي الرصافة تستريحي   من التهجير والدبر الدوامي[١]

أي السير في الهاجرة.

***

وكذلك التهجير: سير الهاجرة.

قال علقمة بن عبدة:

وناحية أفني ركيب ضلوعها   وحاركها تهجر فدؤوب[٢]

أي سيرها في الهاجرة.

***

صهرتنا الشمس: اشتدت حرارتها حتي كادت أن تذيبنا بحرارتها.

قال ابن أحمر:

تروي لقي ألقي في صفصف   تصهره الشمس فما ينصهر[٣]

---

(١) معالم النقد الأدبي ٩٢/١

(٢) الناجية: السريعة، ركيب ضلوعها: ما ركب الضلوع من الشحم واللحم، الحارك: ملتقي الكتفين في مقدم السنان، التهجر: سير الهاجرة، الدؤوب: الإلحاح في السير.

(٣) لسان العرب ١٢٤/٢٠

أي تذيبه.

***

العذاري: النساء الأبكار.

قال امرؤ القيس:

فعن لنا سرب كأن نعاجه عذاري دوار في الملاء المذيل[1]

أي نساء، يصف السرب على التشبيه.

***

متبرجات: ظاهرات.

قال شبيب بن البرصاء:

إذا احتلت الرنقاء هند مقيمة وقد حان مني من دمشق بروج[2]

أي ظهور وخروج.

***

---

(١) ديوان امرئ القيس ص٢٢

عن: أي عرض. سربه: أي قطيع البقر، شبه إناثه بجوار أبكار يطفن بدوار، وهو صنم لأهل الجاهلية يدورون حوله. الملاء: الملاحف، المذيل: الطويل المهدب، شبه البقر في مشيتهن وطول أذنابهن وبياضهن بالعذارى في الملاء المذيل.

(٢) المفضليات ص٧٧

الرنقاء: في بلاد عامر بن صعصعة، البروج: الخروج والظهور هنا، كما يفهم من السياق، وهذا المصدر لم يذكر في المعاجم وكل ظاهر مرتفع فقد برج.

التبرج أن تبدي المرأة زينتها، قال امرؤ القيس:

وتبرجت لتروعنا فوجدت نفسي لم ترع[1]

أي أظهرت زينتها.

***

تناوح: تقابل، أوتقع في المقابلة.

قال جيهاء يصف ناقة:

لجاءت كأن القسور الجون بجها عساليجه والثامر المتناوح[2]

أي المقابل بعضه بعضا.

***

وقال كثير:

وإن هي قامت تما أثلة بعليا تناوح ريحا أصيلا[3]

أي تقابل.

---

(١) جمهرة أشعار العرب ص١٥

(٢) المفضليات ص١٦٨

القسور: شجر يغزر به لبن الماشية، الجون: الأخضر الشديد الخضرة يضرب إلي السواد من شدة الري، بجها: عظمها ونفخ خواصرها ، العساليج: جمع عسلوج، وهو الغصن الناعم، الثامر: ماله ثمر، المتناوح: المقابل بعضه بعضا، يقول: لمورعت هذه العنز ما لا يجدي علي غيرها لجاءت بلبن كثير.

(٣) لسان العرب ٩/١٣، ديوان كثير عزة ص٢٩١

***

وقال ذو الرمة:

تناخي عند خير فتى يمان   إذا النكباء ناوحت الشمالا[١]

أي قابلت.

***

وقال عوف بن عطية:

هلا فوارس رحرحان هجوتهم   عشرا تناوح في سرارة واد

لا تأكل الإبل الغراث نباته   ما إن يقوم عماده بعماد[٢]

أي تتقابل.

***

وقال لبيد:

ويكللون إذا الرياح تناوحت   خلجا تمد شوارعا أيتامها[٣]

أي تقابلت

---

(١) شرح ديوان ذي الرمة ص٧٠

(٢) مصادر الشعر الجاهلي ص٢٥٠

العشر: شجر كبير له شوك، تناوح أي تتناوح أي تتقابل، الغراث: الجياع.

(٣) ديوان لبيد بن ربيعة ص١٧٨

***

وقال كثير:

وإن تكن الأخري فإن وراءنا مناويح لو سارت بها الرثم كلت[١]

أي تناوح وتقابل.

***

آل: أي رجع.

قال امرؤ القيس:

فآل يضرب رأس الأمرضحوته بالسفح أين إذاأمسي بهاالقرب[٢]

أي فرح.

***

كوماء: أي الناقة العظيمة السنام.

قال عمرو بن الأهتم:

---

(١) الشعر والشعراء ١/٥١٥

مناويح من تناوح الرياح، أي تقابلها، الرثم: الخالص البياض من الظباء.

(٢) ديوان امرئ القيس ص٣٠٤

آل: أي رجع، رأس الأمر: أوله، ضحوته: وقت الضما، السفح: جانب الجبل، القرب: الدنومن الماء.

وقمت إلي البرك الهواجد فاتقت   مقاحيد كوم كالمجادل روق[1]

كوم: جمع كوماء.

***

وقال ربيعة بن مقروم:

وأضياف ليل في شمال عرية   قريت من الكوم السديف المرعبا[2]

الكوم: جمع الكوماء.

***

وقال علقمة بن عبدة:

إذا تزغم من حافاتها ربع   حنت شغاميم في حافاتها كوم[3]

أي نياق عظيمة السنام.

***

---

(١) المفضليات ص١٢٦

البرك: إبل الحي كلهم، الهواجد: النيام، والهاجد من الأضداد، يقال للنائم، ويقال للمتيقظ بالليل المتهجد بالقراءة، فاتقت: جعلت بيني وبينها وقاية، المقاحيد: الإبل العظام الأسنمة، والكوم كذلك، جمع كوماء، المجادل: القصور، واحدها مجدل، بكسر الميم، الروق: الخيار.

(٢) المفضليات ص٣٧٦

الشمال: الريح المعروفة، العرية: الباردة، الكوم: جمع كوماء، وهي العظيمة السنام، السديف: شحم السنام، المرعب: المقطع.

(٣) المفضليات ص٤٠٤

تزغم: حن حنينا خفيفا، أي تزغم لأمه لترضعه، حافاتها: نواحيها، الربع: ما نتج من الربيع، الشغاميم: المسان التوام، الكوم: العظام الأسنمة.

وقال حسان:

فـأتـينـا بسـابـح يعـبـوب   لـم يـذلل بمعـلـف وربــاط

غير مسح وحشك كوم صفايا   ومرافيد في الشتاء بطاط[1]

أي الضخام الأسنمة من الإبل.

***

وقال امرؤ القيس:

إذا البازل الكوماء راحت عشية   تلاوذ من صوت المبسين بالشجر[2]

أي الناقة.

***

وقال الوليد بن عقبة:

---

(١) ديوان حسان بن ثابت ص١٦٩

يقول: إنما ذلك بالأيدي وبحسن الغذاء، والحشك: اجتماع الدر، والكوم: الضخام الأسنمة من الإبل، والصفايا: الغزار، والمرافيد: التي تدور علي محالبها في الشتاء، جمع مرفاد، وهي التي تحلب الرفد والرفدين، والرفد: القعب، وكل ما أطعمت فيه أو سقيت فهو رفد، والبطاط: هي التي معها أولادها، يريد: قصرت علي هذا الفرس هذه الإبل يشرب ألبانها شتاء.

(٢) ديوان امرئ القيس ص١٤٢

إذا البازل الكوماء: يصف شدة الزمان وبرده، وأن هذا الممدوح كريم في هذا الوقت، البازل: المسنة من الإبل، وهي أجلدها وأقواها، الكوماء: العظيمة السنام لسمنها، تلاوذ: أي تلوذ بالشجر، وتروغ من الداعي بها للحلب، وإنما تفعل ذلك لشدة البرد، وفي الإبل نوق لا تحلب حتي تطلع عليها الشمس وتدفأ، المبس: الذي يدعو للحلب› فيقول: بس بس.

وفي ابن الجعفري بحلفتيه على العلات والمال القليل
بنحر الكوم إذ سحبت عليه ذيول صبا تجاوب بالأصيل[1]

بنحر النياق عظيمة السنام.

***

وقالت ليلي الأخيلية:

ولا تأخذ الكوم الجلاد سلاحها لتوبة في صر الشتاء الصنابر[2]

أي النياق عالية الأسنمة

***

وقال مسلم في المدح:

يفري المنية أرواح الكماة كما يقري الضيوف شحوم الكوم والبزل[3]

أي شحوم النياق وقد عظمت أسنمتها.

***

---

(١) الشعر والشعراء ١/٢٧٦

علي العلات: علي كل حال، في عسره ويسره، الكوم: جمع أكوم أو كوماء، وهو البعير الضخم السنام، تجاوب: تتجاوب.

(٢) الشعر والشعراء ١/٤٥١

الكوم: الإبل الضخام السنام، الجلاد: الغزيرات اللبن.

(٣) الشعر والشعراء ٢/٨٣٥

الكوم: جمع كوماء، وهي الناقة العالية السنام، البزل: جمع بزول، وهو البعير الذي طعن في التاسعة.

وقال طرفة بن العبد:

لا تعز الخمر إن طافوا بها   بسباء الشول والكوم البكر[1]

أي النياق الضخمة الأسمنة.

***

وقال عروة بن الورد:

بديمومة ماإن تكاد تري بها   من الظمأ الكوم الجلاد تنول[2]

أي النياق.

***

وقالت الخنساء:

ننحر الكوم الصفايا   والبكار الخلفه[3]

أي نحر النياق.

***

وقالت الخنساء أيضا:

إذا البازل الكوماء لاذت برفلها   ولاذت لواذا بالمذرين بالسلم[4]

---

(١) ديوان طرفة بن العبد ص٥٥
(٢) ديوان عروة بن الورد ص٥٨
(٣) شرح ديوان الخنساء ص١٠٥
(٤) المصدر السابق ص١٣٢

أي الناقة الضخمة السنام.

***

وقال كعب بن زهير:

والمطعمون الضيف حين ينوبهم   من لحم كوم كالهضاب عشار[١]

من لحم النياق عظيمة السنام.

***

ضحيت: برزت للشمس أو أصابتها الشمس.

قال زهير:

مكلل بأصول النجم تنسجه   ريح خريق لضاحي مائه حبك[٢]

أي ماضحي من مائه.

***

(١) شرح ديوان كعب بن زهير ص٢٩

(٢) شرح ديوان زهير ص١٧٦

النجم: النبت الذي يقال له الشيل، وهو نبات يشتبك في الأرض، وله أرومة وأصل، فإذا كان قصيرا سمي نجما، أو هو نبات يكون علي شطوط الأنهار في الرياض، والماء مكلل بالنجم، قيل: كل شئ من النبات ليس له ساق ينبت حول الماء كالإكليل، وهو ضد الشجر الذي له ساق، ريح خريق: إذا هبت هبربا شديدا، كأنها من شدة هبوبها وعصوفها خرقاء حمقاء، ضاحي مائه: ماضحا للشمس من الماء، من ضحي: إذا برز للشمس، أو أصابته الشمس، أو أصابه حر الشمس، حبك: طرائق الماء، الواحد حبيك، يقول: إذا مرت به الريح نسجت الريح ذلك الماء، ونسجها إياه: مرها عليه، أو الجعد المتكسر من الماء.

وقال زهير أيضا:

كأن بضاحي جلدها ومقذها نضيح كحيل أعقدته المراجل[1]

أي ما ظهر منه للشمس.

***

وقال امرؤ القيس:

فصويته كأنه صوب غبية علي الأمعز الضاحي إذا اشتد أحضرا[2]

أي الظاهر للشمس.

وقال تأبط شرا:

وقلة كسنان الرمح بارزة ضحيانة في شهور الصيف محراق[3]

أي بارزة للشمس.

***

---

(١) شرح ديوان زهير ص٢٩٦

ضاحي جلدها: ظاهره، المقذ: ما بين الأذنين من القفا، شبه عرقها بالقطران، أعقدته فهو معقد، وكل ما طبخ فيه مرجل، وكل قدر عند العرب مرجل.

(٢) ديوان امرئ القيس ص٢٦٨

الغبية: السحابة، ويقال المطرة، الأمعز: الأرض ذات الحصي الصغار، الضاحي: الظاهر للشمس، الإحضار: ارتفاع الفرس في عدوه.

(٣) المفضليات ص٢٩

القلة: أعلي الجبل، ضحيانة: بازة للشمس، محراق: يحرق من فيها.

وقال المزرد:

مذكرة تلقي كثيرا رواتها   ضواح لها في كل أرض أزامل[١]

أي ظواهر للشمس.

***

وقال أبو ذؤيب:

هذا ومرقبة عيطاء قلتها   شماء ضاحية للشمس قرواح[٢]

أي بارزة للشمس.

***

وقال ساعدة بن جؤية:

ومضطجعي ناب من الحي نازح   وبيت بناه الشوك يضحي ويصرد[٣]

أي يبرز للشمس.

***

---

(١) المفضليات ص ١٠٠

مذكره: شديدة قوية، صفة للأوابد، وهي الغرائب من الكلام، أرادهنا ما يهجوهم به، ضواح: بارزة ظاهرة، لكثرة ما يرددها الرواة، واحدتها ضاحية، أزامل: جمع أزمل، وهو كل صوت مختلط.

(٢) ديوان الهذليين ٤٩/١

(٣) المصدر السابق ٢٣٧/١

وقال عمر بن أبي ربيعة:

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت فيضحي وأما بالعشي فيخصر[1]

أي يظهر للشمس.

***

ومن أبيات الحماسة:

ولقد بنيت البرد منه جانب ضاح وآخر للمقيل ظليل[2]

***

قال سلامة بن جندل:

له فخمة ذفراء تنفي عدوه كمنكب ضاح من عماية مشرق[3]

يشبه الكتيبة بمنكب الجبل في الضخامة، ضاح: بارز للشمس.

قال خفاف بن ندبة:

ومرقبة طيرت عنها حمامها نعامتها منها بضاح مزلق[4]

---

(١) الشعر والشعراء ٢/٥٥٦، لسان العرب ١٩/٢١٢

يضحي: يصيبه حر الشمس فيؤذيه، يخصر، من الخصر، بفتحتين، وهو البرد يجده الإنسان في أطرافه فيؤلمه.

(٢) شروح سقط الزند ١/٤١٠

(٣) الأصمعيات ص١٢٧

له فخمة: أي له كتيبة فخمة، ذفراء: منهكة من ريح الحديد الذي عليها، ضاح: موضع بارز للشمس، عماية. اسم جبل.

(٤) الأصمعيات ص٢٤

المرقبة: الموضع الذي يرقب عليه، النعامة: كل بناء على الجبل، كالظلة والعلم، الضاحي: البارز للشمس، الأملس: الذي لا تثبت عليه قدم.

أي بارز للشمس.

وقال أيضا:

برد تقحمه الدبور مراتبا   ملقي ضواحي بينهن لهوب[1]

بارزة للشمس.

***

الغبيط: قتب الهودج، أو الرحل.

قال امرؤ القيس:

تقول وقد مال الغبيط بنا معا   عقرت بعيري يا امرأالقيس فانزل[2]

أي قتب الهودج.

***

. وقال امرؤ القيس:

---

(١) الأصمعيات ص٢٨

البرد-بفتح الباء وكسر الراء: السحاب ذو البرد، تفحمه الدبور مراتبا: تدفعه هذه الريح منزلا منزلا فلا يستقر، شبه فرسه بهذا السحاب، الضواحي: جمع ضاحية، وهي ما ظهر وبرز للشمس، اللهوب: جمع لهب- بكسر فسكون- وهو الشعب الصغير في الجبل، أو هو وجه من الجبل كالحائط لا يستطاع ارتقاؤه.

(٢) ديوان امرئ القيس ص١١، الشعر والشعراء ١/١١٣

الغبيط: قتب الهودج، وخص البعير لأنهم كانوا يحملون النساء في الهوادج علي الذكور من الإبل من أجل أنها أقوي وأصبر، وقد يقال للناقة بعير.

له كفل كالدعص لبده الندي   إلي حارك مثل الغبيط المذأب

يدير قطاة كالمحالة أشرفت   إلي سند مثل الغبيط المذأب(١)

أي قتيب الهودج، أو الرحل.

***

وقال أبو النجم يصف قينة

فظلت تغني بالغبيط وميله   وترفع صوتا في أواخره كسر(٢)

أي قتيب الهودج.

***

. وقال أبو الصلت الثقفي أو أمية بن أبي الصلت:

يرمون عن عتل كأنها غبط   بزمخر يعجل المرمي إعجالا(٣)

---

(١) ديوان امرئ القيس ص٤٧، ٤٩، الروائع ١/١١١، ١١٢

كالدعص: هو الكثيب الصغير من الرمل، لبده الندي: أي باشره الندي فتلبد، واشتد، ولم يتساقط، فشبه الكفل به على هذه الحال، بمعني الغبيط: قتب الهودج، وهو مشرف، الذأب: الموسع، شبه الحارك به لارتفاعه وسعته، إلي هنا مع، والحارك: أعلي الكفل، يدير قطاة كمحالة: أي يصرف قطاة فقرتها مستديرة كالبكرة، والقطاة: مقعد الرديف، إلي سند: أي أشرفت هذه القطاة إلي كفل مشرف كالسند، وهو سفح الجبل، ولذلك شبهه بالغبيط، وهو قتب الهودج، المذأب: الوسع الأسفل.

(٢) الشعر والشعراء ١/١١٣

الغبيط: هودج بقبب بشجار، يكون للحرائر.

(٣) الشعر والشعراء ١/٤٦٢

العتل: جمع عتلة، وهي القوس الفارسية، وهما بفتحتين، الغبط: بضمتين، جمع غبيط، وهو نوع من الرجال قتبه وأحناؤه واحدة، يعني به خشب الرحال، وشبه القسي الفارسيه بها، الزمخر: السهم.

أي قتب الهودج، أو الرحل.

***

وقال أوس بن حجر:

ويخلجنهم من كل صمد ورجلة   وكل غبيط بالمغيرة مفعم[1]

أي قتب الهودج، أو الرحل.

***

قال عوف بن عطية يصف فرسه:

وأعددت للحرب ملبرنة   تـرد عـلي سائسيهـا الحـمـارا

لها شعب كإياد الـغبيـ   ـط فضض عنها البناة الشجارا[2]

فالغبيط: الرحل، وله مقدم مشرف بمنزلة قربوس السرج، وهو للنساء يشد عليه الهودج.

***

---

(١) ديوان أوس بن حجر ص١٢٠

(٢) المفضليات ص٤١٣

المليونة: التي تسقي اللبن، ترد الحمار: أي لا يفوتها الحمار، يعني حمار الوحش، بل تسبقه وترده، وعني بشعبها: فقار ظهرها، وقيل: شعب الفرس: ما أشرف منه، كالعنق والكاهل، الغبيط الرجل، وهو للنساء يشد عليه الهودج، وإياده: مقدمه المشرف بمنزلة قربوس السرج، شبه كاهلها به في إشرافه، فضض: أزال وفرق، البناة: جمع بان، الشجار: خشب الهودج.

وقال امرؤ القيس:

له حارك فعم أشم ملاءم   كما ألف القين الغبيط المضبرا[1]

أي الرحل.

***

يكلأ: يحفظ

قال محمد بن وهيب:

تسالمني الأيام في عنفوانه   ويكلأني طرف من الدهر ناظر[2]

يحفظني.

***

وقال آخر:

إن سليمي والله يكلأها   ضنت بزاد ماكان يرزأها[3]

والله يحفظها.

***

---

(١) الفعم: الممتلئ، والأشم: الطويل المرتفع، والملاءم: المؤلف، والمضبر: الموثق، والقين هنا: النجار.
(٢) الأغاني ١٩/٧٩
(٣) لسان العرب ١/١٤١

وقال كعب بن زهير:

أنخت قلوصي واكتلأت بعينها ... وآمرت نفسي أي أمري أفعل

أأكلأها خوف الحوادث إنها ... تريب علي الإنسان أم أتوكل[1]

. أأحفظها.

***

وقال المتنخل في رثاء ابنه أثيلة:

السالك الثغرة اليقظان كالئها ... مشي الهلوك عليها الخيعل الفضل[2]

حافظها.

***

يكلأ: يحفظ.

قال عمر بن الخطاب:

يكلأ الخلق جميعا إنه ... كالئ الخلق ورزاق الأمم[3]

أي يحفظ.

---

(١) شرح ديوان كعب بن زهير ص٥٥،٥٦

(٢) الشعر والشعراء ٢/٦٦١

الثغرة: الثغر، وهو الموضع يخاف من العدو، الكالئ: الحافظ، الهلوك من النساء: التي تتهالك في مشيتها، أي تتبختر وتتكسر، وقيل: الفاجرة الشبقة المتساقطة علي الرجال، الخيعل: الثوب يخاط أحد شقيه ويترك الآخر، الفضل: بضمتين، التي تلبس ثوبا واحدا.

(٣) جمهرة أشعار العرب ص٢٩

***

وقال امرؤ القيس:

ولم يرنا كالئ كاشح　　ولم يفش منا لدي البيت سر[١]

حافظ.

***

وقال المعري في وصف السيف:

إذا ما كالئ الأضفان يوما　　رآه رعي به كلأ وبيلا[٢]

أي الحافظ والحارس.

***

العسيف: الأجير أو التابع، والأسيف: أي العبد، ويستعمل كل مكان الآخر في جل معانيه.

قال حسان:

وصارابن عجلان نفيا كأنه　　عسيف علي آثار أفصلة همل[٣]

---

(١) الكالئ: الحافظ، أو المراقب، الكاشح: المتولي عنك بوده.

(٢) شروح سقط الزند ١٣٩٢/٣

الكالئ: الحافظ الحارس، الأضغان: الأحقاد، وأراد بكالئ الأضغان الذي يحبس الأحقاد في صدره، الكلأ: العشب كله، أخضره ويابسه، الوبيل: الذي يعقب من يرعاه هلكة، وذكر الكلأ لأن السيف يوصف بالخضرة، فشبهها بكلأ أخضر يهلك من يرعاه.

(٣) ديوان حسان بن ثابت ص٣٢١

العسيف: الأحير والتابع، والأسيف: العبد، والأفصلة: جمع فصيل، ابن عجلان: هو مالك بن العجلان.

أجير، أو تابع.

***

وقال كثير:

أنحـن الـقرون فغللنها   كعقل العسيف غرابيب ميلا[1]

الأجير أو التابع.

***

وقال ابن الذئبة الثقفي:

أطعت النفس في الشهوات   أعادتني عسيفا عند عبد[2]

أي الأجير أو التابع.

***

وقال علي بن جبلة:

أو نضح عزلاء الشعيب وقد   راح العسيف بمائها يعدو[3]

الأجير أو التابع.

***

---

(١) ديوان كثير عزة ص ٢٩١

(٢) البخلاء ص ١٠٤

(٣) شعر علي بن جبلة ص [illegible]

وقال سحيم:

وفي الشرط أني لا أباع وأنهم   يقولون غبق ياعسيف العزاريا[1]

أي ياعبد.

***

وقال الراجز:

لما رآها ترشف المذيا   ضج العسيف واشتكي الونيا[2]

العسيف: أي الأجير.

***

وقال المعري:

تود غرار السيف من حبها اسمه   وما هي في النوم الغرار بطمع[3]

أي النوم القليل.

***

---

(١) ديوان سحيم ص٥٧

(٢) لسان العرب ١٤٢/٢٠

(٣) شروح سقط الزند ١٥٠٩/٤

يعني هذه الإبل تود غرار السيف، لما قد لحقها من طول السري والتعب، فهي تود أن تغفو لتستريح من أجل حبها سمية غرار النوم، لأنها لا تطمع فيه، والغرار: لفظة مشتركة، يسمي بها حد السيف، ويسمي بها النوم القليل.

وقال الشاعر:

لا أذوق النوم إلا غرارا   مثل حسو الطير ماء الثمار[١]

إلا قليلا.

***

وقال التهامي:

ألم وفي جفني وفي جفن منصلي   غراران ذا نوم وذاك مشطب[٢]

قليلان.

***

وقال المعري:

تدوس أفا حيص القطا وهو هاجد   فتمضي ولم تقطع عليه غرارا[٣]

قليلا.

***

(١) شروح سقط الزند ١٥٠٩/٤

(٢) شروح سقط الزند ٦٣٤/٢

(٣) شروح سقط الزند ٦٣٣/٢

أفا حيص: جمع أفحوص، وهو موضع بيض القطا، الغرار: القليل من النوم، أي لسرعتها وخفتها لا ينتبه لها القطا إذا مرت عليه، تدوس: تطأ بأخفافها، الهاجد: النائم، يصف الإبل بخفة الوطء، والغرار: نوم خفيف لا استغراق فيه.

رفع عقيرته: أصل العقيرة أن رجلا كانت رجله عقيرة، فرفعها، ثم تغني، فيقال لكل مغن: رفع عقيرته، وعبارة اللسان قيل: أصله أن رجلا عقرت رجله، فوضع العقيرة علي الصحيحة، وبكي عليها بأعلي صوته، فقيل: رفع عقيرته، ثم كثر حتي صير الصوت بالغناء عقيرة.[١]

***

مثقف: مقوم.

قال امرؤ القيس:

إذا قلت أبياتا جيادا حفظتها   وذلك أني للقوافي مثقف[٢]

أي مقوم، ومهذب.

***

وأصله من الثقاف، وهي الخشبه التي تقوم بها الرماح.

قال النابغة:

تدعو قعينا وقد عض الحديد بها   عض الثقاف علي صم الأنابيب[٢]

---

(١) شرح ديوان زهير ص٢٧

(٢) ديوان امرئ القيس ص٣٢٥

مثقف: أي مقوم، وأصله من الثقاف، وهي الخشبة التي تقوم بها الرماح إذا كان فيها اعوجاج حتي تستقيم.

(٣) ديوان النابغة الذبياني ص٥٣

قعين: حي من بني أسد، الأنابيب: جمع أنبوب، ما بين كعوب العصا، الثقاف: خشبة تقوم بها الرماح، يقول: عض الحديد بهذه الحرة فأوجعها، فجعلت تنادي قومها، فتقول: يالقعين، وشبه عض الحديد بها بعض الثقاف للقناة في الشدة.

أي الخشبة لتقويم الرماح.

***

وقال عبيد بن الأبرص:

إنا إذا عض الثقا ... ف برأس صعدتنا لوينا[1]

أي الخشبة التي تقوم الرماح.

***

وقال أبو العلاء:

وتيقنت أبطالها مما رأت ... أن لا تقومها بغمز ثقاف[2]

أي الخشبة التي تقوم الرماح.

***

وقال سلامة بن جندل:

سوي الثقاف قناها فهي محكمة ... قليلة الزيغ من سن وتركيب

---

(١) الشعر والشعراء ١/٢٦٧
الثقاف: خشبة تسوى بها الرماح، الصعدة: القناة المستوية تنبت كذلك لا تحتاج إلى تثقيف.
(٢) شروح سقط الزند ٣/١٢٦٣
الثقاف: عود تقوم به الرماح، وادعى الفرسان التي تحمل الرماح أنها قد يئست من تثقيفها بعد ما شاهدته فيها.

زرقـا أسنتـها حـمرا مـثقفـة   أطرافهن مقيل لليعاسيب[١]

أي الخشبة لتقويم الرماح.

***

وقال الجميح:

في كفه لدنة مثقفة   فيها سنان محرب لحم[٢]

أي مقومة.

***

حمي: أي غضب، واشتد عليه.

قال زهير:

هم يضربون حبيك البيض إذ لحقوا   لاينكلون إذا ما استلحموا وحموا[٣]

---

(١) المفضليات ص١٢٣

الثقاف: خشبة في وسطها ثقب يقوم بها الرماح إذا اعوجت، الزيغ: الاعوجاج، السن: التحديد، التركيب: تركيب الفصال، وجعل أسنتها زرقا لشدة صفائها، وحمرا، لأنه إذا اشتد الصفاء خالطته شكلة، أي حمرة، اليعاسيب: الرؤساء، يريد أنهم يقتلون الرؤساء، فيرفعون رؤوسهم علي أسنتها.

(٢) المفضليات ص٤١

لدنة: قناة لينة، مثقفة: مقومة، محرب: مغيظ مغضب، اللحم: بكسر الحاء: القرم إلي اللحم من الرجال، ونعت الرمح بهذين الوصفين كناية عن غنائه، وبالغ أثره.

(٠٣) شرح ديوان زهير ص١٥٩

حبيك البيض: طرائقه، جمع حبيكة، استلحموا: أدركوا، حموا: غضبوا، وأصله من حمي النار، وهو اشتداد فيها، نكل: جبن.

أي غضبوا.

***

وقال زهير أيضا:

ومدره حرب حميها يتقي به   شديد الرجام باللسان واليد[1]

أي شدتها.

***

وكذلك أحمي: أي جعل حارا.

وقال زهير يعاتب امرأته:

فيم لحت إن لومها ذعر   أحميت لوما كأنه الإبر[2]

أي جعلته حارا

***

أو حمي بمعني غلي

---

(١) شرح ديوان زهير ص٢٣٣

مدره: مدفع من درهمت كد رأت: أي دفعت، وهو فارس القوم الذي يدفع عنهم، حميها: شدتها، وهو مستعار من حمي النار، وهو اشتداد حرها، الرجام والمراجمة: المراماة بالخصومة والقتال، يقول: يدفع عن نفسه وقومه بلسانه ويده في القتال والخصومة.

(٢) شرح ديوان زهير ص٣١٣

لحت: لامت، أحميت، يقول: لمت لوما كأنه الإبر في الصدر، ذعر: مفزع، وأحميت: أي جعلته حارا، والذعر: الخوف والفزع.

قال امرؤالقيس في وصف فرس:

علي العقب جياش كأن اهتزامه   إذا جاش فيه حميه غلي مرجل[1]

أي غليه.

***

ومنه الحامي: أي الحار المتوهج.

قال امرؤ القيس:

ومجدة نسأتها فتكمشت   رتك النعامة في طريق حام[2]

أي حار متوهج.

***

يشرق: يغص.

أنشد أبو عمرو:

---

(١) ديوان امرئ القيس ص٢٠

علي العقب جياش: أي يجيش في جريه، كما تجيش القدر علي النار، والعقب: جري بعد جري، وقيل: هو تحريك الفرس بالعقب، أي لا يحوجك إلي السوط لنشاطه وسرعته، واهتزامه: صوت جوفه عند الجري، والحمي: الغلي، المرجل: القدر.

(٢) ديوان امرئ القيس ص١١٥

ومجدة: أي رب ناقة أنها جد في السير وسرعة، تكمشت: أسرعت وجدت لا تفتر، وشبه سرعة سيرها برتك النعامة، وهو تقارب خطوطها في سرعة، الحامي: الحار المتوهج، وصف أ صار في الهاجرة، نسأتها: أي دفعتها.

ما بال عرس شرقت بريقها   ثم لا يرجع لها في فوقها[1]

أي غصت بريقها.

***

وقال النابغة الجعدي:

وكأن فاها بات مغتبقا   بعد الكري من طيب الخمر

شرقا بماء الذوب أسلمه   بالطود أيمن من قري النسر[2]

أي غاصا.

***

وقال الأعشي:

ما روضة من رياض الحزن معشبة   خضراء جاد عليها مسبل هطل

يضاحك الشمس منها كوكب شرق   مؤزر بعميم النبت مكتهل[3]

ريان ممتلئ.

***

---

(1) لسان العرب ١٢/١٩٢

(2) الشعر والشعراء ١/١٧٥

(3) الشعر والشعراء ١/٢٦٦

يضاحك الشمس: يدور معها، ومضاحكته إياها حسن له ونضرة، الكوكب: النورهنا، يشبه بكوكب السماء، الشرق: الريان الممتلئ ماء، المؤزر: الذي صار النبات كالإزار له، العميم: النبت الكثيف الحسن، مكتهل: تم طوله وظهر نوره.

وقال الممزق العبدي:

أحقا أبيت اللعن أن ابن قرتنا   علي غير إجرام بريقي مشرقي

فإن كنت مأكولا فكن خير آكل   وإلا فأدركني ولما أمزق[1]

والشرق وهو بالماء والريق كالغصص بالطعام.

***

قبحا لك: أي إقصاء وإبعادالك من كل خير.

تعبير ورد في الشعر كثيرا.

***

. قال الحطيئة:

أري لي وجها شوه الله خلقه   فقبح من وجه وقبح حامله[2]

أي أبعد عن الخير.

***

وقال أبو دلامة:

---

(١) الأصمعيات ص ١٦٦

ابن قرتنا: قد يكون شخصا مسمي بهذا، وقد يكون نبزا سب به شخصا، فإن ابن فرتنا يراد به اللئيم، مشرقي: من الشرق، وهو بالماء، والريق كالغصص بالطعام.

(٢) رسالة الغفران ص٣٠٧

فأما بعد ذلك فلي غريم   من الأنصار قبح من غريم[1]

أي أقصي عن الخير.

***

وقال الراعي أو ابن أعيي:

ألا قبح الله الحطيئة إنه   علي كل ضيف ضافه فهو سائح[2]

. أي أقصاه الله عن الخير.

***

وقال النابغة:

قبح الله ثم ثني بلعن   وارث الصائغ الجبان الجهولا[3]

أبعد عن الخير

***

وقال ذو الرمة:

ألا قبح الله امرأ القيس إنها   كثير مخازيها قليل عديدها[4]

---

(١) العقد الفريد ١/٣٠٤

(٢) العمدة ٢/١٥١، الأغاني ٢/١٧٢، الوحشيات ص٢٤١

(٣) الشعر والشعراء ١/١٦١، ١٦٥

(٤) شرح ديوان ذي الرمة ص٣١

أي قبيلة امرئ القيس.

***

وقال امرؤ القيس:

ألا قبح الله البراجم كلها وجدع يربوعا وعفر دارما[١]

أي أقصاهم عن الخير.

***

وقال عمر بن أبي ربيعة:

إن تجد الوصال منك فإنا قبح الله بعدها من خدعنا[٢]

أي أقصاه الله عن الخير.

***

وقال الأخطل:

ويصبح كالخفاش يدلك عينه فقبح من وجه لئيم ومن حجر[٣]

أي أقصي عن الخير.

***

---

(١) مصادر الشعر الجاهلي ص٥١٩

(٢) ديوان عمر بن أبي ربيعة ص٧٢

(٣) لسان العرب ٢٤٩/٥

وقال البعيث يهجو جريرا:

أبوك عطاء ألأم الناس كلهم   فقبح من فحل وقبحت من نجل[1]

أي أقصاه الله عن الخير.

***

وقال آخر:

لعوا حريصا يقول القانصون له   قبحت ذا أنف وجه حق مبتئس[2]

أي أقصيت عن الخير.

***

وقال الراعي:

قبح الإله ولا أحاشي غيرهم   أهل السبيلة من بني حمانا[3]

أي أقصي الإله هؤلاء عن الخير.

***

وقال جرير يهجوالأخطل:

قبح الإله وجوه تغلب إنها   هانت علي مراسنا وسبالا

---

(١) لسان العرب ٣٠٢/١٩

(٢) لسان العرب ١١٥/٢٠

(٣) المصدر السابق ٢٥٢/٢٠

قبح الإله وجوه تغلب كلما   شبح الحجيج وكبروا إهلالا[1]

أي أقصاهم عن الخير.

***

قال معاوية بن يكر:

فقبح وفدكم من وفد قوم   ولا لقوا التحية والسلاما[2]

أي أقصوا عن الخير.

***

منتحل: مسروق، أو مدعي

قال الرزدق:

إذا ما قلت قافيه شردوا   تنحلها ابن حمراء الهجان

أي سرقها.

***

وقال ابن هرمة:

---

(١) قبح الإله: دعاء عليهم بالتقبيح، وهو الإبعاد عن الخير، المراسن: جمع مرسن، وهو الأنف، السبال - جمع سبلة- بفتح السين والباء- ما علي الشارب من الشعر، أو ما علي الذقن إلي طرف اللحية، وهوان الأنوف والشوارب: كناية عن هوان أصحابها.

شبح الحجيم: رفعوا أبديهم بالدعاء والتسبيح، الإهلال: رفع الصوت.

(٢) جمهرة أشعار العرب ص٣٢

ولم أتنحل الأشعار فيها   ولم تعجزني المدح الجياد

لم أسرق.

***

وقال المتنبي:

ناديت مجدك في شعري وقد صدرا   ياغبر منتحل في غير منتحل[1]

أي غير مسروق في أصيل كريم.

***

وقال طرفة في هذا المعني:

ولا أغير علي الأشعار أسرقها   عنها غنيت وشرالناس من سرقا

وإن أحسن بيت أنت قائله   بيت يقال إذا أنشدته صدقا

أي لا أهجم علي الأشعار أسرقها، وأنتحلها.

***

ومنه النحول بمعني الانتحال.

---

(١) العرف الطيب ١/٣٥٣

المنتحل: المدعي باطلا، ناديت مجدك الموصوف في شعري، وقد صدراعنك وعني، وسارا في الآفاق، يامجدا غير منتحل موصوفا في شعر غير منتحل.

قال امرؤ القيس في الفخر:

فثوي وورث ملك من وطئ الحصي   قرا أبوه عنوه ونحولا[1]

بمعني الانتحال، والادعاء.

***

الانكسار: الذل.

قال الشاعر:

فنفسي لها حنين   وقلبي له انكسار

أي ذل.

***

(١) ديوان امرئ القيس ص٣٥٩

ثوي: أي مات، والثاوي: المقيم في قبر، يقول: لما هلك ورث ملك الأرض بنيه، قسرا: قهرا، العنوة: القهر والغلبة، والنحول: من الانتحال، يقال: فلان ينتحل الشعر: أي يجره لنفسه ويدعيه، ومنه النحلة: وهي العطية بطيب النفس.

الفصل الرابع

نظرات نقدية في كتاب

البخلاء للجاحظ

رسالة سهل بن هارون إلي بني زياد حين ذموا مذهبه في البخل :

بسم الله الرحمن الرحيم، أصلح الله أمركم، وجمع شملكم، وعلمكم الخير، وجعلكم من أهله.

قال الأحنف بن قيس: يا معشر بني تميم، لا تسرعوا إلي الفتنة، فإن أسرع الناس إلي القتال أقلهم حياء من الفرار.

وقد كانوا يقولون: إذا أردت أن تري العيوب جمة فتأمل عيابا، فإنه إنما يعيب بفضل ما فيه من العيب.

وأول العيب أن تعيب ماليس بعيب، وقبيح أن تنهي عن مرشد، أو تغري بمشفق.

وما أردنا بما قلنا إلا هدايتكم، وتقويمكم، وإلا إصلاح فسادكم، وإبقاء النعمة عليكم.

ولئن أخطأنا سبيل إرشادكم، فما أخطأنا سبيل حسن النية فيما بيننا وبينكم.

ثم قد تعلمون أنا ما أوصيناكم إلا بما قد اخترناه لأنفسنا قبلكم، وشهرنا به في الآفاق دونكم.

ثم نقول في ذلك ماقال العبد الصالح لقومه:[1]

قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨)

---

(١) هود ٨٨.

فما كان أحقكم - في تقديم حرمتنا بكم - أن ترعوا حق قصدنا بذلك إليكم، وتنبيهنا علي ما أغفلنا من واجب حقكم، فلا العذر المبسوط عرفتم، ولا بواجب الحرمة قمتم.

ولو كان ذكرالعيوب برا، وفضلا لرأينا أن في أنفسنا عن ذلك شغلا.

وإن من أعظم الشقوة، وأبعد من السعادة ألا يزال يتذكر زلل المعلمين، ويتناسي سوء استماع المتعلمين، ويستعظم غلط العاذلين، ولا يحفل بعمد المعذولين.

***

عتبموني بقولي لخادمي: أجيدي عجنه خميرا، كما أجدته فطيرا، ليكون أطيب لطعمه وأزيد في ريعه.

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ورحمه لأهله: املكوا العجين فإنه أريع الطحينين، أو أحد الريعين.[1]

وعبتم علي قولي: من لم يتعرف مواقع السرف، في الموجود الرخيص، لم يعرف مواقع الاقتصاد، في الممتنع الغالي.

فلقد أتيت من ماء الوضوء بكيلة، يدل حجمها عن مبلغ الكفاية، وأشف من الكفاية، فلما صرت إلي تفريق أجزائه، علي الأعضاء، وإلي التوفير عليها من وظيفة الماء، وجدت في الأعضاء فضلا عن الماء، فعلمت أن لو كنت مكنت الاقتصاد في أوائله، ورغبت عن التهاون به في

---

(١) نهاية الأرب ٣/٣١٨.

ابتدائه، لخرج آخره علي كفاية أوله، ولكان نصيب العضو الأول كنصيب الآخر، فعبتموني بذلك، وشنعتموه بجهدكم وقبحتموه.

وقد قال الحسن عن ذكر السرف: إنه ليكون في الماعونين: الماء، والكلأ، فلم يرض بذكر الماء، حتي أردفه بالكلأ.

وعبتموني حين ختمت علي سل عظيم. وفيه شئ ثمين من فاكهة نفيسة، ومن رطبة غريبة، علي عبدنهم، وصبي جشع، وأمة لكعاء، وزوجة خرقاء أو مضيعة.[1]

وليس من أصل الأدب، ولا في ترتيب الحكم ولا في عادات القادة، ولا في تدبير السادة، أن يستوي في نفيس المأكول، وغريب المشروب، وثمين الملبوس، وخطير المركوب، والناعم من كل فن، واللباب من كل شكل، التابع والمتبوع، والسيد والمسود.

كما لا تستوي مواضعهم في المجلس، ومواقع أسمائهم في العنوانات، وما يستقبلون به من التحيات.

وكيف وهم لا يفقدون من ذلك ما يفقد القادر، ولا يكترثون له اكتراث العارف.

من شاء أطعم كلبه الدجاج المسمن، وعلف حماره السمسم المقشر.

فعبتموني بالختم، وقد ختم بعض الأئمة علي مزود سويق، وختم علي كيس فارغ، وقال: طينة خير من ظنة، فأمسكتم عمن ختم علي لا شئ، وعبتم من ختم علي لا شئ.

(١) المصدر السابق

وعبتموني حين قلت للغلام: إذا زدت في المرق، فزد في الإنضاج، لنجمع بين التأدم باللحم، والمرق، ولنجمع مع الارتفاق بالمرق الطيب.

وقد قال النبي صلي الله عليه وسلم: إذا طبختم لحما، فزيدوا في الماء، فإن لم يصب أحدكم لحما، أصاب مرقا.[1]

وعبتموني بخصف النعال،وبتصدير القميص،وحين زعمت أن المخصوفة أبقي،وأوطأ، وأوقي،وأنفي للكبر، وأشبه بالنسك، وأن الترقيع من الجزم، وأن الاجتماع مع الحفظ، وأن التفرق مع التضييع.

وقد كان النبي صلي الله عليه وسلم يخصف نعله، ويرقع ثوبه، ويلطع أصبعه، ويقول: لو أتيت بذراع لأكلت، ولو دعيت إلي كراع لأجبت.[2]

ولقد لفقت سعدي ابنة عوف إزار طلحة - وهو جواد قريش، وهو طلحة الفياض.

- وكان في ثوب عمر رقاع أدم، وقال: من لم يستحي من الحلال، خفت مئونته، وقل كبره.[3]

وقالوا: لا جديد لمن لا يلبس الخلق.

وبعث زياد رجلا، يرتاد له محدثا، واشترط علي الرائد أن يكون عاقلا

---

(١) نهاية الأرب٣/٣١٨

ورد: الدجاجة السمينة، علي مدسويق، طينة خير من ظنة، طيب المرق،إذا طبخ أحدهم لحما فليزد من الماء، فمن لم يصب لحما أصاب مرقا.

(٢) نهاية الأرب٣/٣١٩

روي: لو أهدي إلي كراك لقبلت، ولودعت إلي ذراع لأجبت.

(٣) نهاية الأرب٣/٣١٩، روي عن النبي صلي الله عليه وسلم

مسددا، فأتاه به موافقا.

فقال: أكنت ذا معرفة به؟

قال: لا، ولا رأيته قبل ساعته.

قال: أفنا قلته الكلام، وفاتحته الأمور، قبل أن توصله إليّ؟

قال: لا.

قال: فلم اخترته علي جميع من رأيته؟

قال: يومنا يوم قائظ، ولم أزل أتعرف عقول الناس بطعامهم، ولباسهم، في مثل هذا اليوم، ورأيت ثياب الناس جددا، وثيابه لبسا، فظننت به الحزم، أو تفرست فيه العقل والأدب.

وقد علمنا أن الجديد في غير موضعه دون الخلق[1]، وقد جعل الله لكل شئ قدرا، وبوأ له موضعا، كما جعل لكل دهر رجالا، ولكل مقام مقالا.

وقد أحيا بالسم، وأمات بالغذاء، وأغص بالماء، وقتل بالدواء.

فترقيع الثوب يجمع مع الإصلاح التواضع، وخلاف ذلك يجمع مع الإسراف التكبر.

وقد زعموا أن الإصلاح أحد الكسبين، كما زعموا أن قلة العيال أحد اليسارين.

---

(١) نهاية الأرب ٣/٣١٩.
روي: وقد علمت أن الخلق في موضعه مثل الجديد في موضعه، وروي كما جعل الله لكل زمان حالا.

وقد جبر الأحنف يد عنز، وأمر بذلك النعمان، وأمر مالك بن أنس بفرك البعر.

وقال عمر: من أكل بيضة فقد أكل دجاجة.

ولبس سالم بن عبد الله جلد أضحية.

وقال رجل لبعض السادة: أهدي إليك دجاجة؟

فقال: إن كان لابد فاجعلها بياضة.

وعد أبو الدرداء العراق جزر البهيمة.

وعبتموني حين قلت: لا يغترن أحد بطول عمره، وتقوس ظهره، ورقة عظمه، ووهن قوته، وأن يري دخله أكثر من رزقه، أن يري أكرومته، ولا يخرجه ذلك إلي إخراج ماله من يديه، وتحويله إلي ملك غيره، وإلي تحكيم السرف فيه، وتسليط الشهوات عليه.

فلعله أن يكون معمرا، وهو لا يدري، وممدودا له في السن وهو لا يشعر، ولعله أن يرزق الولد علي اليأس، أو يحدث عليه بعض مخبآت الدهور، مما لا يخطر علي البال، ولا تدركه العقول، فيسترده ممن لا يرده، ويظهر الشكوي إلي من لا يرحمه، أضعف ما كان عن الطلب، وأقبح ما يكون به الكسب.

فعتبتموني بذلك، وقد قال عمرو بن العاص: اعمل لدنياك عمل من يعيش أبدا، واعمل لآخرتك عمل من يموت غدا.

وعبتموني حين زعمت أن التبذير إلي مال القمار، ومال الميراث، وإلي مال الالتقاط، وحباء الملوك - أسرع.

وأن الحفظ إلي المال المكتسب، والغني المجتلب، وإلي ما يعرض فيه لذهاب الدين، واهتضام العرض، ونصب البدن، واهتمام القلب - أسرع.

وأن من لم يحسب ذهاب نفقته، لم يحسب دخله، ومن لم يحسب الدخل، فقد أضاع الأصل، وأن من لم يعرف للغني قدره، فقد أذن بالفقر، وطاب نفسا بالذل.

وزعمت أن كسب الحلال مضمن بالإنفاق في الحلال، وأن الخبيث ينزع إلي الخبيث، وأن الطيب يدعو إلي الطيب، وأن الإنفاق في الهوي حجاب دون الحقوق.

وأن الإنفاق في الحقوق حجاز دون الهوي.

فعبتم عليّ هذا القول، وقد قال معاوية: لم أر تبذيرا قط، إلا وإلي جانبه حق مضيع.

وقد قال الحسن: إذا أردتم أن تعرفوا من أين أصاب ماله، فانظروا في أي شئ ينفقه، فإن الخبيث ينفق في السرف.

وقلت لكم: - بالشفقة مني عليكم، وبحسن النظر لكم، وبحفظكم لآبائكم، ولما يجب في جواركم، وفي ممالحتكم، وملابستكم:

أنتم في دار الآفات، والجوائح غير مؤمونات، فإن أحاطت بمال أحدكم آفة لم يرجع إلي بقية.

فأحرزوا النعمة، باختلاف الأمكنة، فإن البلية لا تجري في الجميع إلا مع موت الجميع.

وقد قال عمر رضي الله عنه في العبد والأمة، وفي ملك الشاة والبعير، وفي الشئ الحقير اليسير: فرقوا بين المنايا، واجعلوا الرأس رأسين.

وقال ابن سيرين لبعض البحريين: كيف تصنعون بأموالكم؟

قال: نفرقها في السفن، فإن عطب بعض، سلم بعض، ولولا أن السلامة أكثر لما حملنا خزائننا في البحر.

قال ابن سيرين: تحسبها خرقاء وهي صناع.

وقلت لكم - عند إشفاقي عليكم - إن للغني سكرا، وإن للمال لنزوة، فمن لم يحفظ الغني، من سكر الغني، فقد أضاعه، ومن لم يرتبط المال، بخوف الفقر، فقد أهمله.

فعبتموني بذلك، وقال زيد بن جبلة: ليس أحد، أفقر من غني أمن الفقر، وسكر الغني أشد من سكر الخمر.

وقلتم قد لزم الحث على الحقوق، والتزهيد في الفضول، حتى صار يستعمل ذلك في أشعاره، بعد سائر كلامه.

فمن ذلك قوله في يحيي بن خالد:

عدو تلاد المال فيما ينوبه منوع إذا ما منعه كان أحزما[1]

ومن ذلك قوله في محمد بن زياد:

---

(١) نهاية الأرب ٣٢١/٣.
روي: وهوب تلاد المال فيما ينوبه.

وخليقتان تقي وفضل تحرم وإهانة في حقه بالمال

وعبتموني حين زعمت أني أقدم المال علي العلم؛ لأن المال به يغاث العالم، وبه تقوم النفوس، قبل أن تعرف فضيلة العلم، وأن الأصل أحق بالتفضيل من الفرع.

وأني قلت: وإن كنا نستبين الأمور بالنفوس، فإنا بالكفاية نستبين، وبالخلة نعمى.

وقلتم: وكيف تقول هذا؟ وقد قيل لرئيس الحكماء، ومقدم الأدباء: العلماء أفضل أم الأغنياء؟

قال: بل العلماء.

قيل: فما بال العلماء يأتون أبواب الأغنياء، أكثر مما يأتي الأغنياء أبواب العلماء؟

قال: لمعرفة العلماء بفضل الغني، ولجهل الأغنياء بفضل العلم.

فقلت: حالهما هي الفاصلة بينهما، وكيف يستوي شئ تري حاجة الجميع إليه، وشئ يغني بعضهم فيه عن بعض؟

وعبتموني حين قلت: إن فضل الغني علي القوت، إنما هو كفضل الآلة تكون في الدار: إن احتيج إليها استعملت، وإن استغني عنها كانت عدة.

وقد قال الحصين بن المنذر: وددت أن لي مثل أحد ذهبا، لا أنتفع منه بشئ.

قيل: فما ينفعك من ذلك؟

قال: لكثرة من يخدمني عليه، لأن المال مخدوم.

وقال أيضا: عليك بطلب الغني، فلو لم يكن لك فيه، إلا أنه عز في قلبك، وشبهة في قلب غيرك، لكان الحظ فيه جسيما، والنفع فيه عظيما.

ولسنا ندع سيرة الأنبياء،وتعليم الخلفاء، وتأديب الحكماء، لأصحاب الأهواء.

كان رسول الله صلي الله عليه وسلم يأمر الأغنياء باتخاذ الغنم، والفقراء باتخاذ الدجاج.[1]

وقالوا: درهمك لمعاشك، ودينك لمعادك، فقسموا الأمور كلها علي الدين والدنيا، ثم جعلوا أحد قسمي الجميع الدرهم.

وقال أبو بكر الصديق رحمة الله عليه ورضوانه: إني لأبغض أهل البيت، ينفقون رزق الأيام في اليوم.

وكانوا يبغضون أهل البيت اللحمين.

وكان هشام يقول: ضع الدرهم علي الدرهم يكون مالا.

ونهي أبو الأسود الدؤلي - وكان حكيما أديبا، وداهيا أريبا - عن جودكم هذا المولّد، ، وعن كرمكم هذا المستحدث.

فقال لابنه: إذا بسط الله لك في الرزق، فابسط، وإذا قبض فاقبض، ولا تجاود الله، فإن الله أجود منك.

---

(١) نهاية الأرب ٣/٣٢١.

وقال: درهم من خل، يخرج من حق، خير من عشرة آلاف قبضا.

وتلقط عرجدا[1] من برم، فقال: تضيعون مثل هذا، وهو قوت امرئ مسلم يوما إلي الليل.

وتلقط أبو الدرداء حبات حنطة فنهاه بعض المسرفين.

فقال: إيها، ابن العبسية، إن من فقه المرء رفقه في معيشته.[2]

فلستم علي تردون، ولا رأيي تفندون، فقدموا النظر قبل العزم، وتذكروا ما عليكم قبل أن تذكروا ما لكم، والسلام.[1]

***

---

(١) العرجد: العرجون، البرم: حب العنب إذا كان غاية في الصغر.

(٢) شرح مقامات بديع الزمان ص٣٢٤-٣٣٠

(١) البخلاء ص ٩-١٦، البيان والتبيين ٣/ ١٧٤، ٢/ ١٥١، ٢/ ٥٦، ٣/ ٢٣-٢٩
عيون الأخبار ١-٣٦. ٤٧. ٣-٢٩٦، ١١-٢٦٧. ١/ ٢٤٤-٢٥٠-٣٣٢، العقد الفريد ٢/ ٤٥٦، اللآلي ص ٦٨٩
تاريخ الطبري ٩-٣٠٠
الأمالي ٢/ ٥٦
نهج البلاغة ٤/ ٣٠٩
محاضرات الأدباء ١/ ٢٣٦-٢٣٨
الحيوان ٣/ ٤٦٦. ٥/ ٦٠٤
زهر الآداب ٢/ ٢٥٨، ٦/ ١٩٢
غرر الخصائص الواضحة ص٣١٢
شرح الشريشي للمقامات ٢/ ١٩١
النهاية في غريب الحديث ٤/ ٥٥
نهاية الأرب ٣/ ٣٢٣
شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني ص٣٢٤-٣٣٠

نظرات نقدية في الرسالة:

بدأ سهل بن هارون رسالته بالافتتاح بسم الله الرحمن الرحيم وهذه نزعة دينية، لأن كل عمل بدئ فيه ببسم الله فهو مبرور، وكل عمل لم يبدأ فيه باسم الله فهو أبتر.

***

وثنى بالدعاء لبني عمه من آل زياد: « أصلح الله أمركم، وجمع شملكم، وعلمكم الخير، وجعلكم من أهله » وهذا أيضا أمر تقليدي جري عليه كثير من الكتاب.

***

وعمد إلي موضوعه، وقصد إليه قصدا، وبدأ ذلك بالاستشهاد بقول للأحنف بن قيس لمعشر بني تميم: « لا تسرعوا إلي الفتنة، فإن أسرع الناس إلي القتال أقلهم حياء من الفرار ».

وهذا القول ذكره سهل بن هارون لينتفع به في معرض فكرته فهو يريد من آل زياد ألا يسرعوا إلي الفتنة.

***

وذكر سهل بن هارون بعد ذلك قولا لم يذكر قائله، وإنما ذكره بقوله: « وقد كانوا يقولون ».

مما يدل علي أنه قول شائع مشهور، فلم يحتج إلي ذكر من قاله، وأنا

أري أنه كان يجب عليه أن يذكر من قاله، ولو كان قولا مشهورا، فليذكر أول من قاله، أو ليذكر القوم أو القبيلة، أو المصر التي شهر فيها هذا القول.

***

أما القول الذي لم يذكر قائله فهو: «إذا أردت أن ترى العيوب جمة فتأمل عيابا، فإنه إنما يعيب بفضل ما فيه من العيب».

ومن ثم يتخذ من هذا القول مستندا يستند إليه ليصل إلي هدفه، لأنه قال بعد ذلك:

« وأول العيب أن تعيب ماليس بعيب، وقبيح أن تنهي عن مرشد، أو تغري بمشفق».

***

وهذا القول نتيجة التسليم بالقول السابق، واتصال بالهدف الذي يأمله، وهو ألا يعيب بنوعمه من آل زياد مذهبه في البخل، وكأنه يرد عليهم التهمة بأن العائب إنما يذكر ما فضل من عيبه، فالعيب في العائب لا في المعيب عليه.

***

وكذلك قوله: « وقبيح أن تنهي عن مرشد، أو تغري بمشفق».

يعد ردا عليهم، بأنهم لم ينظروا في كلامه في الكتب نظرة المتعلم من المرشد المشفق، فلم يفهموا رأيه، ولذا عابوه، ولو علموا أنه مرشد مشفق لنظروا في كلامه نظرة المستفيد المتعلم.

***

ويستميل سهل بن هارون بني عمه من آل زياد بقوله: « وما أردنا بما قلنا إلا هدايتكم، وتقويمكم، وإلا إصلاح فسادكم، وإبقاء النعمة عليكم».

***

يوضح هدفه من قوله أنه لا يريد بهذا القول إلا هدايتهم، وتقويمهم، وإصلاح فسادهم، وإبقاء النعمة عليهم.

فقد دمغهم بصفات في هذه الفقرة، إذ يثبت عليهم - بذكاء شديد - أنهم غير مهتدين، وأنهم معوجون يحتاجون إلي تقويم، وقد جعل من نفسه هاديا إياهم مقوما ما اعوج من أحوالهم، وأنهم مفسدون، وهو يبتغي إصلاح فسادهم، ثم هو يريد بعد ذلك إبقاء النعمة عليهم بهدايتهم، وتقويمهم، وإصلاح فسادهم، لأن الضال المفسد، المعوج تعود صفاته هذه وبالا عليه، لذا يريد ألا تؤثر صفاتهم السيئة علي حياتهم، فهو هدف نبيل، وغرض طيب، وإخلاص شديد.

فقد أثبت عليهم صفات بغيضة، وجعل من نفسه ناصحا أمينا، ومقوما، ومرشدا لهم كي يبعدوا أنفسهم عن هذه الصفات، فهل يقابلونه بالجحود والذم؟

***

***

ويقول: « ولئن أخطأنا سبيل إرشادكم فما أخطأنا سبيل حسن النية فيما بيننا وبينكم».

استمالة قلوبهم إليه، وعطفهم نحوه أنه إن - وهي للشك - أخطأ السبيل في إرشادهم، فما أخطأ حسن النية بينه وبينهم، وهذا أمر يشفع له إن أخطأ، فما بالنا أنه لم يخطئ.

يقيم الحجة عليهم بكل طريقة ممكنة، ويؤكد الصلة القوية بينهم وبينه.

***

ويقول: «ثم قد تعلمون أنا ما أوصيناكم إلا بما قد اخترناه لأنفسنا قبلكم، وشهرنا به في الآفاق دونكم».

يهيئ بني عمه لقبول قوله، وإبعادهم عن ذمه، إذ يؤكد أنه ما أوصاهم إلا بما أوصى نفسه به، واختاره لنفسه قبل أن يوصيهم باختياره لأنفسهم، ولم يختره لنفسه فحسب، وإنما شهر به في الآفاق، لذا فهو يرضاه لهم سبيلا.

وهو هنا يذمهم بذكاء، إذ يؤكد أنه اختار ما أوصاه به قبلهم، وشهر به في الآفاق دونهم، فليس بدعا أن يوصيهم به حتى يلحقوا به في هذا السبيل، وفي ذلك إشعار بأنهم لم يكونوا أهلا لهذا الإيصاء قبلا، وهو يرغب أن يلحقوا به بعد هذا الإيصاء.

***

ويقول: «فما كان أحقكم - في تقديم حرمتنا بكم - أن ترعوا حق قصدنا بذلك إليكم ، وتنبيها على ما أغفلنا من واجب حقكم، فلا العذر المبسوط عرفتم، ولا بواجب الحرمة قمتم».

ينبههم ويزجرهم بأنهم لم يراعوا حق الحرمة الذي كان يجب أن يراعوه، خاصة أنه راعاه قبلهم، وهذا وحده دليل على فساد نواياهم، وأنهم كان عليهم أن يفهموا قصده بقوله إليهم، وأنهم إن رأوا أنه قد أغفل واجب حقهم، كان عليهم أن ينبهوه إلي ذلك، ويتعجب لمسلككم أشد العجب، ويؤكد أنه يرعى حق حرمتهم لديه على عكس ما فعلوا، وما قصدوا من سود طوية، وفسادنية.

ثم يقرعهم بأنهم لم يعرفوا العذر الذي كان يجب أن يقدموه، ويستميحوه إياه، وأنهم لم يقوموا بأداء واجب الحرمة، وكل ذلك إثبات عليهم بصفاتهم، وأفعالهم.

***

ويقول: «ولو كان ذكر العيوب برا وفضلا لرأينا أن في أنفسنا عن ذلك شغلا».

يجبههم بأنهم قد شغلوا أنفسهم بذكر عيوبه، وليس ذكر العيوب برا وفضلا، فقد خلوا من البر والفضل.

ثم يتباعد عنهم، وينأى بنفسه عن ذكر العيوب، لأنه يجد شغلا في نفسه عن ذلك، وكأنه يقول لهم: إنكم لم تجدوا في أنفسكم شغلا عن ذكر عيوبي، أو إنكم لم تروا عيب أنفسكم، إذ تعاميتم عنها، لتشغلوا

أنفسكم بعيوبي يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: يبصر أحدكم القذى في عين أخيه، ويعمى عن الجذع في عينه.

***

ويقول: «وإن من أعظم الشقوة، وأبعد من السعادة، ألا يزال يتذكر زلل المعلمين، ويتناسى سوء استماع المتعلمين، ويستعظم غلط العاذلين، ولا يحفل بعمد المعذولين».

يجعل من نفسه معلما بارعا، ومنهم متعلمين لا يحسنون التعلم، وقد أورد هذا المعني عاما حين ذكر أن من أعظم الشقوة، وأبعد من السعادة تذكر زلل المعلمين على قلته وندرته، وتناسي سوء استماع المتعلمين على كثرته، وانتشاره، واستعظام غلط العاذلين، وعدم الحفل بقصد المعذولين، ونيتهم الطيبة.

***

***

ورسالة سهل بن هارون هذه إلي محمد بن زياد، وإلي بني عمه من آل زياد حين ذموا مذهبه في البخل، وتتبعوا كلامه في الكتب، تشكك في نسبتها إلي سهل بن هارون بعض رواه الأدب ونقدته في القديم والحديث كما في معجم الأدباء لياقوت الحموي.(١)

***

وقد عرض المحقق مشكورا جهده الكبير هذا الرأي، ثم أكد أن محمد بن زياد رجل معروف الصلة بسهل بن هارون، وقد شاب هذه الصلة شئ، ووقعت الجفوة وقتا ما بين الرجلين، ووقع محمد بن زياد في سهل بن هارون بلسانه.(٢)

***

ثم قال:

وليس يبعد أن يكون مما جعل يهجوه به،ويشنع به عليه،مذهبه ذلك في البخل،وأن فريقا من قومه قد ظاهره،فكتب سهل هذه الرسالة إليه وإليهم.

وقد جري الناس علي القطع بنسبة هذه الرسالة إلي سهل بن هارون، حتي اعتبرت الأثر الباقي له.(٣)

---

(١) معجم الأدباء ١١/٢٦٧، البخلاء ص ٢٦٨

(٢) زهر الآداب ٢/٢٥٩

(٣) أمراء البيان ١/٨٨١

***

ثم يقول:

والنصوص مظاهرة لهذا الأصل، وهو نسبة هذه الرسالة إلي سهل بن هارون، لا مانعة منه.

فهي تشهد أولا بأن لسهل بن هارون مذهبا اقتصاديا ارتضاه لنفسه، ودعا إليه، وكتب في ترويجه، والدفاع عنه.

ذكر ذلك ياقوت[1]، وابن النديم[2]، وأشار إليه الحصري[3].

***

وقال الجاحظ في البخلاء، في خلال كتابته عن أبي عبد الرحمن الثوري:

وكان يحتج للبخل، ويوصي به، ويدعو إليه، وما علمت أن أحدا جرد في ذلك كتابا إلا سهل بن هارون، وأبو عبد الرحمن هذا.[4]

ثم هي تشهد ثانيا بأن لسهل رسالة في مدح البخل.

ذكر ذلك ياقوت، وذكر أنها هي هذه التي جاءت في البخلاء.

---

(١) معجم الأدباء ٢٦٧/١١، البخلاء ص٢٦٩

(٢) الفهرست ص ١٧٤

(٣) زهر الآداب ٢٥٨/٢

(٤) البخلاء ص ١٠٥- ١٠٦

وكذلك نسبها إليه ابن عبد ربه[1]، وشهاب الدين النويري.

***

ثم يقول محقق الكتاب بفكر ثاقب:

أما أن الأصل في هذه الرسالة أنها صحيحة النسبة فمسألة فيها نظر.

ونحن حين نقول إن سهلا كتب هذه الرسالة فإنما نتجوز في العبارة، ونجاري ظاهر القول، وإلا فالأمر عندنا موضع نظر.

فمن واضع هذه الرسالة في حقيقة الأمر؟ أهو سهل بن هارون؟ أم الجاحظ؟

إن تحقيق هذا من أشد الأمور عسرا، وأبعدها عن اليقين، أو ما يقارب اليقين، لأن وسائلنا إلي هذا التحقيق قاصرة، إذكان من هذه الوسائل توافر النصوص، وليست كذلك.[2]

***

وأقول: إن المحقق لا يجزم بأنها لسهل بن هارون، أو للجاحظ نفسه.

وساق الأدلة التي تدعم الرأيين، ثم مال برأيه إلي القول بأن الرسالة للجاحظ، علي أنه أديب، مبدع، متفنن، منشئ.

---

(١) العقد الفريد ٢/٢٠٠

(٢) البخلاء ص ٢٦٨

وكتابه البخلاء كتاب فن، وأدب، ومظهر لعبقرية الجاحظ الفنية التي لا نكران لها، والتي تأبي إلا أن تولد، وتبدع، وتبتكر.

***

وأكد أن هذه الرسالة للجاحظ، نحلها لسهل، ووضعها عليه، وتكلم فيها بلسانه، كما يتكلم القصاص بلسان أبطالهم.

وأن موقفه فيها كموقفه في رسالة القيان مثلا، أو بعض الأحاديث الأخري في كتاب البخلاء، ودلائل نسبتها إليه قويه غالية ظاهرة.

وقد كتب الجاحظ هذه الرسالة بهدي مما كتب سهل، وعلي ما ينبغي أن تكون طريقته.

***

وابن النديم يقول في كتابه الفهرست:

وعمل - يقصد سهل بن هارون - للحسن بن سهل رسالة يمدح فيها البخل، ويرغبه فيه، ويسمنحه في خلال ذلك، فأجابه الحسن علي ظهر رسالته:

وصلت رسالتك، ووقفنا علي نصيحتك، وقد جعلنا المكافأة عنها قبول القول منك، والتصديق لك، والسلام.(١)

---

(١) الحيوان ص ٢٧٠

***

وقال ياقوت الحموي في كتابه معجم الأدباء: إن الجاحظ قد أورد هذه الرسالة في كتاب البخلاء.

***

وكذلك نسب هذه الرسالة إلي سهل بن هارون ابن عبد ربه في العقد الفريد، والنويري في نهاية الأرب.[1]

***

وكلام الأستاذ الكبير المحقق قضع، ويميل القلب إليه، لكن ثمت حاجة في ذهني تلح علي في إظهارها، وملخصها:

إذا كنا نعد الجاحظ مبدعا متفننا منشئا، فقد أضعنا أمرا آخر له أهميته، وله آثاره التي لا نستطيع إنكارها، وهو أن الجاحظ رواية ثقة أمين، ولو نظرنا بهذه النظرة إلي كل ما رواه الجاحظ لتشككنا في قدر كبير من تراثنا الأدبي.

***

وإذا كان الجاحظ مبدعا يستطيع أن ينشئ علي غرار ما ينشئ الأدباء، وينسب ما ينشئه هو لغيره.

---

(١) العقد الفريد ٦/ ٢٠٠، نهاية الأدب في فنون الأدب ٣/ ٣٢٦

فنحن نقول: إنه - نظريا- يستطيع أن يصنع ذلك، لكنه من الناحية العلمية لا يستطيع أن ينشئ لكل أديب ما يريد علي غرار أدبه، فليكن الأدب العربي كله من إنشاء المؤلفين، لا من إبداع من ينسبون إليه هذه الإبداعات الأدبية، وهذا أمر جد خطير الأثر.

***

وإذا كان الجاحظ قد نسب هذه الرسالة إلي سهل بن هارون، وأيده في هذه النسبة ياقوت الحموي، والحصري القيرواني، وابن النديم، وابن عبد ربه، والنويري، وغيرهم.

فلم لا نعتقد صدق هؤلاء جميعا في نسبة هذه الرسالة.

وإذا كان هؤلاء العلماء والنقاد ومؤرخوالأدب قد اعتمدوا علي رواية الجاحظ فحسب، فيكفينا هذا دليلا علي صدق الجاحظ في رواياته في كتبه كلها.

وما الذي كان يمنعه في تقديم هذه الرسالة مصدرة باسم آخر؟ أو ينسبها إلي مجهول، قال أحد الأدباء، أو الكتاب مثلا.

إذا كنا نري أن هذه الرسالة نسبها الجاحظ إلي سهل بن هارون، وهي من تأليفه، لأنه صنعها علي غرار ما يصنع سهل فإننا نكون قد ابتعدنا عن جادة الطريق.

***

لذا أقول: إنني أوافق علي نسبة هذه الرسالة إلي سهل بن هارون،
علي رغم وجاهة رأي أستاذنا الناقد الكبير.

وسأحاول أن آتي ببعض ما يؤكد رأيي هذا من كتب التراث

***

***

كتب شهاب الدين النويري تحت عنوان: احتجاج البخلاء، وتحسينهم للبخل على قبحه أخبارا، وأقوالا، وآراء في البخل ونقل أقوال أبي الأسود الدؤلي، ورجل من تغلب، ولقمان الحكيم، والجاحظ، والحزامي، ومحمد بن الجهم.

مما يعني ضمنا لو سلمنا بالرأي الأول أن هذه الأقوال كلها منحولة أيضا.

ثم يقول: ومن ذلك رسالة كتبها سهل بن هارون، وقد عيب عليه أمور من البخل، فاعتذر عنها، واحتج.[1]

***

وقد قارنت بين النص الذي ذكره الجاحظ، والنص الذي ذكره النويري فوجدت اختلافا في بعض الألفاظ، وزيادة ونقصان، في بعض الفقر، وفي بعض آيات القرآن الكريم، وفي بعض الأحاديث النبوية الشريفة.

كل ذلك يؤكد ما ذهبنا إليه من نسبة الرسالة إلى سهل بن هارون.

***

---

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب ٣/ ٣١٧- ٣٢٢

***

وقد روي الحصري القيرواني في كتابه زهر الآداب وثمر الألباب عن سهل بن هارون والرشيد ما يلي:

دخل سهل بن هارون علي الرشيد، وهو يضاحك المأمون.

فقال: اللهم زده في الخيرات، وأبسط له من البركات، حتي يكون في كل يوم من أيامه مربيا علي أمسه، مقصرا عن غده.

فقال له الرشيد: ياسهل، من روي من الشعر أحسنه، وأرصنه؟ ومن الحديث أفصحه، وأوضحه؟ إذا رام أن يقول لم يعجزه القول.

فقال سهل بن هارون: يا أمير المؤمنين، ما ظننت أن أحدا تقدمني إلي هذا المعني.

قال: بل أعشي همدان، حيث يقول:

رأيتك أمس خيـر بني لؤي وأنت اليوم خـير منك أمس

وأنت غدا تزيد الخير ضعفا كذاك تزيد سادة عبد شمس [1]

***

ونشر سهل بن هارون في هذه المحادثة فيه الكثير من سمات أدب رسالته سالفة الذكر.

---

(١) زهر الآداب وثمر الألباب ٢/ ٢٥٣

ففيها الفكر السديد، وترتيب الأفكار في الفقرة، وفيها بعض المحسنات التي وردت مقصودة، أو عفو الخاطر، لكنها غير متكلفة، إذ لم يهيئ لها مكانا في الجملة يكون غير ملائم، أو غير موافق لنسق التعبير، أي لم يفرضها علي الجملة.

***

وروي صاحب زهر الآداب أيضا فقرا من كلام سهل بن هارون للمأمون، كما حكي هذه القصة الجاحظ في البيان والتبين قال: كان المأمون استثقل سهل بن هارون، فدخل عليه يوما، والناس علي مراتبهم، فتكلم المأمون بكلام، ذهب فيه كل مذهب.

فلما فرغ من كلامه، أقبل سهل بن هارون علي الجمع، فقال:

مالكم تسمعون، ولا تعون، وتشاهدون، ولا تفقهون، وتفهمون، ولا تتعجبون، وتنظرون ولا تبصرون، وتتعجبون، ولا تنصفون؟ والله إنه ليفعل ويقول، ويفعل في اليوم القصير، ما فعل بنو مروان في الدهر الطويل، عربكم كعجمهم، وعجمكم كعبيدهم، ولكن كيف يعرف الدواء؟ من لا يشعر بالداء؟ فرجع المأمون فيه إلي الرأي الأول.[1]

***

وهذا الحديث يشبه إلي حد كبير في أسلوبه، وطريقته في التحسين اللفظي نظيره في الرسالة سالفة الذكر.

---

(١) زهر الآداب وثمر الألباب ٢/٢٨٢، البيان والتبين ١/٣١٨-٣١٩

والعجب من تسلسل فكره، مع رغبته في تحسين لفظه، تسمعون، ولا تعون، وتشاهدون، ولا تفقهون، وتفهمون ولا تتعجبون، وتتعجبون ولا تنصفون أسلوب فكري واضح على رغم هذا التحسين اللفظي.

وكذلك قوله: عربكم كعجمهم، وعجمكم كعبيدهم، يريد أن يستدل علي شئ، أو يثبت شيئا، فكان هذا الفكر أو الأسلوب المنطقي العقلي.

وكذلك قوله: كيف يعرف الدواء؟ من لا يشعر بالداء؟ احتجاج فكري، وأسلوب لا يقصد به مجرد إيصال معني معين، وإنما الاحتجاج لمعني مقصود.

***

ثم يقول صاحب زهر الآداب:

وكان أبو عمرو سهل بن هارون من أهل ميسان، نزل البصرة، فنسب إليها.

وهو القائل:

يا أهل ميسان السلام عليـ   كم طيبون الفرع والجذم

أما الوجوه ففضة مزجت   ذهبا وأيد سحـــة هضم

أتريد كلب أن أناسبهــا   قد قل من كليب العلم

أجهلت بيتا فوق رابيــة   فرع النجــوم كأنه نجم

كم بيت شعر وسط مجهلة بفنائه الجعلان والبهم [1]

***

وفي رأيي أن شعره لا يرقي إلي مرتبة نثره في الأسلوب والتعبير، وإن كانا يتشابهان في الفكر، وترتيبه، وكأن شعره نثر مرتب فكرا، فهو يعلي من شأن أهل ميسان بالحجة والدليل.

***

ويقول صاحب زهر الآداب وثمر الألباب أيضا:

وكان سهل شعوبيا، والشعوبية فرقة تتعصب علي العرب، وتنتقصها، وكان أبو عبيدة يرمي بهم.

وسهل ظريف عالم حسن البيان، وله كتب ظريفة صنفها معارضا للأوائل في كتبهم بما لا يستصوبه منهم، حتي قيل له: بزرجمهر الإسلام. [2]

وهذا يؤكد قولنا، لأن الرسالة فيها الرد علي بعض المزاعم، مما يشبه إلي حد كبير أسلوب كتاب الشعوبية، وشعرائها في الرد علي العرب، إذ إنهم أعملوا فكرهم في ذكر المسالب، والتدليل علي رأيهم بطرق شتي، من أهمها الفكر، والتمسك بالأدلة والبراهين، ولو لم تكن مبينة علي حقائق.

---

(١) زهر الآداب وثمر الألباب ٢/ ٢٨٢
(٢) زهر الآداب وثمر الألباب ٢/٢٨٢

***

ويقول صاحب زهر الآداب أيضا:

وقال - سهل بن هارون يمدح رجلا:

عدو تلاد المال فيما ينوبه منوع إذا ما منعه كان أحزما

مدلل نفس قد أبت غير أن ترى مكارم ما تأتي من العيش مغنما

هذا نظير قوله في كتاب ثعلة وعفرة، الذي عارض به كليلة ودمنة:

اجعلوا أداء ما يجب عليكم من الحقوق مقدما قبل الذي تجودون به من تفضلكم، فإن تقديم النافلة، مع الإبطاء عن الفريضة مظاهر على وهن العقيدة، وتقصير الروية، ومضر بالتدبير، مخل بالاختبار، وليس في نفع عمدته عوض من فساد المروءة، ولزوم النقيصة.

وكتابه هذا مملوء حكما وعلما.[1]

***

والأسلوب مع ترسله إلا أنه غير خال من الزينة، وفيه ترتيب فكر يماثل ما في رسالته سالفة الذكر، إذ إن تسلسل الأفكار، وإقامة الحجة، والكلام بإتيان الدليل، كل ذلك واضح في هذه الفقرة.

***

(١) زهر الآداب وثمر الألباب ٢/٢٨٣

***

ويقول صاحب زهر الآداب وثمر الألباب:

وسهل القائل:

تقسمني همان قد كسفا بالي
وقد تركا قلبي محلة بلبال
هما أذريا دمعي ولم تذر عبرتي
رهينة خدر ذات سمط وخلخال
ولا قهوة لم يبق منها سوى الذي
على أن تحاكي النور في رأس ذبال
تحلل منها جرمها وتماسكت
لها نفس معدوم على الزمن الخالي
ولكنما أبكي بعين سخينة
على حدث تبكي له عين أمثالي
فراق خليل لا يقوم به الأسى
وخلة حر لا يقوم بها مالي
فواحسرتي حتى متى القلب موجع
لنفر خليل أو تعذر إفضال
وما الفضل إلا أن تجود بنائل
وإلا لقاء الخل ذي الخلق العالي[1]

(١) زهر الآداب وثمر الألباب ٢/٢٨٣

***

والأبيات فيها فكر مرتب، وفيها لون من ألوان تأكيد القول النثري كما في البيت الأخير، وكأنه نثر، إذ ينطبق عليه قول الهمذاني حله عقد، إذ إن حله كعقده، فكونه شعر الا يبعد عن تكوينه نثرا.

وقد ذكر ما يحزنه، وبين أنه همان، هما فراق الخليل، وخلة الحرالتي لا يقوم بها المال. فالفضل- في نظره- الجود، ولقاء الخل ذي الخلق العالي، وليس يحزنه فراق الحبيبة، ولا الخمر.

وهو ما نؤكد أنه- أي الأسلوب- ينتمي إلي أسلوب معين، هو أسلوب سهل بن هارون، وهو ما ظهر واضحا في رسالته.

***

ويقول صاحب زهر الآداب وثمر الألباب:

وهو - يقصد سهل بن هارون - القائل:

إذا امرؤ ضاق عني لم يضيق خلقي ... من أن يراني غنيا عنه بالياس

لا أطلب المال كي أغني بفضلته ... ما كان مطلبه فقرا إلي الناس

وأنشد له الجاحظ يهجو رجلا:

من كان يعمر ما شادت أوائله ... فأنت تعمر ما شادوا وما سمكوا

ما كان في الحق أن تحوي فعالهم ... وأنت تحوي من الميراث ما تركوا[1]

---

(١) زهر الآداب وثمر الألباب ٢/٢٨٣

***

والأبيات كالأدب المنثور،وخاصة البيت الأخير من كل من المقطوعتين.

كما أن الأبيات تعتمد على إظهار الفكرة، وروح المنطق أكثر مما تعتمد على التعبير الجميل، أو الأسلوب الممتع، الذي يطرب له المتذوق، أو الناقد.

***

وقال محمد بن زياد الزيادي: وجدت علي سهل بن هارون في بعض الأمر، فهجوته.

فكتب إلي:

أما بعد، فالسلام على عهدك، وداع ذي ضن بك، في غير مقلية لك، ولا سلوة عنك، بل استسلام للبلوي في أمرك، وإقرار بالمعجزة في استعطافك، إلي أوان بينك، أو يجعل الله لنا دولة من رجعتك، والسلام.

وكتب في أسفل الكتاب:

إن تعف عن عبدك المسئ ففي   عفوك مأوي للفضل والمنن

أتيت ما أستحق من خطأ   فجد بما تستحق من حسن[1]

---

(1) زهر الآداب وثمر الألباب ٢/٢٨٤

***

ونثره في هذه الرسالة يشبه إلي حد كبير نثره في رسالته إلي محمد بن زياد في الأسلوب، والمحسنات البديعية وترتيب الجمل والفقرات.

إذ يقرئه السلام علي عهده الماضي من الصداقة والود، وداع من يضن به، ويتمسك، في غير قلي وبغض له، ولا سلوة عنه، ولكن استسلام للمصيبة في أمره، مع إقرار بالعجز عن إستعطافه ليرجع إلي وده، سلاما إلي نهاية البين، أو رجوعه إلي صداقته ووده.

والأفكار فيها تسلسل منطقي واضح يؤكد ويلح أنه هو أسلوب سهل بن هارون، أو يؤكد الخط الذي ننسبه إلي سهل بن هارون، وهو ما ظهر واضحا في رسالته.

يضاف إلي هذا ما ظهر من المحسنات عفو الخاطر، أو قصدا لكنها المحسنات التي لم يقحمها سهل في تعبيره.

***

أما البيتان اللذان كتبهما في أسفل الكتاب، فقد اعتمد فيهما علي الفكر اعتمادا واضحا، وذلك أنه جعل كل واحد منهما قد أتي بما يستحق، وأعلن عن نفسه أنه أتي بما يستحق من الخطأ، ويلتمس منه أن يجود بما يستحق من حسن.

يقصد بذلك أن يقول: إنني أخطأت وفقا لما أستحق من مكانه، فجد

أنت بالإحسان الذي يوافق ما تستحق من مكانه، أي مكانتي ضئيلة تلائم ما قدمت من خطأ، ومكانتك عالية تناسب ما ستقدمه من حسن، حين تجود علي به.

وهو أسلوب فكري جميل، ومعنى رائع.

***

***

وكتب الثعالبي في كتابه ثمار القلوب في المضاف والمنسوب عن سهل بن هارون، فقال:

كان أبو الهذيل سار إلي سهل بن هارون الكاتب، وكان خاصا بالحسن بن سهل، يسأله الكلام في أمره، ويستعينه علي إضاقة دفع إليها.

فسار سهل إلي الحسن، فكلمه، وقال له:

قد عرفت أيها الأمير حال أبي الهذيل، ومحله، وقدره في الإسلام، وأنه متكلم قومه، والراد علي أهل الإلحاد، وقد فزع إليك لإضاقة هو فيها.

فوعده أن ينظر له بما يصلح حاله، فلما انصرف سهل إلي منزله بعثه لؤم طبعه، وسوء خلقه علي أن كتب إلي الحسن بن سهل:

إن الضمير إذا سألتك حاجة ... لأبي الهذيل خلاف ما أبدي

فامنحه روح اليأس ثم امدد له ... حبل الرجاء بمخلف الوعد

وألن له كنفا ليحسن ظنه ... في غير منفعة ولا رفد

حتي إذا طالت شقاوة جده ... بعنائه فاجبهه بالرد

فلما قرأ الحسن رقعته، وقع فيها: هذه - لك الويل - صفتك، لا صفتي، وأمر لأبي الهذيل بألف دينار.

***

ثم يقول أيضا:

وكان سهل بن هارون بن راهبون الكاتب الميساني كاتبا، شاعرا، بليغا، حكيما، ولكنه كان مفرط البخل بماله، وجاهه، ضاربا في اللؤم والدناءة بسهم فائز.[1]

***

والملاحظ أن سهل بن هارون يرسم بأبياته الطريق الذي يسلكه الحسن بن سهل حتي لا يمنح أبا الهذيل شيئا، وهو في معناه يساير ما في الرسالة من بخل سهل بن هارون، ودفاعه عن هذا البخل.

أيضا نجد التسلسل المنطقي، والفكر المرتب الذي أودعه الحسن هذه الأبيات دليلا آخر علي النهج نفسه الذي انتهجه في رسالته، امنحه روح اليأس، امدد له حبل الرجاء بالوعد المكذوب، ألن له كنفا في غير منفعة ولا عطاء، ثم اجبهه بالرد.

رسم له الطريق واضحا ليمنعه الجود.

***

ويضيف صاحب ثمار القلوب في المضاف والمنسوب إلي هذه القصة نقدا آخر لفقرة من فقر سهل بن هارون في القلم.

---

(١) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ص١٧٢

إذ يقول:

وليس يعجبني قول سهل بن هارون: القلم أنف الضمير، إذا رعف أعلن أسراره، وأبان آثاره.[1]

***

وهو هنا يعيب قوله: القلم أنف الضمير.

وليس يهمنا أن نقف مع صاحب ثمار القلوب الذي لم يجد رابطة قوية بين الأنف، وكل من القلم والضمير.

لكن الأسلوب هنا الذي انتهجه سهل بن هارون يماثل أسلوبه في الرسالة، الذي يغلب الجانب الفكري، مع بعض الزينة اللفظية التي أستطيع أن أؤكد أنها غير متكلفة، أو مقحمة علي الأسلوب.

***

(١) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ص ٣٣٠

***

وذكر الجاحظ سهل بن هارون كثيرا في كتابه البيان والتبين في غير موضع منه، قال:

ومن الخطباء الشعراء الذين جمعوا الشعر والخطب، والرسائل الطوال، والقصار، والكتب الكبار المجلدة، والسير الحسان المولدة، والأخبار المدونة: سهل بن هارون بن راهيبون الكاتب، صاحب كتاب ثعلة وعفرة، في معارضة كتاب كليلة ودمنة، وكتاب الإخوان، وكتاب السائل، وكتاب المخزومي والهذلية، وغير ذلك من الكتب.[1]

يؤكد أنه صاحب الأخبار المدونة، والرسائل الطوال، والقصار، مما يؤكد معرفة الجاحظ بأخباره، ورسائله، فلا ننفي ما رواه من رسالته.

***

وعرف المحقق به فقال:

هو أبو عمرو سهل بن هارون، أصله من دستميسان، من بلاد فارس، انتقل إلي البصرة، ولقي علماءها، وأفاد منهم علما، وأدبا، ثم اتصل بالمأمون، فحظي عنده، وتولي له خزانه الحكمة، وهي دار الكتب، وكان كاتبا بليغا ،جمع بين الحكمة والأدب،وله شعر جيد، وكان شعوبي المذهب، شديد العصبية علي العرب،وكان يرمي بالبخل،وله فيه حكايات، ونوادر.

---

(١) البيان والتبين ١/٦٨-٦٩

ثم أورد له شعرا ذكرناه آنفا، أوله قوله:

تقاسمني همان قد كسفا بالي وقد تركا قلبي محله بلبال

إلي آخر الأبيات.

ومن شعره قوله:

إذا امرؤ ضاق عني لم يضق خلقي من أن يراني غنيا عنه بالياس

***

ثم يقول:

وله كتب كثيرة، ورسائل جيدة، وفوائد جمة، تدل علي فضل كبير، وحكمة بالغة، مات في عهد المأمون.[1]

والمحقق يؤكد رأينا في رسالة سهل بن هارون، وأنه يجمع بين الحكمة والأدب، وأنه شعوبي، ويرمي بالبخل، وله فيه حكايات ونوادر.

***

ثم يروي الجاحظ في كتابه البيان والتبين قول سهل بن هارون:

لو عرف الزنجي فرط حاجته إلي ثناياه في إقامة الحروف، وتكميل جميل البيان، لما نزع ثناياه.[2]

---

(١) هامش كتاب البيان والتبين ١/ ٦٩

(٢) البيان والتبين ١/ ٧٥

***

فهل يكون الجاحظ هو القائل هذا القول، ونحله سهل بن هارون؟

أشك في ذلك كثيرا، بل أكاد أجزم أن هذا القول لسهل بن هارون، فإذا كان الجاحظ يروي عن سهل مثل هذا القول، فلم لا يروي عنه الرسالة المشهورة؟

***

ثم يروي الجاحظ في باب البيان قول سهل بن هارون:

العقل رائد الروح، والعلم رائد العقل، والبيان ترجمان العلم.[1]

***

وهذه السمة العقلية الفكرية هي نفسها التي تتضح في أسلوب رسالته المشهورة، فالبيان ترجمان العلم الذي هو رائد العقل، الذي هو رائد الروح، فالبيان ترجمان الروح، وإن شئت فقل: البيان ترجمان العلم، والعقل، والروح.

***

ثم يكتب الجاحظ بعد ذلك في تعريفات البلاغة، فيروي لسهل بن هارون، فعرض آراء الفارسي، واليوناني، والرومي، والهندي.

---

(١) البيان والتبين ٩٢/١

ثم قال:

وخالف عليه سهل بن هارون- وكان سهل في نفسه عتيق الوجه حسن الإشارة، بعيدا من الفدامة، معتدل القامة، مقبول الصورة، يقضي له بالحكمة قبل الخبرة، وبرقة الذهن قبل المخاطبة، وبدقة المذهب قبل الامتحان، وبالنبل قبل التكشف، فلم يمنعه ذلك أن يقول ما هو الحق عنده، وإن أدخل ذلك علي حاله النقص.[1]

***

حكم له الجاحظ هنا بدقة المذهب، وهو ما يؤكد أنه يختار المذهب الفكري، والسلوكي، ويحتج له، ويقنع به، ولعل الجاحظ بهذه العبارة يقصد المذهب الديني الذي رمي به، والمذهب السلوكي في الحياة.

فالمذهب الديني الشعوبية، والمذهب السلوكي هو البخل.

***

ويروي الجاحظ عن سهل بن هارون قوله:

وكان سهل بن هارون يقول: سياسة البلاغة أشد من البلاغة كما أن التوقي علي الدواء أشد من الدواء.[2]

---

(١) البيان والتبين ١/١٠٢، ١٠٣
عتيق الوجه: جميل، الفدامة: الغباوة وثقل الروح.
(٢) البيان والتبين ١/٢٠٤

***

رقي الفكر، والذهن المتوقد من وراء هذه الفقرة، ونحن نؤكد أنها تنتمي إلي الخط نفسه الذي اختطه سهل بن هارون لنفسه في أسلوبه.

***

وروي الجاحظ قوله[1]: وأنشدت سهل بن هارون قول سلمة بن خرشب الأنماري، وشعره الذي أرسل به إلي سبيع التغلبي، في شأن الرهن التي وضعت علي يديه، في قتال عبس وذبيان.

فقال سهل بن هارون: والله لكأنه قد سمع رسالة عمر بن الخطاب رضي الله تعالي عنه، إلي أبي موسي الأشعري، في سياسة القضاء وتدبير الحكم.

والقصيدة قوله:

أبلغ سبيعا وأنت سيدنا	قدما وأوفي رجالنا ذمما
أن بغيضا وأن إخوتها	ذبيان قد ضرموا الذي اضطرما
نبئت أن حكموك بينهم	فلا يقولن بئس ما حكما
إن كنت ذا خبرة بشأنهم	تعرف ذا حقهم ومن ظلما
وتنزل الأمر في منازله	حكما وعلما وتحضر الفهما

(١) البيان والتبين ١/٢٤١ - ٢٤٢

ولا تبالي من المحق ولا الـ	مبطــل لا إلــة ولا ذمــا
فاحكم فأنت الحـكيم بينهم	لن تعدموا الحكم ثابتا صتمـا
واصدع أديم الســواء بينهم	علي رضا من رضي ومن رغما
إن كان مالا ففض عدتـه	مالا بمــال وإن دما فدمــا
حتي تري ظاهر الحكومة مثـ	ـل الصبح جلي نهاره ظلما
هذا وإن لم تطق حكـومتهم	فانبذ إليهم أمــورهم سلما[1]

***

وأنا أري أنه قدفـهم مـضـمـون الشـعـر فـهـمـا دقـيـقـا، ثم قارن بين هذا المضمون ورسالة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلي أبي موسي الأشعري رضي الله عنه، فوجد أنهما قريبان في الأفكار والمعاني.

***

أما رسالة عـمر بن الخطاب رضي الله عنه إلي أبي مـوسي الأشـعري رضي الله عنه فهي:[2]

أما بعد، فإن القضاء فريضة محكمة، وسنة متبعة، فافهم إذا أدلي إليك الخصم، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له.

---

(١) بغيض وذبيان: من قبائل غطفان، إلة: عهد وحلف، الصتم: كما قال الجاحظ، الصحيح القوي، الشديد، الأديم: الجلد، رغم: كره.

(٢) العقد الفريد ١/ ١٠٠-١٠٣، صبح الأعشي ١٠/١٩٣، نهاية الأدب ٦/٢٥٧، البيان والتبين ٢/٢٤

آس بين الناس في مجلسك، ووجهك، حتي لا يطمع شريف في حيفك، ولا يخاف ضعيف من جورك.

البينة علي من ادعي، واليمين علي من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا أحل حراما، أو حرم حلالا.

ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس، ثم راجعت فيه نفسك، وهديت فيه لرشدك أن ترجع عنه، فإن الحق قديم، والرجوع إليه خير من التمادي علي الباطل.

الفهم فيما يتلجلج في صدرك مما لم يبلغك به كتاب الله، ولا سنة نبيه صلي الله عليه وسلم.

واعرف الأمثال والأشباه، وقس الأمور عند ذلك، ثم اعمد إلي أحبها عند الله ورسوله، وأشبهها بالحق.

واجعل للمدعي أمدا ينتهي إليه، فإن أحضر بينة أخذت له بحقه، وإلا وجهت عليه القضاء، فإن ذلك أجلي للعمي، وأبلغ في العذر.

والمسلمون عدول بعضهم علي بعض، إلا مجلودا في حد، أو مجربا عليه شهادة زور، أو ظنينا في ولاء، أو قرابة، أو نسب، فإن الله عز وجل تولي منكم السرائر، ودر أعنكم بالبينات والأيمان.

ثم إياك والتأذي بالناس، والتكر للخصوم في مواطن الحقوق التي يوجب الله عز وجل بها الأجر، ويحسن بها الذخر، فإنه من تخلص نيته

فيما بينه وبين الله، ولو على نفسة يكفه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزين للناس بما يعلم الله خلافه منه هتك الله ستره.

***

والعلاقة واضحة بين الأبيات، وهذه الرسالة في المعني مما يدل علي دقة فهم سهل بن هارون، وعلمه، ونقده.

***

وروي الجاحظ عن سهل بن هارون هذه الرواية:

قال سهل بن هارون: دخل قطرب النحوي علي المخلوع- يقصد محمدا الأمين بن هارون الرشيد، وكان ذلك قبل أن يخلع.

فقال قطرب: يا أمير المؤمنين، كانت عدتك أرفع من جائزتك، وهو يتبسم.

قال سهل: فاغتاظ الفضل بن الربيع- وزيره- فقلت له: إن هذا من الحصر والضعف، وليس هذا من الجلد والقوة، أما تراه يفتل أصابعه، ويرشح جبينه.

***

وفي رأيي أن سهل بن هارون احتال لجلب الاعتذار لقطرب، في أنه محصور ضعيف عن هذه المواقف، التي يلقي فيها الخليفة العباسي،

وليس من الجلد والقوة، لأنه أخطأ في قوله للأمين: كانت عدتك أرفع من جائزتك.

وليس هذا من الكلام الذي يوجه للخليفة، أي إنه يعد ولا ينجز وعده، بمثل ما وعد، وهذا أمر معيب، وخاصة من خليفة.

فاحتال له سهل بن هارون، وأتي بدليل من الموقف نفسه بأنه يفتل أصابعه، ويرشح جبينه، ولو كان قد اعتاد هذا الموقف ما صنع ذلك.

وهذا الاعتذار دليل علي براعة سهل بن هارون، وحسن بديهته، وسرعة تنبهه لمواقع الكلام، ومخاطبة ذوي الشأن العظيم.

***

ويقول الجاحظ في كتابه البيان والتبين:[١]

ونحن لا نستطيع أن نعلم أن الرسائل التي في أيدي الناس للفرس، أنها صحيحة، غير مصنوعة، وقديمة غير مولدة، إذا كان مثل ابن المقفع، وسهل بن هارون، وأبي عبيد الله، وعبد الحميد، وغيلان، لا يستطيعون أن يولدوا مثل تلك الرسائل، ويصنعوا مثل تلك السير.

***

والجاحظ هنا نراه متثبتا صحيح الرواية، يؤكد أن هناك من يولد

---

(١) البيان والتبين ٢٦/٣

القول، وهو هنا يؤكد مذهبه في التثبيت من رواياته، والتأكد من صدق ما يرويه.

فهل يكون الجاحظ على هذه الصورة من التثبت، والبعد عن الصنع والتوليد، ويروي في الوقت ذاته روايات غير مؤكدة عن سهل بن هارون، أو يؤلف قولا وينحله سهل بن هارون؟

أشك في ذلك تمام الشك.

***

***

في الفصل الذي عقده الجاحظ لأهل خراسان، قال:

نبدأ بأهل مرور بقدر ما خصوا به.

ثم يحكي بخل أهل مروالذي خصوا به، ومن حكاياته هذه الحكاية:

وزعموا أنهم - يقصد أهل مرو - ربما ترافقوا وتزاملوا، فتناهدوا وتلازقوا في شراء اللحم، فإذا اشتروا اللحم قسموه قبل الطبخ، وأخذ كل إنسان منهم نصيبه، فشكه بخوصة، أو بخيط، ثم أرسله في خل القدر، والتوابل، فإذا طبخوه تناول كل إنسان خيطه، وقد علمه بعلامة، ثم اقتسموا المرق، ثم لا يزال أحدهم يسل من الخيط القطعة بعد القطعة حتي يبقي الحبل، لا شئ فيه، ثم يجمعون خيوطهم ، فإن أعادوا الملازقة، أعادوا الخيوط، لأنها قد تشربت الدسم، فقد رويت ، وليس تناهدهم من طريق الرغبة في المشاركة، ولكن لأن بضعة كل واحد منهم لا تبلغ مقدار الذي يحتمل أن يطبخ وحده، ولأن المئونة تخف أيضا، والحطب، والخل، والثوم، والتوابل، ولأن القدر الواحدة أمكن من أن يقدر كل واحد منهم علي قدر، وإنما يختارون السكباج لأنها تبقي علي الأيام، وأبعد من الفساد.[1]

***

---

(١) البخلاء، ص٢٣

***

أما مرو فهي كبري مدن خراسان، وإحدي المدن التجارية الكبري فيها، وقد اشتهرت ثيابها المروية التي كانت تعد من أجود أنواع الثياب.

وكان أهل مرو موصوفين بالحرص، حتي وصفوا بالبخل، يقول الهمذاني عن أهل مرو:

مياسير مرو من يجود لضيفه	بكرش فقد أمسي نظير الحاتم
ومن رش باب الدار منهم بغرفة	فقد كملت فيه خصال المكارم
يسمون بطن الشاة طاووس عرسهم	وعند طبيخ القوم ضرب الجماجم
فلا قدس الرحمن أرضا وبلدة	طواويسهم فيها بطون البهائم

يقول محقق كتاب البخلاء الدكتور طه الحاجري: ومع ذلك فالهمذاني وياقوت يدفعان عن المراوزة تهمة البخل في حماسة وقوة.[1]

والحكاية التي رواها الجاحظ تدل علي بخلهم الشديد ، وهو لم يحكها أصلا، ولم يحك معها نظيراتها إلا ليشبت عليهم البخل الذي وصفوا به، أيضا يريد أن يتهكم ويسخر بأسلوبه السهل البسيط، وكأنه يخاطب بهذا الحديث البيئات الثقافية المختلفة، فهو حريص علي أن يكون تعبيره سهلا، وألفاظه بسيطة، وتراكيبه مألوفة، وأسلوبه يقصد به الإفهام فحسب، ولا يقصد إلي أبعد من ذلك، وهو أسلوب صعب في التأليف،

(١) البخلاء، ص ٢٨١-٢٨٢

لكنه سهل في الفهم، والكتابة يبدأها الكاتب بالتعقيد في أول أمره، وإذا لم يتمكن من أدواته، أما أديب مثل الجاحظ فقد تملك زمام لغته، وقرأ، وحفظ، وفهم أدب العرب شعرهم ونثرهم، ونال هذا الرحيق العذب ليقدمه لعشاق العربية عسلا مصفي،

***

والسكباج التي ذكرت في هذه الحكاية عرفها المحقق بقوله: إن السكباج مرق يعمل من اللحم والخل، معرب سكبا، وهو مركب من سك، أي خل، ومن با، أي طعام.

ولعله من أجل ذلك كان يسمي الخلية والخللة، وأن السذاب كان يدخل في أفاويقها، كما كانت تصبغ بالزعفران.(١)

وفي كتاب ثمار القلوب في المضاف والمنسوب مخ الأطعمة، يقال للسكباج: مخ الأطعمة، وسيد المرق، ويقال إذا طبخت اللحم بالخل، فقد ألغيت من المعدة ثلث المئونة.

قال بعض الخلفاء لجارية له يعرض بها: إلي كم سكباج؟ فقالت: ياأمير المؤمنين، هو مخ الأطعمة، لا يكره بارده، ولا يمل حاره، بل يستطاب في الحضر، ويتزود منه في السفر، ولا يؤثر عليه الضيف، في الشتاء والصيف، فضحك، وأمر لها بصلة.(٢)

---

(١) البخلاء ص٢٨٨-٢٨٩، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء البلغاء ٢/٢٩٢

(٢) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ص ٦١٢

***

أما التناهد فهو إخراج كل واحد من الرفقة نفقته على قدر نفقه صاحبه، والمخرج يقال له النهد، بالكسر.

والحكاية عجيبة تدل علي بخل شديد، وحرص أشد، كما تدل علي بعد التفكير إذ يصنعون هذه الحيلة العجيبة لإنضاج اللحم، والحرص علي المرق، وعدم خلط بضعة كل منهم ببضعة صاحبه، وكذلك أمر تكرار هذا العمل مع بقاء الخيوط، لأنها تشربت الدهن، وكذلك هذه العلامات في كل خيط أمر عجيب، والتعليل الذي أورده الجاحظ لم يترك فيه مجالا لقائل آخر، فقد استقصي الأسباب والدوافع التي تضطرهم إلي هذا العمل، وهي دوافع نفسية، ومادية.

***

***

ويحكي الجاحظ حكاية]خري عن أهل خراسان يقول فيها:

حدثني أبو إسحق إبراهيم بن سيار النظام، قال: قلت مرة لجار كان لي، من أهل خراسان: أعرني مقلاكم، فإني أحتاج إليه، قال: قد كان لنا مقلي، ولكنه سرق، فاستعرت من جارلي آخر، فلم يلبث الخراساني أن سمع نشيش اللحم في المقلي، وشم الطباهج، فقال لي، كالمغضب: ما في الأرض أعجب منك، لو كنت خبرتني أنك تريده للحم، أو لشحم لوجدتني أسرع إليك به، إنما خشيتك تريده للباقلي، وحديد المقلي يحترق إذا كان الذي يقلي فيه ليس بدسم، وكيف لا أعيرك إذا أردت الطباهج، والمقلي بعد الردمن الطباهج أحسن حالا منه وهو في البيت.[1]

***

والطباهج: لفظ معرب من الفارسية تباهه، وهو طعام من بيض، وبصل، ولحم.

وقيل: إنه الكباب، والعرب تسميه الصفيف.[2]

***

---

(١) البخلاء ص٢٣

(٢) البخلاء ص٢٨٩، شفاء الغليل ص١٢٩

***

ويحكي الجاحظ حكاية أخري من حكايات البخلاء، فيقول:[1]

وحدثني إبرهيم بن السندي، قال: كان علي ربض الشاذروان شيخ لنا، من أهل خراسان، وكان مصححا بعيدا من الفساد، ومن الرشا، ومن الحكم بالهوي، وكان حفيا جدا، وكذلك كان في إمساكه، وفي بخله، وتدنيقه في نفقاته، وكان لا يأكل إلا مالابد منه، ولا يشرب إلا مالابد منه، غير أنه إذا كان في غداة كل جمعة، حمل معه منديلا، فيه جرذقتان، وقطع لحم سكباج مبرد، وقطع جبن، وزيتونات، وصرة فيها ملح، وأخري فيها أشنان، وأربع بيضات ليس منها بد، ومعه خلال، ومضي وحده، حتي يدخل بعض بساتين الكرخ، وينظر موضعا تحت شجرة، وسط خضرة، وعلي ماء جار، فإذا وجد ذلك جلس، وبسط بين يديه المنديل، وأكل من هذا مرة، ومن هذا مرة، فإن وجد قيم ذلك البستان رمي إليه بدرهم، ثم قال: اشترلي بهذا، أو أعطني بهذا رطبا، إن كان في زمان الرطب، أوعنبا، إن كان في زمان العنب، ويقول له: إياك إياك أن تحابيني، ولكن تجودلي، فإنك إن فعلت لم آكله، ولم أعد إليك، واحذر الغبن، فإن المغبون لا محمود، ولا مأجور، فإن أتاه به أكل كل شئ معه، وكل شئ أتي به، ثم تخلل، وغسل يديه، ثم تمشي مقدار مائة خطوة، ثم يضع جنبه، فينام إلي وقت الجمعة، ثم ينتبه، فيغتسل، ويمضي إلي المسجد، هذا كان دأبه كل جمعة.

---

(١) البخلاء، ص٢٤ - ٢٥

قال إبراهيم: فبينا هو يوما من أيامه يأكل في بعض المواضع، إذ مر به رجل، فسلم عليه، فرد السلام، ثم قال: هلم، عافاك الله، فلما نظر إلي الرجل قد انثني راجعا ، يريد أن يطفر الجدول، أو يعبر النهر، قال له: مكانك، فإن العجلة من عمل الشيطان، فوقف الرجل، فأقبل عليه الخراساني، وقال: تريد ماذا؟ قال: أريد أن أتغدي، قال: ولم ذاك، وكيف طمعت في هذا، ومن أباح لك مالي؟ قال الرجل: أوليس قد دعوتني، قال: ويلك، لو ظننت أنك هكذا أحمق ما رددت عليك السلام، الآين فيما نحن فيه أن تكون، إذا كنت أنا الجالس، وأنت المار، أن تبدأ أنت فتسلم، فأقول أنا حينئذ مجيبا لك، وعليكم السلام، فإن كنت لا آكلا شيئا سكت أنا، وسكت أنت، ومضيت أنت، وقعدت أنا علي حالي، وإن كنت آكلا فها هنا آين آخر، وهو أن أبدأ أنا فأقول: هلم، وتجيب أنت فتقول: هنيئا، فيكون كلام بكلام، فأما كلام بفعال، وقول بأكل، فهذا ليس من الإنصاف، وهذا يخرج علينا فضلا كبيرا.

قال: فورد علي الرجل شئ لم يكن في حسابه.

فشهر بذلك في تلك الناحية، وقيل له: قد أعفينا من السلام، ومن تكلف الرد، قال: مابي إلي ذلك حاجة، إنما هو أن أعفي أنا نفسي من هلم، وقد استقام الأمر.

والحكاية فيها طرافة-لا شك-لكن هل يتحمل وقت غداة يوم الجمعة كل هذا، طعام، ونوم؟

وقد فصل الجاحظ الحديث عن حال هذا الشيخ الخراساني، من حيث صحة الجسد، والعقل، ووصفه بالبخل، ثم حكي قصته، والعجيب أن هذا الرجل البخيل أكل طعاما كثيرا، فقد كان طعامه جرذقتين، وقطع لحم سكباج مبرد، وقطع جبن، وزيتونات، وملحا، وأشنانا، وأربع بيضات، ورطبا، أو عنبا، مما يدل علي أنه كان بخيلا علي غيره، كريما علي نفسه، ونحن نقدر للجاحظ عقله العظيم لأنه يتحدث عن البخلاء علي أنفسهم أو علي غيرهم، وإنما أردنا التوضيح.

ورأينا تقتير الشيخ الخراساني في شراء العنب، أو الرطب بدرهم واحد، وربما كان ذلك كثيرا.

لكن هذا الشيخ الخراساني عندما أراد أن ينصح قيم البستان، فنهاه أن يحابيه، وأمره أن يجود عليه، وفي رأيي أن النهي الأول توطئة لمطلبه في الأمر الثاني، فهو يريد جوده، والمؤدي أنه سوف يصل إلي ما يريد، فلا معني للنهي الأول، خاصة أنه ذكره بالغبن، فكأنه يؤكد ما أمره به، وهو أن يجود عليه.

ولما دعا الشيخ الخراساني الرجل للطعام، وأراد الرجل تلبية دعوته هنا تحرك الشيخ الخراساني بسرعة، واستطاع أن يلغي هذه الدعوة إلي الطعام، وعلم الرجل النظام الأمثل، في نظره ورأيه وتقديره، في مثل هذه المواقف.

وانتهي الموقف بمعرفة الناس ذلك فأعفوه من السلام وتكلف الرد، فما كان منه إلا أن قرر إعفاء نفسه من قول: هلم.

أما ربض الشاذروان فهو موضع من مواضع بغداد ، يؤكد محقق كتاب الحيوان أن الشاذروان عمل هندسي يقصد به تنظيم الري.[1]

وقد ذكر الجاحظ الآين بمعني الآن، أو بمعني آن أوحين، أو وقت.

والجرذقتان، مثني الجرذقة، من كرده، معرب الجردق، والجرذقة والجرذق، وهو الرغيف، أو الرغيف الغليظ، أو الخبز الغليظ، وقد ذكره أبو النجم في شعره، في قوله:

كان بصيرا بالرغيف الجردق[1]

***

(١) البخلاء ص ٢٩٠ - ٢٩٢

الفصل الخامس

نظرات نقدية في المقامة البغدادية للهمذاني

***

عرض وتحليل:

بدأ الهمذاني المقامة البغدادية بتمهيد، يهيئ به مسرح الأحداث، على النحو التالي:

- اشتهيت الأزاذ، وأنا ببغداذ، وليس معي عقد على نقد.

- فذكر الغرض أولا، وهو اشتهاؤه الأزاذ، وذكر مكان الأحداث، وهو بغداذ، ثم ذكر إشارة واضحة لما سوف يصنع، وهو أنه ليس معه عقد على نقد، يقصد أنه يريد أن يطعم الأزاذ بأية طريقة، أو وسيلة، ساعدا أن يدفع ثمنا للأزاذ، يقصد أنه سوف يصنع حيلة، أو هو تمهيد لما حدث فعلا من أحداث، في هذه المقامة، تقوم على الخداع، نظرا لاشتهائه الأزاذ، وليس معه عقد على نقد، ليشتري هذا الأزاذ الذي يشتهيه.

***

- ولقد كنا نقرأ المقامة، ويدور بخلدنا ماذا سيصنع الراوية؟، وأغلب ظننا أنه سيلقى البطل، أبا الفتح الإسكندري، لينال ضالته المنشودة، لكن الهمذاني في هذه المقامة قد أبى إلا أن يصنع دورا أكبر للراوية، أقصد دور البطل، أو دور أبي الفتح الإسكندري.

***

- وفي هذا التمهيد بدأ الراوية تحركه، ليصل إلى لب الأحداث،

ويحركها كما شاء هو، أو كما شاء له الهمذاني، فهيأ الهمذاني للراوية الغرض، والباعث الذي يحركه إلي مسرح الأحداث.

***

- ولا يخفي أن تعريف الأزاذ للعهد، فهو الأزاذ المعهود المعروف.

- نقد، نكرة للدلالة علي العموم والشمول، أي ليس معي عقد علي أي نقد، أو للتقليل، أي وليس معي عقد علي نقد، ولو كان قليلا.

- وقد ذكر بغداد، بدال مهملة، ثم ذال معجمة، لتساير السجع بين الجملتين، اشتهيت الأزاذ، وأنا ببغداذ.

- ولا يخفي أن المقامة قد سميت باسم المكان، أو مسرح الأحداث الذي حدثت فيه المقامة، وقد كانت هذه التسمية، باسم المكان اتجاها عاما عند الهمذاني، فقد سمي عددا غير قليل من مقاماته بأسماء الأماكن التي حدثت فيها أحداث هذه المقامات.

***

- وها نحن أولاء نصل إلي مسرح الأحداث، فنجد ما يلي علي لسان الراوية، حيث يقول:

- فخرجت أنتهز محاله، حتي أحلني الكرخ، فإذا أنا بسوادي، يسوق بالجهد حماره، ويطرف بالعقد إزاره، فقلت: ظفرنا والله بصيد.

***

- خرج الراوية إلي محال الأزاذ، ينتهز فرصة، أو غنيمة، حتي أحله الكرخ، أي أحله الأزاذ الكرخ.

- فإذا بالمفاجأة، فإذا هو بسوادي، قد حل الكرخ، يسوق هذا السوادي حماره بالجهد، ويطرف إزاره بالعقد، هنا صار في مسرح الأحداث شخصان: هما الراوية، والسوادي.

***

- أما السوادي فهو يسوق حماره، لأنه ساذج، يصنع ذلك رفقا بالحمار، وخوفا عليه، ويطرف الإزار بالعقد، وهو ضالة الراوية المنشودة، ها هو ذا يري عقدا علي نقد، وهو خالي الوفاض، صفر من النقد، يشتهي الأزاذ، فليكن هذا السوادي هو ألعوبته، ولينصب شباكه عليه، وليوقعه في حبائله.

***

- ثم كان الأثر سريعا لدي الداهية الأريب، وهو الراوية، حين رأي السوادي، ومعه النقد في العقد، فقال: ظفرنا والله بصيد، لثقته في حيله، وتفكيره، وعقله، وتحققه من سذاجة السوادي.

***

- والتعبير بإذا يدل علي المفاجأة، وهي سارة قطعا للراوية.

- السوادي: نسبة إلي السواد، وهو ريف العراق، وهم مشهورون بالسذاجة.

- وقد نكر السوادي ليدل علي العموم والشمول، يقصد أي سوادي، وليس سواديا معينا.

- والتعبير يسوق، ويطرف، بالمضارع الذي يدل علي التجدد والاستمرار.

- وفي قوله: ظفرنا، بالإسناد إلي نا الفاعلين، تعظيما لنفسه، أو إيقانا من عقله، وحيلته.

- والقسم، والله، دلالة علي التأكد من خداع السوادي.

ونكر بصيد، للتعظيم، أو التفخيم والتهويل، أي بصيد ثمين، أو بصيد عظيم.

***

- ثم تبدأ الأحداث الأساسية لحكاية المقامة علي النحو التالي:

- الراوية: حياك الله أبازيد، من أين أقبلت؟ وأين نزلت، ومتي وافيت،، وهلم إلي البيت.

- السوادي: لست بأبي زيد، ولكني أبو عبيد.

- الراوية: نعم، لعن الله الشيطان، وأبعد النسيان، أنسانيك طول العهد، واتصال البعد، فكيف حال أبيك؟ أشاب كعهدي، أم شاب بعدي؟

- السوادي: قد نبت الربيع علي دمنته، وأرجو أن يصيره الله إلي جنته.

- الراوية: إنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

***

- وهنا يمد الراوية يد البدار إلي الصدار، يريد تمزيقه، فيقبض السوادي علي خصره بجمعه.

***

- السوادي: نشدتك الله، لا مزقته.

- الراوية: هلم إلي البيت، نصب غداء، أو إلي السوق نشتر شواء، والسوق أقرب، وطعامه أطيب.

- فاستفزت السوادي حمة القرم، وعطفته عاطفة اللقم، وطمع، ولم يعلم أنه وقع.

***

- بدأت هذه الأحداث بمحاولة الراوية التعرف علي السوادي بطريقة ذكية، تساعده علي خداعه بعد ذلك، فقد بدأه بالتحية، ودعاه بكنية أبي زيد، يريد أن يعرف اسمه الحقيقي، فذكر هذا الاسم، ليستخرج دفائن السوادي، فرد عليه السوادي بأنه ليس أبا زيد، ولكنه أبو عبيد، وهنا عرف الراوية كنيته الحقيقية، وادعي أنه يعرفه، لكن الشيطان، والنسيان، لطول العهد، واتصال البعد، ثم سأله عن أبيه، وكأنه يعرفه، فلما عرفه

السوادي أنه مات من زمن بعيد، حاول الراوية أن يؤكد أنه يعرف أباه، وأراد التظاهر بالجزع لوفاته، يريد تمزيق الصدار، فمنعه السوادي، وهنا بعد أن تأكد الراوية أن السوادي قد خدع فيه، وزال الشك من نفسه، قدم الراوية الدعوة للسوادي للطعام في البيت، أو في السوق، ولم يدع للسوادي الفرصة للاختيار، وإنما فضل الراوية السوق، إذ هو أقرب، وطعامه أطيب، لكن الحقيقة غير هذين، فالحقيقة أنه سوف يستطيع خداعه في السوق، لا في البيت، وهنا استولي القرم علي السوادي، وسيطر عليه اللقم، فما كان منه إلا إجابة هذه الدعوة، وانتقلا إلي مكان آخر، وأحداث أخري.

***

- حياك الله: أسلوب خبري لفظا، إنشائي معني، الغرض منه الدعاء.

- أبو زيد، وأبو عبيد، كنيتان، ومن عادة العرب ذكر الكنية لا الاسم، للتوقير.

- هلم: اسم فعل، بمعني أقبل.

- لست بأبي زيد، ولكني أبو عبيد، تأكيد علي نفي الكنية الخاطئة، وإثبات للكنية الصحيحة.

- لعن الله الشيطان، وأبعد النسيان: أسلوبان خبريان لفظا، إنشائيان معني، الغرض منهما الدعاء.

- أشاب كعهدي، أم شاب بعدي؟ جناس، وهو محسن بديعي جاء غير متكلف، فلا بأس.

- قد نبت الربيع علي دفنته: أسلوب مجازي جميل.

- مددت يد البدار إلي الصدار، أريد تمزيقه، هذا قول الراوية، وهو ينافي ما قاله أولا مما يدل علي الالتجاء إلي الله، إذ قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

- نشدتك الله، لا مزقته، المعني الأصلي ذكرتك الله، لكنه استعمل حرفا في القسم بالله تعالي.

- حمة القرم: جعل للقرم إبرة، كإبرة العقرب، تلسع بها، مما يدل علي قوة شهوة القرم لديه.

***

- المكان: محل الشواء.

- الأشخاص: الراوية، والسوادي، والشواء.

- المشهد: أتي الراوية، والسوادي شواء، يتقاطر شواؤه عرقا، وتتسايل جواذاباته مرقا.

- الأحداث:

- الراوية يقول للشواء: افرز لأبي زيد من هذا الشواء، ثم زن له من تلك الحلواء، واختر له من تلك الأطباق، وانضد عليها أوراق الرقاق، ورش عليه شيئا من ماء السماق، ليأكله أبو زيد هنيا.

***

- فانحني الشواء بساطوره علي زبده تنوره، فجعلها كالكحل سحقا، وكالطحن دقا.

جلس الراوية، والسوادي، ولا يئسا حتي استوفياه.

***

- أتي الراوية والسوادي شواء، وصف الراوية شواءه، وجوذاباته، وطلب الراوية ما شاء، مما أراد أن يطعمه من الشواء، وهو يتظاهر بأنه يقدم قري كثيرا، وكرما عميما للسوادي، والحقيقة غير ذلك، فما أراد الراوية إلا إطعام نفسه، ولبي الشواء مطلب الراوية، وقدم لهما ما أراد الراوية، وجلسا يطعمان، حتي استوفيا الطعام حتي نهايته.

***

- يتقاطر شواؤه عرقا، وتتسايل جوذاباته مرقا، هذا وصف حقيقي، لكنه يكاد يكون إغراء بهذا الطعام، فاختيار الألفاظ تم علي نحو دقيق، يعين علي إبراز الهدف من التعبير، وتلك براعة تحسب للهمذاني.

-وجعل الأفعال مضارعة، للدلالة علي التجدد والاستمرار.

-والجملتان بتكوينهما فيهما ازدواج جميل، وكذلك السجع في نهاية كل جملة منهما.

-كما ذكر الشواء باللفظ العام، لأنه معهود معروف، كما يطلق علي القليل والكثير.

- أما الجوذابة فقد جمعها، جوذابات.

- كما جعل العرق في جانب الشواء، والمرق في جانب الجوذابات، مراعاة لدقة التعبير، ودلالة علي قوة الملاحظة.

- والتعبير بشواء، بصيغة المبالغة، لأنه كثير الشواء.

- افرز لأبي زيد من هذا الشواء، ثم زن له من تلك الحلواء، واخترله من تلك الأطباق، وانضد عليها أوراق الرقاق، ورش عليه شيئا من ماء السماق، ليأكله أبو زيد هنيا.

- ذكر كنيته أبا زيد، مع أنه أبو عبيد، لكنه مصر علي نسيان الكنية الحقيقية، أوتناسيها، ليؤكد طول العهد، واتصال البعد.

- ولنلاحظ الأمر في كل من: افرز، زن، اختر، انضد، رش، وكلها من الراوية للشواء، وهذه كلها للالتماس.

- والعجيب أنه قال: لأبي زيد، مع أنه سيأكل معه، لكن المقصود، لإكرام أبي زيد، أولإطعامه، أو لاستضافته.

- افرز، ثم زن له من تلك الحلواء، اختار العطف بثم، لأنه يدل علي الترتيب والتراخي، والحلواء تكون بعد الطعام بالشواء، فناسب العطف المعني.

- كذلك أسماء الإشارة: هذا الشواء، تلك الحلواء، تلك الأطباق، لأنها حاضرة أمامه، فلا مانع من الإشارة، أو لتحديد شئ معين منها.

- أوراق الرقاق: الإضافة تدل علي غاية الرقة، لأن إحدي اللفظتين، وهي الرقاق، قد تغني عن ذكر الأخري.

- ورش عليه شيئا من ماء السماء، تنكير شئ للتقليل، لأن القليل منه يصلح، والكثير منه يفسد، لذا قال: رش عليه شيئا، ولم يقل: رش عليه ماء السماق.

- ليأكله أبو زيد هنيا: كأنه يذكر تعليلا لكل ما سبق.

- كالكحل سحقا، وكالطحن دقا، لأن الكحل يسحق، حتي لا يؤذي العين، والطحن يدق، لأنه قد يراد منه أن لا يكون غاية في النعومة، فقد تراد أطعمة لا تكون من الدقيق المطحون طحنا تاما.

***

- المكان: محل صاحب الحلوي.

- الأشخاص: الراوية، والسوادي، وصاحب الحلوي.

- الأحداث:

- الراوية، يخاطب صاحب الحلوي: زن لأبي زيد من اللوزينج رطلين، فهو أجري في الحلوق، وأمضي في العروق، وليكن ليلي العمر، يومي النشر، رقيق القشر، كثيف الحشو، لؤلؤي الدهن، كوكبي اللون، يذوب كالصمغ، قبل المضغ، ليأكله أبو زيد هنيا.

***

- وزن صاحب الحلوي رطلين من اللوزينج.

- قعد الراوية والسوادي، وجردا، حتي استوفياه.

***

- هنا أمر الراوية صاحب الحلوي، كما أمر الشواء من قبل، وقدم صاحب الحلوي ما أراد الراوية.

- وصف الراوية اللوزينج وصفا يكاد يقنعنا بأكله، وجعل الصفات أسماء تفضيل أجري، وأمضي، ليدل علي تفضيله إياه.

- كما جمع الحلوق، والعروق، ليدل علي كثرتها، وكثرة من يأكلون، أويفضلون هذا اللون من الحلوي.

- ثم وصف اللوزينج ثانية: وليكن ليلي العمر، أي صنع ليلا، يومي النشر، ليكون ذلك عونا علي تشرب دهنه.

- رقيق القشر ليكون أفضل، لأنه حلوي، كثيف الحشو، لأن الحلوي الجيدة تكون كذلك.

- لؤلؤي الدهن، ليكون ذلك دليلا علي جودته، كوكبي اللون، ليكون المنظر معينا علي المخبر، والحلوي، أو الطعام بصفة عامة يستحب أن يكون ذا منظر يدل علي المخبر.

- يذوب كالصمغ، تصوير لحظة من البيئة حوله، وجعله يذوب قبل المضغ، مبالغة تدل علي أنه غاية في الطعم الطيب، والمذاق الحسن.

- حرد، وجردت: هذا عمل يدل علي الاستعداد للطعام الذي يكون من نوع هذه الأطعمة التي ذكرها الراوية.

***

- العقدة:

- الراوية، يخاطب السوادي، يا أبا زيد، ما أحوجنا إلي ماء، يشعشع بالثلج، ليقمع هذه الضارة، ويفثأ هذه اللقم الحارة، اجلس، يا أبازيد، حتي نأتيك بسقاء، يأتيك بشربة ماء.

***

- الأحداث:

- خرج الراوية، وجلس، بحيث يري السوادي، ولا يراه السوادي، ينظر ما يصنع السوادي.

- أبطأ الراوية علي السوادي.

- قام السوادي إلي حماره.

- اعتلق الشواء بإزار السوادي.

***

- الشواء، يخاطب السوادي، أين ثمن ما أكلت؟

- السوادي: أكلته ضيفا.

***

- الشواء يلكم السوادي لكمة، ويثني عليه بلطمة.

- الشواء: هاك، ومتي دعوناك؟ زن، يا أخا القحة عشرين.

***

- الحل:

- جعل السوادي يبكي، ويحل عقده بأسنانه.

- السوادي: كم قلت لذاك القريد: أنا أبو عبيد، وهو يقول: أنت أبو زيد.

***

- الراوية:

أعمل لرزقك كل آله   لا تقعـدن بكل حاله

وانهض بكل عظيمة   فالمرء يعجز لا محاله

***

- حاول الراوية التخلص من الشواء، وصاحب الحلوي بعد ما طعم، فصنع حيلة، وهي أنه سوف يخرج ليأتي بسقاء، يأتي بشربة ماء للسوادي، ويكون الماء مشعشعا بالثلج ليقمع الماء المثلج هذه الضارة، ويفثأ اللقم الحارة، وانطلت الحيلة علي السوادي، وهو يري السوادي، بحيث لا يراه السوادي.

- فلما أبطأ الراوية علي السوادي، قام إلي حماره، فا عتلق بإزاره، طالبا ثمن ما أكل.

- فرد السوادي قائلا: إنه أكله ضيفا، فلكمه الشواء، ولطمه، قائلا له: هاك، ومتي دعوناك؟ زن يا أخا القحة عشرين، فماكان من السوادي إلا أن بكي، وهو يحل عقد كيسه بأسنانه ويندم علي أنه قال لهذا القريد: إنه أبو عبيد، وهو يقول: أنت أبو زيد.

***

- ما أحوجنا إلي ماء يشعشع بالثلج، أسلوب تعجب يقصد به الراوية إثبات فكرة معينة، يحاول إقناع السوادي بها.

- ليقمع هذه الضارة، ويفثأ هذه اللقم الحارة، تعليل المتعجب السابق.

- أعتلق الشواء بإزاره، دليل علي قوة التعلق، لذا آثر وزن افتعل.

- زن عشرين، أي زن وزن عشرين درهما.

- فجعل السوادي يبكي، دلالة علي استمرار البكاء.

- يحل عقده بأسنانه، دلالة علي سرعة حل العقد.

- كم قلت لذاك القريد، كم للتكثير، والقريد تصغير قرد للتقليل، أو التحقير.

***

***

وقد منح بديع الزمان الهمذاني في هذه المقامة الراوية دور البطل، فقد صنع الحيلة، وانتفع بها، وخدع السوادي بطريقة الهمذاني، التي يضطلع بها أبو الفتح الإسكندري، بطل مقامات الهمذاني، وقد اصطنع دورا عجيبا، حيث تقمص شخص البطل، ثم نظم شعرا، يعبر به عن فلسفته، التي هي فلسفة البطل، والتي لا تختلف عن المضمون نفسه، الذي أورده الهمذاني علي لسان البطل كثيرا، مثل قوله يذكر فلسفته في الحياة، والأحياء، وأخلاقه بينهم، وصفاته الخلقية التي تنطوي علي كثير من التلون:

لله غفلة قـــــوم غنمتها بالهوينـــــا

اكتلت خيرا عليهم وكلت زورا ومينا(١)

يتعجب لحال من خدعهم، ويفخر بخداعه إياهم، إذ نال خيرهم ومنحهم مقابله زورا وكذبا، وياالله لهذا المخادع العجيب.

***

وقوله أيضا في فلسفته التي يدعو إليها:

فقض العمر تشبيها علي الناس وتمويهـا

أري الأيام لا تبقي علي حال فأحكيهـا

---

(١) المقامة الموصلية

فيوما شرها في ويوما شرتي فيها[١]

ينصح بأن لا يكون الإنسان صادقا، ذا طريق قويم، ويرشد إلي أن يكون الناس مثله، إذ هو كالأيام، فكما أن الأيام متغيرة، فليكن متلونا.

***

وقوله في رأيه في الناس:

الناس حمر فجوز وابرز عليهم وبرز

حتي إذا نلت منهم ما تشتهيه ففروز[٢]

وهذه فلسفة عجيبة، فهو يجعل الناس حمرا، أما هو فحصيف أريب ذكي، يخدع الناس، وينال منهم ما يريد ما يريد بغير أن يعلموا.

***

وفي هذه المقامة أيضا يقول الهمذاني علي لسان الراوية مبينا فلسفته في طلب الرزق، والاحتيال له، والنهوض إلي الحيلة العجيبة من أجله:

أعمل لرزقك كل آله لا تقعدن بكل حالـه

وانهض بكل عظيمة فالمرء يعجز لا محاله[٣]

---

(١) المقامة الأزاذية

(٢) المقامة الأصفهانية

(٣) المقامة البغداذية

نصيحة ظاهرها الرحمة، وباطنها العذاب، فهي في الظاهر ليس فيها ما يعكر صفو الحياة، ولا الأخلاق الكريمة، والشيم الحميدة، لكن وراءها ما وراءها من الاحتيال، والخداع، والغش، والكذب، ومجابهة الناس بالبهتان، للوصول إلي هذا الرزق الذي يذكره، أما العظيمة التي ينهض بها فإنما هي عظائم الخداع، والتلبيس، والتلفيق، ويالها من عظائم، ويالها من فلسفة قاتلة، وياله من ناصح.

فالظاهر أمر يقصد به النصح والإرشاد، ومن شأن الناصح المرشد أن يكون أمينا في نصحه، وإرشاده، ولا يكون مخادعا، ولم يترك الهمذاني علي لسان راوية مقاماته عيسي بن هشام مجالا للدفاع عنه، بأنه يقصد النصح والإرشاد حقيقة، لأن أحداث المقامة نفسها تؤكد ما نذهب إليه، وهل يكون خداع الراوية السوادي بهذه الطريقة العجيبة، والوسيلة الغريبة لونا من ألوان النهوض بعظائم الأمور في القوة، والشباب، والصحة، قبل أن يأتي الكبر، والهرم، والضعف، والخور؟ هذا أمر عجيب.

***

- الأزاذ: التمر، أو نوع منه، أو أجود أنواعه، أو نوع جيد منه.

- عقد علي نقد، النقد: المسكوك من الذهب والفضة، والعقد: عقد الوعاء من كيس ونحوه، فإذا لم يعقد كيسه، فالحال أنه لا شئ معه، أي هو معدم لا مال معه، ليس معه عقد علي نقد، أي كيسه فارغ من المال، أو ليس معه كيس يشتمل علي المال، والمال كان إذ ذاك نقدا فقط.

***

- محاله: جمع محل أو محلة، أي الأماكن التي يوجد بها الأزاذ.

- أنتهز: أتلمس وأقصد، فهو لبق أو أريب يسارع لانتهاز الفرص والغنائم شأن الحاذق دائما، أحلني أي الأزاذ، أو اشتهاؤه إياه، لأنه السبب الذي جعله ينتهز محاله، الكرخ: في الجانب الغربي من بغداد.

***

- السوادي: الرجل من رساتيق العراق، وقراه، نسبة إلي السواد، وهو ريف العراق، والمراد رجل من أهل السواد، وهم- في أغلب الأحوال- أغرار، لا يفطنون لدقيق الحيل، وسمي العراق سوادا لاكتساء أرضه بالخضرة، من نبات وأشجار، ولون الخضرة فيما يبدو للناظر علي بعد سواد، أو يقرب منه، بالجهد: المراد المشقة، أو نهاية الطاقة، والإزار: ما يشد في الوسط سابغا إلي أسفل الساقين، كالذي يشده داخل الحمام، ويطرف الإزار: أي يرد أحد طرفيه علي الآخر، بما يقعد بينهما، والصيد: هو ذلك الرجل السوادي، الذي يصلح للاحتيال عليه، لينال منه ما يريد، فهو صيد ثمين له، ينال منه بالاحتيال، وقد قال هذه العبارة في نفسه، أو لنفسه، ثم بدأ في محادثة السوادي، ليدخل في روعه أنه أليف قديم، وصاحب من عهد بعيد، وافيت: أتيت أو وصلت، هلم: أقبل أو تعال.

***

- طول العهد: أي طول العهد القديم، أو طول الفراق بعد العهد القديم، واتصال البعد: استمراره، كعهدي: أي كعهدي به، ومعرفتي فيه، شاب: فتي في الشبيبة، أم شاب: أي أدركه المشيب فكبر.

***

- الربيع: المرعي، والدمنة: الأثر، لأن الدمنة آثار الديار، بعد مضي أهلها، وخرابها، أي إنه مات من زمان بعيد، يكفي لتخرب داره، ونبت الربيع علي آثارها، وقد يراد من دمنته أثر قبره، أي إنه مات، ودثر قبره، ونبت الربيع علي أثره، بعد دثوره، كما ذكر الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده.

***

- البدار: المبادرة والمسارعة، الصدار: ثوب، أو قميص صغير، يلبس مما يلي الجسد، أو هو ثوب تشبه رأسه المقنعة، ويسيل، حتي يغشي الصدر بتمامه، يريد تمزيقه، إظهار للحزن، والجزع، ليوهم السوادي أنه كانت تربطه بوالده صداقة حميمة، وفي راوية: أحرك زيقه، وأريد تمزيقة، وزيق القميص: ما أحاط منه، وفي راوية: وأحاول تخريقه، وكلها محاولات لخداع السوادي، فهي محاولات مظهرية فقط، ولو تركه السوادي ما صنع شيئا، ولكنه يستغل سذاجة السوادي.

***

- جمعه أي جمع اليد، أو الكف: قبضته، نشدتك الله: أصلها ذكرتك الله، ثم صار حقيقة عرفية في القسم، أي أقسم عليك بالله، فهو تعبير كان يقصد به مجرد التذكير بالله سبحانه وتعالي، ثم صار معناه القسم بالله سبحانه وتعالي.

***

- نصب غداء: نتناول منه، الشواء: اللحم المشوي، استفزته: استخفته لإجابتي، وحركته بشدة، والحمة للشئ: شدته، وأصلها السم، وإبرة العقرب، التي تلسع بها، ثم حملت علي الشدة مطلقا، والقرم: اشتداد الشهوه لأكل اللحم خاصة، واللقم: الأكل السريع، ويروي النهم، وهو الإفراط في شهوة الطعام، وعلي أي المعنين فهو أمر غير مستحب في الطعام سواء كان أكلا سريعا، أو إفراطا، لأن كلا منهما لا يبعد في معناه كثيرا عن الآخر.

***

- يتقاطر شواؤه عرقا، العرق: ما يفرز من دهن، ودسم مما يدل علي أن اللحم سمين، والجوذابة: خبز يخبز في تنور، وقد علق فوق الخبز طائر، أو لحم يشوي، فيقطر ودكه علي ذلك الخبز، فيغني عن الأدم، تتقاطر: تقطر جوانبه، وتتسايل: تسيل من كل ناحية، وهذه الألفاظ كلها تتعاون في رسم صورة لإغراء السوادي بالنهم في الطعام.

***

- نضد: صف الشئ بعضه فوق بعض، والرقاق: خبز رقيق، وجعله أوراقا، ليدل علي انتهائه في الرقة كالورق، والسماق: حب صغير أحمر بالغ في الحموصة، وشجره يشبه الرمان، يثمر في عناقيد تنتظم ذلك الحب، يعد من المشهيات، والأبزار، والمواد الحريفة، التي كانوا يتخذونها، لتميلهم إلي الطعام.

***

- هنيا: سائغا، الساطور: آلة للجزار، وهي سكين عظيمة يقطع بها اللحم، الشواء: من صناعته أن يشوي اللحم، والزبدة: ما يخرج من اللبن بالمخض، والتنور: موقد النار الذي يشوي عليه اللحم، وأصله الفرن، والطحن-بكسر الطاء-الدقيق، يقصد به المطحون، فهو بوزن فعل، بكسر الفاء، وسكون العين، بمعني وزن مفعول.

***

- لا بئس ولا بئست أي كل منهما كان يطمع في إنفاذ ما بين يديه، لأن كلا منهما يعد هذا الطعام غنيمة، ويروي: ولا نبس-ولا نبست، أي ما تكلما، لأنهما شغلا بشئ واحد، وهم النهم.

***

- اللوزينج: نوع من الحلوي، يصنع من نوع من الخبز، ويسقي بدهن اللوز، ويحشي بالبقل، أجري في الحلوق: أمضي سيرا فيها، لسهولته، وأمضي في العروق: أشد سريانا فيها من غيره، من أنواع الحلوي،

لسرعة هضمه، وفي رواية: أمري، والمرئ من الطعام: الحميد المغبة، ليلي العمر: أي صنع بالليل، يومي النشر: نشرنهارا، ليكون أنضج، وقد شرب دهنه وعسله، وسريا في جميع أجزائه، رقيق الحشو: أي الخبز المحشو يكون رقيقا، لؤلؤي الدهن، أي إن دهن اللوز فيه يشبه اللؤلؤ في اللون، كوكبي اللون: يشبه الكوكب في اللمعان والبريق، يذوب قبل المضغ: بيان لدرجته من النضج، ورقة القشر، وإتقان الصنعة، حتي ليكاد يذوب في الفم، قبل مضغه، وهي مبالغة مقبولة، لأنها كثيرة الورود علي ألسنة الفصحاء، والبلغاء.

***

- جرد: أي شمر عن ساعده، أي جرد يده من ثيابه، ليأكل، أو يسرع في الأكل، يشعشع: يخلط أو يمزج، يقمع: يقهر ويدفع، الضارة: العطش، أو شدة الحر، يفثأ: يسكن، ويكسر، ويخفف، وتسكين اللقم: كسر الحدة من حرارتها في الجوف، السقاء: بائع الماء، شربة: الواحدة من الشرب، وكان هذا العمل مشهورا معروفا في حواضر الدولة العربية الإسلامية في دمشق في العصر الأموي، وفي بغداد في العصر العباسي، وفي الأمصار الإسلامية.

***

- اعتلق: تعلق، وأمسك، ويروي: فتعلق الشواء بعذاره، وتعلقه بعذاره، بقبضه علي لحيته، وأخذه من سباله، بإزاره: يقصد بثيابه، أكلته

ضيفا: أي كنت مدعوا لتناول هذا الطعام، فلا يحق لك مطالبتي بالثمن، هاك: اسم فعل بمعني خذ، أي خذ الضرب، واللطم، القحة: الوقاحة، وسوء الأدب، زن عشرين: أي أعط زنة عشرين درهما، وفي نسخة: وإلا أكلت ثلاثا وتسعين، أي ضربة، العقد: جمع عقدة أي عقد كيسه، ليخرج الدراهم، وفي نسخة: ويمسح الدموع بأردانه، الأردان: جمع ردن بضم الراء وهو كم الثوب، القريد: تصغير قرد، ويروي: العريد، تصغير عرد -بفتح العين وسكون الراء- بمعني الحمار، أو الصلب الشديد، أو بفتح العين، وكسر الراء، أي البعيد، أي ذاك القرد اللعوب، أو الرجل القاسي، أو الملعون.

***

- أعمل لرزقك كل آله   لا تقعدن بكل حاله

المعني: اعلم أن الرزق لا يأتيك، حتي تعمل له، ولا يقدم عليك، حتي تسير إليه، فأعمل له كل حيلة، حتي تناله، وأجهد نفسك، وادأب في السعي إليه، ولا تدخر وسعا في تحصيله، ولا تقعد عن طلب الرزق، حتي لو كنت عاجزا عن كسب الرزق بالعمل، فليكن كسب الرزق بالحيلة، إذ الحيلة قد تغني عن العمل الذي يعود بالمشقة، والتعب، والحيلة قد تعود بالرزق بغير مشقة، ولا تعب.

***

وانهض بكل عظيمة   فالمرء يعجز لا محاله

المعني إن المرء لابد أن يأتي عليه يوم، يصير عاجزا عن الوفاء بحاجاته، ومتطلبات حياته، فإذا كان ذلك أمرا مؤكدا، فلينهض الإنسان في وقت قدرته، وشبابه، وفتوته، إلي عظائم الأمور، لينالها، ويستوفي حظه منها، قبل أن يدركه العجز عنها، ويناله الحرمان منها، أي فلينتهز الإنسان فرصة قوته، وشبابه، وقدرته، لينهض إلي عظائم الأمور، لكن قدرته لا تسعفه، وقوته لا تواتيه، وقدرته قد تخونه، فليهتبل شبابه قبل الكبر، وصحته قبل المرض، وقوته قبل الضعف، ولكن فليكن ذلك كله وسيلته إلي الخير، لا إلي الشر.

***

الفصل السادس

نظرات فنية في الشعر العربي

هذه نظرات في الشعر العربي في بعض المعاني والموضوعات التي أنشد فيها الشعراء شعرا يدل على معان مختلفة، ومتباينة حينا، ومتوافقة حينا آخر، وكل شاعر عبر عن الموضوع بمعان رآها تبين عن رأيه، وتكشف عن فكره، وتظهر موهبته الفنية والأدبية، وتوضح براعته في التعبير، والتصوير، واختيار الألفاظ، والعبارات والأساليب اختيارا يدل على المختار فقد قيل:

قد عرفناك باختيارك إذ كا ن دليلا على اللبيب اختياره

فهل تكشف هذه المعاني، والأساليب، والتعبيرات الأدبية عن قيمة شاعر، وقدرته على فن القريض، ومدى غوصه وراء المعاني، وبحثه عن الدرر الأدبية واللغوية؟

***

***

ذكر الشعراء كثيرا من صفات أدعياء الصداقة، لأن الصداقة قيمة إنسانية رفيعة، وأدعياء الصداقة قد يكونون أكثر، وأقسي من الأعداء، وأشد ضراوة منهم، كالمنافقين.

قال طرفة بن العبد:

كل خليل كنت صافيته لا ترك الله له واضحه

كلهم أروغ من ثعلب ما أشبه الليلة بالبارحه[1]

صورهم في تلونهم بروغان الثعلب، لذا فهو يضيق بهم، فيدعو عليهم بقوله: لا ترك الله لهم واضحة، ثم يأتي البيت الثاني ليمثل تعليلا جميلا للبيت الأول.

***

وقال النابغة الجعدي:

وبعض الأخلاء عند البلا ء والرزء أروغ من ثعلب[2]

التصوير نفسه، وإن كان يبين أن من يصنع ذلك بعض الأخلاء وليس كلهم، إلا إن المعني يدل علي نفسية عند الشاعر ضاقت بما يفعله بعض هؤلاء الذين أطلق عليهم الأخلاء.

---

(١) لسان العرب ٣/٤٧٤، ١٩/٦٧، عيون الأخبار ٢/٣

(٢) لسان العرب ١٣/ ٢٣٠.

***

وأنشد ابن بري:

يامن جفاني وملا	نسيت أهلا وسهلا
ومات مرحب لما	رأيت مالي قلا
إني أظنك تحكي	بما فعلت القرلا[1]

يخاطب صديقه عن بعد، بعد الجفاء، والهجر، ولذلك يناديه بلفظ النداء الذي ينادي به البعيد، يامن جفاني.

ثم يعاتبه قائلا: نسيت أهلا وسهلا، ومات مرحب لما رأيت مالي قل، كأن كل ما كان يطلب هذا الذي يطلق عليه الصديق هو المال فحسب، بغض النظر عن الصداقة، وواجباتها، وما تمليه الصداقة الحقة من أخلاق وتصرفات.

وهذا مثل سيء للصداقة والصديق، يذكره الشاعر، لينبه على أن الصداقة الحقة بعيدة، وليست كل علاقة بين الناس يطلق عليها صداقة.

وهي تجربة عملية عاشها الشاعر، ثم حكاها كما عاشها، ولذلك دمغ هذا الصديق بالوصف في البيت الثالث.

***

وقال الشاعر يتحدث عن الأصدقاء الذين اتخذهم إخوانا، فلم يكونوا أهلا بثقته، أو لصداقته، وأخوته:

---

(١) لسان العرب ٧١/١٤

وإخوان تخذتهم دروعـا فكانوهـــا ولكن للأعـــادي

وخلتهم سهاما صائبات فكانوهـــا ولكن في فـــؤادي

وقالوا قد صفت مناقلوب لقد صدقوا ولكن عن ودادي[1]

تعبير صادق، وإحساس نقله الشاعر بأمانة، يعبر عن تجربة مرة أليمة مع إخوانه وأصحابه، اتخذهم وقاية له، فكانوا عليه، وقوة له، فكانوا قوة ضده، وادعوا أنهم قد صفت قلوبهم، ولكن الحقيقة أن قلوبهم صفت وتخلصت من وده.

***

وقال الشاعر:

تخذتكم درعا حصينا لتدفعوا نبال العدي عني فكنتم نصالها

يتحدث الشاعر بحال المتحسر علي ما كان من أصحابه الذين اختارهم ليذبوا عنه، ولكنهم غدروا به وخانوه، وبدلوا العهد، اتخذهم دروعا لحمايته ضد كيد الزمان، ومكر الأعادي، ونبالهم، وسهامهم، فكانوا نصالا موجهة ضده، وسهاما مصوبة إليه، فما بالهم قد صنعوا ضده ما كان يريده ضد أعاديه.

***

---

(١) شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني ص٣٢٣

وقال عبد الله بن معاوية:

العهد عهـدان عهــد امرئ ... يأنف أن يغـدر أو ينقضـا

وعهد ذي لونين مـــلالة ... يوشك إن ودك أن يبغضـا

إن لم تزره قـال قـد ملني ... وبالحري إن زرت أن يعرضا

شيمته مثل الخضاب الذي ... بينا تراه قانيـا إذ نضـا

فجعل العهد عهدين، فالأول هو المبتغي، والثاني -وهو الأكثر- عهد ذي اللونين، الملالة، المبغض، الذي لا يبقي علي حال،

وصوره بالخضاب الذي بينا تراه أحمر قانيا إذ نضا، ولايبقي علي حمرته،

وجعل سمة صاحب العهد الأول الأنفة من أن يغدر، أو ينقض العهد، فهي أنفة من يعرف للعهد حقه، وللصداقة قيمتها.

أما الثاني فقد ذكر أمثلة تدل علي أن هذه التجربة قد عاشها الشاعر حقا، ملالة، سريع البغض بعد الود، يتهم بالملال إن لم يزره، ويعرض إن زاره، ثم يصوره بالخضاب، الذي هو الحناء.

فبينما تري الخضاب أحمر قانيا، إذا بك تجده قد نضا، وتغير لونه، فصور صاحب العهد ذي اللونين بالخضاب،

وقد بدأ أبياته بقصر العهد علي عهدين، وأوضحهما بعد ذلك، عهد من يأنف الغدر، ونقض العهد، أي عهد المتمسك بالعهد، الذي يجعل العهد شرعة ومنهاجا، وعهد المتلون الملالة الذي لا يلبث أن يبغض بعدود قصير، فهو ود مصطنع، لأن الود الحقيقي لا يزول، ثم أتي بمثالين لعدم محافظته علي الود،

وقوله: قال: قد ملني، بالتحقيق بقد أولا، وذكر الفعل الماضي ثانيا، وكأنه يؤكد الملال، مما يدل علي ادعاء العهد السابق،

كذلك: وبالحري إن زرت أن يعرض، فإذا زرته أعرض، فهو علي هذا ليس ذا عهد مطلقا، فكيف يعرض الصديق عن صديقه عند زيارته،

ثم صور شيمته، ليؤكد أنها فطرة، وجبلة ركبت فيه، ولن يدعها،

وعرف الخضاب للعهد، أي الخضاب المعروف المعهود،

ثم وصف الخضاب، وشيمة الصديق الملالة بقوله: بينا تراه قانيا إذ نضا، أي في زمن قصير، وفترة وجيزة.

وقال آخر يصف الصداقة الزائفة، التي لا تلبث أن تزول، لأنها تقوم علي أمر واحد، وهو النفع، والصداقة الحقة لا ينتظر منها النفع وحده:

إذا افتقرت نأي واشتد جانبه ... وإن رآك غنيا لان واقتربا

وإن أتاك لمال أو لتنصره ... أثني عليك الذي يهوي وإن كذبا

مدلي القرابة عند النيل يطلبه ... وهو البعيد إذا نال الذي طلبا

حلو اللسان بعيد القلب مشتمل ... علي العداوة لابن العم ما اصطحبا[1]

صفات غريبة، وطباع سيئة، وصداقة زائفة، وأمثلة من رسم الواقع، فهو بعيد عند الافتقار، قريب عند الاغتناء، يثني إن رغب ولو كذبا، حتي ينال مايريد، فيبعد، حلو لسانه، مضمر قلبه علي العداوة لابن العم، فهو لا يألف إلا لفائدة، ولا يقرب إلا لغرض، فليس صديقا حقا، عند

---

(١) شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني ص٣٢٤

الفقر ينأي، وعند الغني يقترب قريب عند النفع، بعيد بعد تلبية رغبته، ليس أخا، ولا صديقا، وإنما هو عدو.

***

وقال سفيان بن عيينة: صحبت الناس خمسين سنة، ماستر لي أحد عورة، ولا رد عني غيبة، ولا عفالي عن ظلمة، ولا قطعته فوصلني، وأخص إخواني لو خالفته في رمانة، فقلت هي حامضة، وقال هي حلوة، لسعي بي حتي يشيط دمي.[1]

تجربة أخري مريرة يحكيها هذا الأديب الحكيم، إذ لا يبادر الصديق إلي فعل خير، وامتناع عن شر، فلا يصنع المعروف، ولا يعفو عن الإساءة، وإذا خالفته أراد أن يحرق دمك، فأين هي الصداقة المزعومة؟

ليست هذه صداقة، وليس هذا بصديق، ولا كل من لفه لفه، وصنع صنيعه، فهل هذه هي أخلاق الأصدقاء؟ بل هل هذه هي أخلاق الناس؟ ومن أين أذا نجد الصديق الحق الذي تمثل صداقته مثالا للصداقة الحقة.

وقد بدأ هذا الأديب بعبارة قصدمنها أن لا نقدم عند سماعنا رأيه سوي الموافقة، لأنه يحكي تجربة عامة، وذكر المدة التي عاش فيها هذه التجربة، أوعايشها، وهي خمسون سنة، ومعني ذلك أنه زاد علي الخمسين، فيمثل إذ ذاك صوت الحكمة، والحنكة، والعقل، والرزانة، فقد

---

(١) شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني ص ٣٣٤

آن لصوت العقل أن يعلو في هذه السن، وبعد هذا العمر الطويل.

ولنقرأ ما ذكر: ماسترلي أحد عورة، والمعني علي الكناية، أي من وجد منهم فرصة لفضح أمري فعلها، أي لم يدار أحد منهم عيبا من عيوبي،

كذلك يقول: ولا رد عني غيبة، فإذا اغتبت علي مسمع أحد منهم مارد غيبتي،

كذلك يقول: ولا عفا لي عن مظلمة، أي لم يسامحني أحد في خطأ أخطأته في حقه،

كذلك يقول: ولا قطعته فوصلني، مع أن ذلك كله من خصائص المؤمن،

ثم يأتي بمثال عجيب لما ينشب من خلاف بين الذين يدعون الصداقة، فيقول: وأخص إخواني، ذكرهم لأنهم أقرب الإخوان الذين ينتظر منهم الخير، لو خالفته مخالفة في شئ، عائد المخالفة فيه هين، لو خالفه في رمانة، واختلفا في طعمها بين الحلاوة والحموضة، لحاول مدعي الصداقة أن يسعي به في الشر حتي يشيط دمه، ويحترق، هذا هو فعله العجيب.

***

وقال محمد البصري يقدم نصائحه القيمة في الصداقة، والصديق، ويذكر صفات الصداقة الزائفة، والصديق الزائف الذي لا يصون الود، ولا يحفظ العهد:

لا يغـــرنك صديق أبـــدا   لك في المنظر حتي تخبره
كم صديق كنت منه في عمي   غرني منه زمانـــا منظره
كان يلقاني بوجـــه مطلق   وكـــلام كاللآلي ينثـــره

فإذا فتشتـــه عن غيبـه لم أجد ذاك لود يضمره[١]

يبدأ بالنهي الذي يثير الذهن، ويشوفه إلي السبب لهذا النهي الذي يجبه السامع، أي لا يغرنك الصديق في مظهره، فالصديق الحق في الجوهر والمخبر قبل المظهر،

ثم يحكي الشاعر عن تجربته في الصداقة مع الأصدقاء الذين يظهرون غير ما يضمرون، إذ يتظاهرون بالود، ويضمرون العداء، وكم من صديق كان منه في عمي عن أخلاقه الحقيقية، غره منظره زمانا طويلا، فإذا فتش عن غيبه، وباطنه، وقلبه لم يجدود الصداقة، ولا حب الأخوة، ولا رباط الوفاء، والإخلاص، والصدق.

***

وقال محمد بن إسحاق:

والناس مثل دراهم ميزتها فرأيت فيها فضة وزيوفا[٢]

تصوير دقيق، يدل علي خبرة، لدي الشاعر بالصداقة، والأصدقاء، والناس، فالناس كالدراهم، درهم جيد، ودرهم زيف، وكذلك الناس منهم الصديق الصدوق، ومنهم غير ذلك، وحسبنا صحبة الصديق أبي بكر رضي الله عنه رسول الله صلي الله عليه وسلم فكان صاحبه، وصديقه وثانيه في الغار، ومصدقه في كل ما ينزل عليه من السماء، وهو مثال للصداقة الحقة التي تنبع من عمل القلب النقي الرضي، فهي صداقة

---

(١) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ص ٨٩

(٢) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ص ١٠٢

الإخلاص، والوفاء، والود، والصدق، والتضحية، والإيمان، والنصرة،

أما اللون الآخر الذي لا ينتمي لصداقة ولا يعرف أخوة، والذي هو مثل الدرهم الزائف، فهو لون الدرهم، وشكله، وحجمه، لكن شتان بين الدرهم الجيد من الفضة الخالصة، وبين الدرهم الزائف الذي لا ينتسب إلي الفضة الخالصة مطلقا، والشاعر هنا يرمز إلي معني بعيد، وهو أن الصير في الخبير هو الذي يعرف جيد الدراهم وزيوفها، فليكن كل منا كذلك.

***

وقال امرؤ القيس وقد أوذي كثيرا من إخوانه، وأصحابه الذين كانوا يلتفون حوله من زمن الشباب، والصيد، والخمر، والمجون، ثم تخلوا عنه في محنته:

إذا قلت هذا صاحب قد رضيته ... وقرت به العينان بدلت آخرا

كذلك جدي ما أصاحب صاحبا ... من الناس إلا خانني وتغيرا[1]

لا يجد صاحبا تقر له عينه إلا تغير، وخان، وهكذا دأبه لا يجد صاحبا إلا علي هذه الشاكلة، والصفة، يحكي تجربة مرة، لأنه كان في حياة أبيه الملك قد عاشر أصدقاء السوء، يرحلون للصيد، والخمر، والمجون، ويعيشون به وحوله في بلهنية العيس، ولين الحياة، فلما قلب

(١) ديوان امرئ القيس ص ٦٩
كلما لقي إنسانا، ورجا منه حسن الصحبة بدا منه عند الاختبار ما لا يرضاه، ولا يقر عينه، ينتقل إلي آخر، واستبدل به، يصف أن الدهر قد تغير له، وقلة ما بقي بذمته لإنكار الناس له.

الدهر له ظهر المجن، وقتل أبوه، وقال قولته المشهورة: ضيعني صغيرا، وحملني دمه كبيرا، لا صحو اليوم، ولا سكر غدا، اليوم خمر، وغدا أمر، وهب ليأخذ بثأر أبيه، لكنه فشل في ذلك.

ويظهر أنه أراد أن يستعين ببعض الملوك، فلم ينل مراده، وحينئذ كانت له رحلات لمحاولة استنهاض همم من يريد الاستعانة بهم، لينصروه على أعداء أبيه دون جدوى، وانتهي الأمر به إلي أن قتل بحلة مسمومة.

وفي هذه الفترة التي كانت فترة الاختيار، والافاقة على الحقائق المره التي يجب أن يعلمها، ويذوق ويلاتها، عرف الصداقة، والأصدقاء، وعرف الحقيقة، والزيف، فكانت هذه القصيدة التي نذكر منها هنا هذين البيتين اللذين يذكر فيهما تبدل الأصحاب، وخيانتهم، وتغيرهم، وزيفهم، وغدرهم، وخديعتهم.

***

***

وقد ذكر الشعراء الأقارب أيضا، ومن العجيب أن يذكر الأقارب في هذا الشأن، لكن الشعراء كانت لهم تجارب، فلا بأس من ذكرها، مع اختلافي في الرأي عنهم:

وأقارب لو أبصروك معلقا   بنياط قلبك ثم ما نصروكا[1]

أري أن هؤلاء الذين يذكرهم الشاعر ليسوا بأقارب مطلقا، ولو كانوا أقارب لناصروا، ودافعوا ودفعوا، ولنالتهم حمية القربي، وحماسة الأقرباء، لكن من ذكرهم الشاعر ليسوا إلا عونا علي القريب، وقوة عليه، وبأسا ضده، وياللعجب من هؤلاء.

لكنها علي أية حال تجربة الشاعر، ولن يحكي مثل هذه التجربة إلا من وحي الواقع، والأحداث، ولو أن أقاربه ليسوا كذلك، فإنه سيكون هو صاحب هذه الصفات.

فالبيت يحكي عن تجربة مريرة في القرابة، والأقرباء، سواء كان صاحب هذه التجربة الذي وقعت عليه هو الشاعر، وأقرباؤه هم أصحاب هذه الصفات، أو كان صاحب هذه التجربة الذي وقعت عليه هم أقرباؤه، وهو صاحب هذه الصفات التي ذكرها.

وقد بدأ الشاعر البيت بقوله: وأقارب، علي التنكير، والتنكير هنا للتهويل، والتفخيم، أو الاستنكار والاستبعاد أن يحدث منهم ما يذكره، أو التعجب.

ثم يحكي ما يحدث منهم، لو أبصروك معلقا بنياط قلبك، أي لو

---

(١) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ص٨٧

أبصروك مشرفا علي الهلاك، أبصروك، يدل علي رؤيته رأي العين، وجعل التعاليق بنياط القلب، ليؤكد الهلاك، ويكون فعلهم هو: ما نصروك مع التحقق من هلاكك.

***

وقال ابن المعتز، وقد كان خليفة في القرن الثالث الهجري، وأبوه خليفة كذلك، وقتل سنة ست وتسعين ومائتين من الهجرة:

تركوا الزمان مرقعا خلقا والناس لاجنا ولا بشرا
وكأنما الأخلاق في خلق لاعين من كرم ولا أثرا
كم مورق بالبشر مبتسم لا أجتني من غصنه ثمرا
مازال يستر لي خلائقه فصبرت أرقبه وما صبرا
وعدو غيب طالب لدمي لو يستطيع لعجل القدرا
يوري زنادي كي يخادعني ويطير في أثوابي الشررا
ولرب أقوام أواصلهم ويرونني بتملق وأري
وعمو إلي عيني أبغض من شيب بناصية إذا استعرا
ولبانة أوليتها وبد فشكرتها وجزاك من شكرا
وكفيت مني بابن حادثة ركاب خطب الدهر كيف جرا
ونجي عذل قد عصي كرمي والمال أهون هالك خطرا[1]

---

(١) ديوان أشعار الأمير أبي العباس ٢/٢٣٧-٢٣٨
جرا: جرأ، سهلت الهمزة، النجي: الذي يسارك، والنجوي، الكلام سرا، العذل: الملامة، أي عاذل يناجيني، ويلومني في بذل مالي وكرمي قد عصا، فما أسمع منه، والمال أهون ذاهب يذهب.

تجربة أليمة، فقد كان معه الناس يوم أن كان آباؤه حكام الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي، فلما ماتوا تولي الناس عنه وخذلوه، ولما عين خليفة لم يبق في الخلافة سوي ليلة واحدة، ثم قتل.

فها هو ذا يحكي تجربة حياته مع الناس الذين ليسوا إنسا ولا جنا، والزمان المرقع، والأخلاق الضائعة بين مورق بالبشر خداعا، وعدو غيب، وأقوام متملقين وهم أعداء.

يقول عن هؤلاء الناس: تركوا الزمان، وقد خلق، وبلي، ورقع، ولم يبق فيه جدته، وصار الناس غريبا أمرهم فليسوا بجن حقيقة، مع أن فعلهم فعل الجن، أو زاد، وليسوا بشرا، فما هذه أخلاق البشر، وكأنما الأخلاق ضاعت، ولاعين لها.

ولا أثر، فكثير من الناس يورق بالبشر، ويبتسم، لكنه إيراق بغير ثمار، فلا يجني ثمر من غصنه أبدا، يستر خلائقه، ويواريها، ويصبر عليه، ويرقبه، ويراقب فعله.

وكم من عدو بالمغيب، أو يظهر الغيب يطلب دمي، ويود قتلي، ولا يبغي حياتي، ولو استطاع تعجيل القدر لعجله، لكن ذلك ليس في مقدوره، ولأن ذلك بيد الله وحده.

يوري زنادي، يظهر لي الود، والرغبة في الخير، في نيله، ومنعه، وهو مخادع مراء منافق، لأنه لا يوري زنادي إلا ليقدح الشرر في ثيابي، ليحرقها، فهو لا يبغي خيرا، وإنما يبغي الشر.

ورب أقوام يواصلهم، ويعدهم بالخير، لكنهم يرونه بتملق، ورياء، ويراهم كذلك، لأنه يراهم بعينيه أبغض من شيب بناصية، إذا استعر الشيب في شعر الناصية، وهذا أمر مكروه، لأنه بداية اتجاه الإنسان إلي

الضعف، والكبر، والنهاية، ومن ثم، فهو أمر مكروه، خاصة إذا استعر، واشتعل.

وكم من يد أسديتها، فكان عائدها الشكر، وكم من يد قدمت لي فشكرتها، وأعظم الجزاء للنعمة التي تقدمها أن تقابل بالشكر، وجزاك أعظم الجزاء من شكرك علي نعمة أسدتيها، وكفاك مئونة هذا العمل الدهر بما يجر من مصائبه، ونوائبه، وأحداثه، وأبطاله الذين يجد البلاء علي أيديهم، فيكفي ابن حادثة، ركاب خطب الدهر، لأنه يد الدهر في المصائب، كيف جرؤ علي فعل هذه الحوادث.

وهو يخاطب هنا نفسه، والقارئ، أو السامع، إذ يقول: وكفيت مني، ثم يقول: وعاذل يلومني سرا، ويجوي علي بذل مالي، وكرمي، فعصيته، لأنني كريم الأصل، والطبع، ولأن فلسفتي في الحياة في هذا الشأن هي أن المال أهون مالك خطرا، فالمال أهون مبذول يبذل، وأهون الأشياء خطرا التي تزول، فالمال هين، لا قيمة له، وزواله ليس كزوال النفس، أو العلم، أو الشرف، أو الأخلاق الكريمة، أو الصفات الحميدة، إذ المال أحقر زائل يزول.

***

وقال ابن المعتز أيضا يعيب علي أقاربه، مع أن أقاربه من العباسيين أصحاب الخلافة والسلطان، لكن الأثرة قد تعمي، وقد تفسد الود:

لحومهم لحمي وهم يأكلونه — وما داهيات المرء إلا أقاربه

ليوث إذا ما غاب يفترسونه — وهم إن رأوه في الندي ثعالبه

وما نسب الأقوام إلا عداوة — وأكثر من تشقي به من تناسبه

مسللة في كل يـوم سيــوفه ومبثــوثة حيـــاته وعقـــاربه
وكامنة تحت الضلوع حقوده ومحمـرة أنيـابه ومخالبه[1]

يعبر عن التجربة نفسها التي عبر عنها في المقطوعة السابقة.

يقـول: إن لحـومـهـم لحـمـي، أي لحـمـة قـويـة، وقـرابـة شـديـدة، ومع ذلك يغتابونه.

ويعلن أن داهيات المرء أقاربه، فهم ليوث يفترسونه إن غاب، وإن رأوه فهم ثعالب.

ونسب الأقـوام عـداوة، وأكـثـر مـن يشـقـي بـه الإنسـان من يـتـصـل بـه بقربي، فهـو في كل يوم سيفه مسلول، وحياته وعقاربه مبثوثة، وشروره كثيرة، وحقده كا من تحت الضلوع، وأنيابه ومخالبه محمرة من دمائه، وياللعجب.

وقد جعل لحمه لحومهم، ومع ذلك جعلهم يأكلون لحمه، أي يغتابونه، وهو على المجاز، كما جعلهم شديدي الصلة به.

ثم بتحسر معلنا أن داهيات المرء ليسوا إلا أقاربه، وقد أكد هذه الحقيقة بأسلوب القصر، بما وإلا.

وجعلهم كثر بقوله لحومهم، وهم يأكلونه، داهيات، أقاربه، وجعلهم دواهي، وليسوا داهية واحدة،.

ثم جعلهم ليوثا في الافتراس والعنف، وليس في الشجاعة، لأنهم لا يفـتـرسـونـه إلا إذا غـاب، فـهـو اغـتـيـاب لايتـلاءم مع كـونهم ليـوثا، ثم إن

(١) ديوان الأمير أبي العباس ص٤٦

رأوه صاروا ثعالب ماكرة خادعة، لأنهم لا يقدرون علي المواجهة.

ثم يؤكد بأسلوب القصر، بما وإلا، أن نسب الناس ليس إلا عداوة ، مع أن النسب لحمة، وقربي، وصلة.

ثم يذكر جملة خبرية غرضها التحسر، وأكثر من تشقي به من تناسبه، فجعل النسب سببا في الشقاء.

وذكر السبب في ذلك، فقال: سيوفه مسللة في كل يوم، وحياته وعقاربه مبثوثة في كل وقت فهو عدو ظاهر العداوة يملك سلاح القتل من السيف، والحية، والعقرب، فله حد السيف، وله سم الحية والعقرب، وجعل له حيات وعقارب، ليدل علي الكثرة.

كما ذكر سببا آخر لقوله، وهو أن حقوده كامنة تحت الضلوع، أي إن حقوده الكثيرة تكمن في قلبه، وتستقر فيه، ولا تخرج منه.

وكذلك فأنيابه ومخالبه محمرة لكثرة ما نهش، وقتل بها ، وكأن الحمرة التي وصفها بها هي حمرة دماء ما قتلت، ومن قتلت هذه الأنياب والمخالب.

وربما كانت تجربة الشاعر في الحكم، والتنازع علي السلطان، والاضطراب الذي ساد بعد فترة الخلفاء الأقوياء في العصر العباسي الأول سببا في ذلك.

***

***

وثمت فكرة أخرى وهي الغنى والمال، والفقر والعيلة، فقد تكون هذه الفكرة سببا في الصداقة الزائفة، وقد عقد الشعراء صلة بينهما.

قال الشاعر:

إذا قل مال المرء قل صديقه   وأومت إليه بالعيوب الأصابع(١)

قليل المال قليل الحظ من الإخوان، والأصدقاء، وهذا هو واقعه في الحياة بين الأحياء، أما من لديه المال فيكثر أصدقاؤه، وتومئ إليه الأصابع بكل الصفات الحسنة المختارة له ولأمثاله، فإذا قل ماله قل صديقه، وأشارت إليه الأصابع دائما بالعيوب، فإذا صار قليل المال صاركثير العيوب، كثير الذم، والهجاء، وليس له إلا ذلك.

***

وأنشد ابن بري:

رأيت موالي الألى إذ يخذلونني   على حدثان الدهر إذ يتقلب(٢)

هذه هي عادة الناس، وهجيراهم، وهذا هو ديدينهم، وطبعهم، فهذا مواليه خذلوه على حدثان الدهر وتقلبات الأيام، فمن كان مولى له صار لا يبالي به وبحاله الذي أصبح فيه، لأن الدهر بحوادثه تقلب به، وقلب له ظهر المجن، فليقلب له مواليه ظهر المجن مع الدهر.

---

(١) لسان العرب ١٩/٦٧

(٢) لسان العرب ٢٠/٣٢١

***

وقال زيد بن عمرو بن نفيل، أو نبيه بن الحجاج السهمي:

ويك أن من يكن له نشب يحـ بب ومن يفتقر يعش عيش ضر[1]

من له نشب ومال يحبب، فيصير صديقا لغيره، ومن يفتقر يعش عيشة ضر، ويتركه أصحابه، ولا يعول عليه الناس، فالناس مع ذي المال، من لازمه النشب لزموه، ومن غاب عنه النشب غابوا عنه، فهم مع النشب لا مع الصداقة.

***

وقال آخر:

الناس ما استغنيت كنت أخالهم وإذا افتقرت إليهم فضحوكا[2]

أي إذا استغنيت عن الناس صرت أخالهم، وإذا افتقرت إليهم فضحوك لهذا الفقر، فالحالان مختلفان، فإذا كنت مستغنيا عن الناس لا تريد منهم شيئا، تزهد في أموالهم، وما معهم، استغنيت بما تملك عنهم صرت أخا لهم، فلن يخسروا شيئا فإما أن ينالوا منك، وإما أن تكفيهم مؤنتك، آنئذ تصير أخالهم.

أما إذا افتقرت إليهم، واحتجت إلي ما معهم فإنهم لن يعطوك، وياليتهم يصنعون ذلك فحسب، وإنما يفضحونك أيضا.

---

(١) لسان العرب ٢٠/ ٣٨١

(٢) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ص٨٧

***

وأنشد محمد بن خلف يحكي تجربة حدثت معه، ويذكر حكمة عامة، بناها علي هذه التجربة، ويسكبها في شعره موعظة بليغة:

كأن مقلا حين يغدو لحاجة إلي كل من يلقي من الناس مذنب

وكان بنوعمي يقولون مرحبا فلما رأوني معدما مات مرحب[1]

أي إن المقل إذا غدا لحاجة مذنب دائما، عند من يلقاه من الناس.

ثم يحكي الشاعر عن تجربته، فيقول: كان بنوعمه يقولون له: مرحبا، فلما صار معدما، ورأوه كذلك، ضاع مرحب هذه، فصاروا لا يقولونها، إذن المقل مذنب دائما، ومعني ذلك أن المكثر الغني محسن دائما.

والعجيب أنه يحكي تجربته مع بني عمه، وبنو عمه أقرب الناس عصبة إليه.

***

وقال أبو العتاهية:

ما الناس إلا مع الدنيا وصاحبها فكيف ما انقلبت يوما به انقلبوا

يعظمون أخا الدنيا وإن وثبت عليه يوما بما لا يشتهي وثبوا

لا يحلبون لحي در لقحته حتي يكون لهم صفو الذي حلبوا[2]

---

(١) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ص ١٧

(٢) شرح ديوان أبي العتاهية ص١٧، ١٨

أي إن الناس مع الدنيا، ومع صاحب الدنيا، المالك منها، الثري فيها، فإذا انقلبت به الدنيا انقلب له الناس، فإذا ما صنعوا الخير النادر القليل لأحد، فإنما يصنعونه لينالوا أفضل ما فيه، فالخير إن وجد، وحدث منهم فإنما لهم منه أطيبه، وخالصه، ولا يتركون إلا ماليس بشئ، أو مالا يفيدهم، أو مالا يرجي منه نفع، ولا فائدة، ولا خير.

***

وأنشد البسامي:

أري كل ذي مال يسود بماله   وإن كان لا أصل هناك ولا فصل

يري صاحب المال يسود بماله، ولو لم يكن له أصل يستند إليه، فالمال يجب الأصل، ويحل محله في سيادة صاحبه، وكأن الأصل هو المال، لا الماضي العريق، ولا الآباء الذين يورثون المجد، ولا كرم الطرفين، وإنما الأصل هو المال، فمن كان ذا مال كان ذا أصل، أي إن الناس يمجدونه، ويعظمونه، وينسبونه إلي الأصل، ولو لم يكن ذا أصل كريم.

***

وقال يحيي بن أكثم يذكر حكما، استقرأها من حياته مع الناس، وعقله الراجح، وعلمه، وذكائه، وخبرته الطويلة مع الحياة والأحياء:

إذا قل مال المرء قل بهاؤه　　وضاقت عليه أرضه وسماؤه

وأصبح مردودا عليه مقاله　　وكان به قد يقتدي خطباؤه[1]

إذا قل مال المرء قل بهاؤه، وضاقت عليه الأرض بما رحبت، وصار مقاله كذبا مردودا، وقوله مسخفا، وكان الخطباء قبل ذلك يقتدون به في مقاله وحديثه، لكن الحال قد تغيرت، أي كان أصل العقل، رالحكمة، وفصل الخطاب، فصار مقاله مردودا عليه، وعقله لا قيمة له، وفكره ضائعا، وآراؤه فاسدة.

***

وقال أحيحة بن الجلاح:

إني أظل على الزوراء أعمرها　　إن الحبيب إلي الإخوان ذو المال

حكمة بالغة تلك التي ذكرها في الشطر الثاني من هذا البيت، ويبني عليها رأيه، أي إذا تقرر أن الحبيب إلي إخوانه وأصحابه ذوالمال الذي يملك منه الكثير، فإنني لهذه التجربة وتلك الخبرة، سأمتلك المال لأكون محببا إلي إخواني وأصحابي، فسوف أظل أجلب المال لأكون حبيبا.

***

وقال آخر:

---

(١) روضة العقلاء، ونزهة الفضلاء، ص٢٢٥

يغطي عيوب المرء كثرة ماله وصدق فيما قال وهو كذوب

ويزري بعقل المرء قلة ماله يحمقه الأقوام وهو لبيب

أي إن المال يغطي عيوب المرء، فيصير عند الناس بغير عيب، وصاروا يصدقونه حتي في كذبه، ويحقر عقل المرء قلة ماله يحمقه الأقوام وهو لبيب عاقل.

فأساس ذلك كله المال فحسب، وكأن المال هو الصادق، أو الكاذب وكأن الحكم علي المرء ليس لعقله، ولا لذكائه، ونبوغه، وفكره، وعمله، ودينه، وخلقه، لكن الحكم الحقيقي علي المرء إنما ينبني علي مقدار ما معه من المال.

فإذا كان كثير المال، فقد يداوي هذا المال عيوبه، ويزيل سقطاته، ويرفع هناته، ويصير صادقا فيما قال، ولو كان كاذبا.

أما إذا كان المرء قليل المال، فإن ذلك يزري بعقله، حتي لو كان عقله متوقدا ذكاء وعلما، وصار الناس يحمقونه، وينسبونه إلي الحمق، وهو لبيب حصيف أريب عاقل ذكي.

***

وقال آخر، يذكر ما يصنعه المال، وما يسببه الفقر بالإنسان، والنفس العالية الكريمة، والدنيئة الحقيرة، ورفعة إحداهما، ووضاعتها:

لعمرك إن المال قد يجعل الفتي نسيبا وإن الفقر بالمرء قد يزري

ولا رفع النفس الدنيئة كالغني ولا وضع النفس الكريمة كالفقر[1]

---

(١) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ص٢٢٦

أي إن المال يجعل المرء ذا قيمة وقدر عند الناس، كل منهم يتقرب إليه، والفقر يزري بالمرء، ويحقر قيمته، فالغني قد يرفع النفس الدنيئة الحقيرة، والفقر قد يضع النفس الكريمة.

وياللعجب من ذلك، إذ إن الفتي النسيب لا يزداد نسبه بالغني، ولا يزري بنسبه الفقر، لكن الناس علي خلاف ذلك، فقد جعلوا المال يعلي من نسب المرء، والفقر من المال يزري به.

وينبني علي ذلك أن النفس الدنيئة بهذا المقياس يرفعها الغني، والنفس الكريمة يضع من شأنها الفقر، مع أن النفس الدنيئة لا تعلو، والنفس الكريمة لا تسفل، لكن هذه مقاييس الناس في الحياة.

وقد بدأ الشاعر بيته الأول بالقسم، لعمرك، أي لعمرك قسمي، أي وحياتك.

ثم أكد قوله بإن، وقد، وكررها مرة ثانية، فقد ذكرهما مرتين، مرة مع المال وإعلاء النسب، ومرة مع الفقر ووضاعة النسب.

ثم ذكر في البيت الثاني أسلوبين للقصر، لأن المعني أن النفس الدنيئة لا يرفعها شئ إلا الغني، وأن النفس الكريمة لا يضعها إلا الفقر.

وأتي بالفعلين،رفع،وضع ماضيين،لوقوع ذلك بالفعل في دنيا الناس.

وجعل وصفي الدنيئة،والكريمة للنفس،لأن النفس هي التي توصف بهما.

***

وتتولد من هذه الفكرة فكرة العظة، والعبرة.

قال ابن دريد:

من لم يعظه الدهر لم ينفعه ما   راح به الواعظ يوما أو غدا

من لم تفده عبرا أيامه كان العمي أولي به من الهدي

***

بدأ هذه الحكم بقوله: من، إيذانا بأنه يخاطب العقلاء النابهين، فمن لم يعظه الدهر لم ينفعه وعظ الواعظين، ومن لم يستفد عبرا من الأيام كان عماه وضلاله أولي به من الهدي والرشاد.

حكم بالغة يسديها ابن دريد في مقصورته الرائعة، والمقصورة في الأدب العربي هي القصيدة التي تبني علي حرف روي واحد، وهو الألف المقصورة.

يقول ابن دريد: إن الدهر خير واعظ، والأيام أكبر معلم، فالدهر يلقي بوعظه، والعاقل من يستفيد من وعظ الدهر، ومن لم يستفد بما يوعظه به الدهر لم ينفعه وعظ الواعظ، مهما قال، أو ذكر، أو وعظ، ومن لم ينتفع بما تفيده به الأيام من عبر، فلا كان النفع يوما حليفه، ولا انتفع بعبر بعدها أبدا، وما كان له أن ينتفع بالهدي، ولكان الهدي بعيدا عنه، ولكان العمي أقرب إليه، ولكان العمي أولي به، وأحق، وأجدر من الهدي، فإذا كان لا ينتفع بالعبر، والوعظ من الأيام والدهر، فليكن العمي أولي به من الهدي، حتي لا ينتفع أبدا.

***

ومن العظة والعبرة المثل القائل: رب امرئ يسعي لآخر قاعد.

قال زهير بن أبي سلمي، أو النابغة:

أتي قومه منه حياء وكسوة ورب امرئ يسعي لآخر قاعد(١)

مثل سائر يدل علي أنه قد يكسب من لم يبذل جهدا من أجل الكسب، فقد يسعي أحد الناس لكسب الآخر، لا لكسبه هو، فهذا هو شقيق الذي وفد علي النعمان بن المنذر، لكنه طعن، وقتل، فوداه الملك، وبعث بماله إلي أهله، فقد سعي سقيق هذا سعيا حميدا لكسب الرزق، ووفد علي النعمان طمعا في العطية، ونال العطية، لكنه قتل، فأفاد غيره، وهم أهله.

قال إبراهيم بن المهدي:

قد يرزق المرء لم تتعب رواحله ويحرم الرزق من لم يؤت من تعب

مع أنني واجد في الناس واحدة الرزق أروغ شئ عن ذوي الأدب

ياثابت العقل كم عاينت ذا حمق الرزق أغري به من لازم الجرب(٢)

حكم بالغة، ومعان في غاية الغرابة، وفكرة صائبة مع أنها عجيبة، فقد يرزق المرء لم يتعب رواحله في طلب الرزق، والسعي عليه، وقد يحرم

---

(١) شرح ديوان زهير بن أبي سلمي ص ٣٢٧، الفاخر ص ١٧٥ - ١٧٦، مجمع الأمثال ٢٠١/١ - ٢٠٢، شعراء النصرانية ص ٧٢٢.

وفد رجل من بني عبس يقال له شقيق علي النعمان بن المنذر، أو بعض الملوك، فأعطاه، وحباه، وأكرمه، وإنه لكذلك إذ طعن في جنازته، فوداه الملك، وبعث بما كان معه إلي أهله، فقال زهير قصيدة، منها هذا البيت. وقيل إن أول من قال ذلك النابغة الذبياني، وكان قد وفد إلي النعمان بن المنذر وفود من العرب، فيهم رجل من بني عبس، يقال له شقيق، فمات عنده، فلما حبا النعمان الوفود بعث إلي أهل شقيق بمثل حباء الوفد، فقال النابغة حين بلغه ذلك: رب ساع لقاعد.

(٢) عيون الأخبار ١٢٩/٢

الرزق من بذل، وتعب، وعمل، وكدح، هذا أمر غريب، لأن الرزق بيد الله، ولأن الرزق على الله تبارك وتعالى.

ثم يقرر الشاعر أمرا غريبا، وجده في الناس، هو أن الرزق يروغ عن ذوي الأدب، ويبعد عنهم، حتى لا ينالوه، وكأنهم محرومون من الرزق.

ثم ينادي العقلاء قائلا لهم: كم من أحمق رزقه لازم له، أني أقام رزق، وأني سعي رزق، وكأن الرزق ملازم له ملازمة الجرب لصاحبه، هذا أمر جد غريب، ذوو الأدب لا يرزقون، والحمقى يلازمهم الرزق.

***

وأنشد الأبرش بذكاء شديد، وعقل صاف، وتصوف واضح، وأخلاق هادئة، وفكر سديد، وتوكل عليه تعالى:

وليس رزق الفتى من حسن حيلته ... لكن جدود وأرزاق وأقسام

كالصيد يحرمه الصائد المجيد وقد ... يرمي فيرزقه من ليس بالرامي[1]

يقرر عدة حقائق في هذين البيتين، ويقررها على أنها حقائق، لا تقبل جدلا، فهذا رأيه، أن الرزق جدود، وحظوظ، وليس من حيلة المرزوق، لكنه قسمة، فقد يحرم الصائد المجيد، ويرزق من لا يجيد الصيد، إذا رمى، فهذا حظه الحرمان، وذاك حظه الرزق.

فليس رزق الفتى مرهونا بحسن حيلته، لأنه لو كان كذلك لكان صاحب الحيلة الحسنة أكثر الناس رزقا، وصاحب العقل النابه أكثر الناس

(١) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ص١٥٢

حظا، وصاحب الفطنة أكثر الناس جدا، لكن الأمر غير هذا، وإنما هو جدود، وخطوط، وأرزاق يقسمها الله تعالي، ويهبها، ويمنحها، وأقسام يملكها الله تعالي، لأنه هو الذي يقسمها.

ثم صور ذلك بتصوير من وحي البيئة، وهو الصيد، والصيد كان موجودا في البيئة العربية، وهناك غرض في الشعر العربي، هو الطرديات يوضح هذا.

فالصيد لا يتعلق بإجادة الصائد، فالصائد المجيد ليس هو الذي ينال الصيد الكثير، وليس هو صاحب الرزق الكثير في الصيد، فقد يرمي الصائد المجيد، ويحرم من نيل ما ابتغي من الصيد، لأن رميه طاش، ولم يصب الصيد، وقد يرمي من ليس برام صيدا، وهو لا يدري كيف رمي، ومع ذلك فإنه يصيب صيده، ولا يخطئه، فيرزق هذا الصيد، ويحرم الصائد المجيد، حظوط، وجدود، وأقسام، وأرزاق.

***

***

وكذلك فكرة الوعد.

قال ابن الرومي في الوعد:

بذل الوعد للأخلاء سمحا   وأبى بعد ذاك بذل الوفاء

فبدا كالخلاف يورق للعيـ   ـن ويأبى الإثمار كل الإباء

أي بذل الوعد سمحا بغير أن يوفي به، فصار كشجر الخلاف يورق للعين، ولا يثمر، فهو منظر ومظهر بغير جوهر، أو فائدة في نظر الشاعر، مع أن هذا الشجر له فائدة لا شك أقلها ظله الظليل.

والصورة جميلة ومعبرة عما يريد الشاعر أن يقرره، فشجر الخلاف له منظر بغير ثمر ووعد المهجو أمل بغير تنفيذ.

***

وقال ابن دأب:

حلاوة الفعل بوعد ينجز   لا خير في العرف كنهب ينهز[1]

أي إن حلاوة الفعل في إنجاز الوعد، وليس في إخلافه، والفعل لا يكون، ولا يروق إلا إذا أعقب بإنجاز الوعد، لأن ذلك الإنجاز يدل علي صدق الوعد قولا وفعلا.

---

(١) العقد الفريد ١/٢٨٩

***

وقال ابن عبد ربه:

رجاء دون أقربه السحاب ووعـد مثل مالمع السراب

وتسويف يكل الصبر عنه ومطل ما يقوم له حساب

رجاء بعيد أبعد من السحاب، ووعد كالسراب، وتسويف يفوت الصبر دون تحقيقه، ومطل لا يقوم له حساب، وإنما هو فوق هذا.

فقد وصف كلا من ، الرجاء، والوعد، والتسويف والمطل بما يدل علي هجاء هذا الذي هذه صفاته، فالرجاء أقربه دونه السحاب، فهو أبعد من السحاب، والوعد لا يتحقق، فهو كلمع السراب، بغير ماء، وتسويف ينقضي الصبر دونه، أما المطل فهو حقيقة.

***

وقال الراعي يذكر أملا عرض له، ويتمني تحقيق هذا الأمل، ليظفر به، وكان قد مني نفسه بتحقيق الأمل، فهل يتحقق؟

أملت خيرك هل تأتي مواعده فاليوم قصر عن تلقائه الأمل[1]

وعد مكذوب لن يتحقق، وهو يأمل أملا مكذوبا، فيعرف في النهاية أن الأمل قد قصر عن تلقاء هذا الخير، يقرر أنه أمل خيره، والخير مأمول دائما، ويستحق أن يكون مأمولا، لكنه يتساءل: هل يأتي موعد تحقيق

---

(١) لسان العرب ٢٠/١٢١

هذا الأمل، ويجيب: فاليوم قصر عن تلقائه الأمل.

***

وقال بشار:

قد يسئ الفتي ولا يخلف الوعـ د فأوفي ما قلت بالروحـــاء

إن وعد الكريم دين عليـــه فاقض واظفر به علي الغرماء[٢]

أي قد يقبل الإنسان أن يسئ أية إساءة، لكنه يأبي أن يخلف الوعد، فإخلاف الوعد أمر جلل، لذا فالكريم لا يخلف وعده أبدا، لذا كان الوعد من الكريم كأنه دين عليه، والدين لازم الوفاء، فيصير وعد الكريم لازم إيفاؤه كالدين عليه، وذلك لأنه وعد كريم، يؤكد، علي الوفاء بالوعد.

وإن كان بشار هنا يطلب من محبوبته الوفاء بالوعد، ومطل الغانيات أفضل من إيفاء العهد، لكن الشاعر أتي بهذه الفكرة كقضية عامة، من حيث وعد الكريم، وعدم إخلاف الوعد، فكان هذا المعني الجميل.

***

وقال كعب بن زهير يتحدث عن محبوبته سعاد، في أول قصيدته في مدح الرسول صلي الله عليه وسلم، وقد بدأها بالغزل:

---

(١) إخلاف الوعد: عدم تنفيذ ما ألتزم به الواعد، الروحاء: موضع، الكريم: ضد اللئيم، دين: قرض، اقض: احكم بذلك، والمخاطب بذلك كل من يصح خطابه، اظفر: من الظفر، وهو الفرز، الغرماء: جمع غريم، وهو من عليه الدين.

أكرم بها خلــة لو أنهــا صدقت ... موعودها أو لوان النصح مقبول

لكنها خلـــة قد سيط من دمها ... فجع وولع وإخلاف وتبديـل

فما تدوم علي حال تكــون بها ... كما تلــون في أثوابها الغــول

ولا تمسك بالوعد الذي وعـــدت ... إلا كما يمسك المــاء الغرابيــل

فلا يغرنك ما منت وما وعـدت ... إن الأماني والأحـلام تضليــل

كانت مواعيد عرقوب لها مثلا ... ومامواعيدها إلا الأباطيل[1]

يذكر عدم خلف الوعد، والكذب، والتحول في السلوك، وعدم الدوام علي حال، والتلون، وأن الوعد كالأماني والأحلام تضليل، وضرب خلف الوعد عند عرقوب مثلا، وهو مثل في خلف الوعد يصلح أن يضرب في معناه.

يقول كعب: أكرم بسعاد خلة لو أنها صدقت موعودها، كأنها لا تصدق موعودها، وتخلف وعدها دائما، لذا أكد ذلك بأن دمها قد مزج بالإخلاف، والتبديل، فهو لذلك لن ينتظر منها تنفيذ الوعد.

---

(١) أكرم بها: كرم الأصل والشرف، أو السخاء، خلة: صديقة، لو: للتمني أو شرطية، موعودها: ما وعدت به، النصح: ما يزينه لها، سيط: خلط ومزج، فجع: من إصابة المكروه، ولع: كذب، إخلاف: عدم الوفاء بالوعد، تبديل: تحويل في السلوك، الغول: ما يغتال الإنسان، والمراد السعلاة أنثي الشياطين، وهي من خرافات العرب، وهي كثيرة التلون في الفلوات للتضليل، تمسك: تتمسك، بمعني العهد، زعمت: ضمنت وكفلت، أو قالت قولا باطلا، لا يغرنك: لا يخدعنك، منت: أطمعت، الأماني: جمع أمنية، الأحلام: ما يعرض للنائم من رؤي وخيالات، تضليل: تضييع وإبطال، كانت: بمعني صارت، عرقوب: جاهلي كان بيثرب ضرب به المثل في خلف الوعد، وعد أخاه ثمر نخلة، فقال له: ائتني إذا أطلع النخل، فلما أطلع إلي أن يبلح، ثم إلي أن يزهي، ثم إلي يرطب، ثم إلي أن يتمر، فلما صار البلح تمرا جزه من الليل، ولم يعط أخاه شيئا، الأباطيل: جمع غير قياسي لباطل.

ثم يصفها أيضا بالفجع، والولع، والكذب تأكيدا لخلفها الوعد، وكذلك عدم دوامها علي حال، وتلونها كما تتلون الغول.

وهي من خرافات العرب، كانوا يزعمون أنها تظهر في الفلوات بصور مختلفة، لذا ضربت مثلا في التلون.

ثم يقول: إنها- أي سعاد- لا تتمسك بوعدها فهي كالغرابيل التي لا تمسك الماء، وأني للغرابيل إمساك الماء، وكذلك سعاد في التمسك بالوعد.

ثم يعود إلي اليأس من حالها معه قائلا لنفسه: فلا يغرنك ما منت، وما وعدت، لأن ذلك كله أمان وأحلام نوم، ورؤي، وخيالات، وهي كلها تضليل، وتضييع، وإبطال، فلا يجب التعويل عليها.

ثم ضرب مواعيد عرقوب مثلا لها في إخلاف الوعد، فقد وعد أخاه ثمر نخلة إذا أطلع النخل، ولم يحقق وعده، حتي أثمر النخل فجزه ليلا، ولم ينفذ ما قطعه من عهد علي نفسه لأخيه.

***

وربما كان هذا الوعد في أوله مصدر سعادة.

قال ابن الرقيات:

فإما تنجزي وعدي وإما   نعيش بما نؤمل منك حينا[1]

---

(١) مختار الأغاني في الأخبار والتهاني ١٢/٥

أي إما إنجاز الوعد، وهو أمر سار، وإما العيش علي هذا الأمل، وهو أيضا أمر سار، فالإنسان يسعد بالوعد، لأن هذا الوعد إمّا أن ينجز، وهذه سعادة للموعود، وإما أن لا ينجز فالموعود قد عاش زمنا يمني نفسه بإنجاز الوعد، وهذه سعادة أيضا.

***

وقال آخر:

منى إن تحققت تكن أجمل المنى   وإلا فقد عشنا بهازمنا رغدا

أي منى جميلة إن تحققت، وإن لم تتحقق فقد عشنا بها زمنا سعيدا انتظارا لتحقيقها، مسايرة لمعنى البيت السابق.

فهذه منى، والمنى- من حيث هي كذلك- جميلة، يعيش الإنسان في السعادة بها زمنا، فإن تحققت كانت منى جميلة في الوعد، وجميلة في التحقيق، وإن لم تتحقق هذه المنى، كانت- من حيث هي منى- جميلة في الوعد بها، وعلى ذلك فقد عاش الموعود بها زمنا جميلا، يمني نفسه بتحقيق هذه المنى، وهذا رأي قد يوافق عليه بعض الناس.

لكن هناك رأي يقول: إن المنى لا تكون حقا منى إلا بتحقيقها، وإن خلف الوعد بها قد يزيد من قسوة الإحساس بالخداع الذي حدث بالوعد بها، لكنها علي أية حال آراء.

***

وهكذا رأينا اختلاف تعبير الشعراء عن الفكرة الواحدة بأساليب

مختلفة، ومعان متفاوتة، ومضامين متباينة، وأفكار قد تتوافق حينا، لكنها تختلف أحيانا.

وذلك لأن الأدب ليست له مقاييس تعتمد على الماديات، وإنما للأدب مقاييسه المعنوية، والنفسية، وذلك ما دعا بعض النقاد إلي دراسة أدب الأدباء، أو شعر الشعراء بمقاييس نفسية.

وإن كنا نوافق علي ذلك لكننا لا نسمح لأنفسنا أن نصل بتلك المقاييس إلي مقاييس أبعدت الأدب عن هدفه النبيل، وغرضه السامي، الذي هو أثر من آثار النفس الإنسانية الراقية دائما برقي الروح الإنسانية الشفافة التي تحلق في عنان السحاب، كما خلقها الله تعالي.

***

الفصل السابع

نظرات فنية في لغة الأدب العربي

اللغة والأدب لا ينفصلان، فاللغة تأخذ دورها الأساس في التعبير الأدبي، واللغة هي مادة التعبير عن كل ما يعتري النفس، فإذا ما عبرت اللغة عن الجانب الأدبي من النفس الإنسانية، فإن هذا التعبير هو ما يطلق عليه الأدب.

حقيق بنا أن نبين كيف يكون التعبير أدبيا، وسمات هذا التعبير الأدبي، لكننا في الوقت نفسه إنما نربط بين اللغة والأدب معا في التعبير الأدبي شعرا، أو نثرا.

فاللغة والأدب لا ينفصلان حقا، وإن شئنا قلنا إنهما لا ينفصلان في التعبير الأدبي، وقد تنفصل اللغة عند التعبير غير الأدبي، أما التعبير الأدبي فهو رباط قوي بين الأدب واللغة في شكل من الأشكال الأدبية المختلفة، شعرا، ونثرا.

وقد تكون اللغة موضعا من مواضع نقد التعبير الأدبي، كما قال طرفة بن العبد، وصار قوله مثلا: استنوق الجمل، بعد ما سمع قول المتلمس:

وإني لأمضي الهم عند احتضاره　　　بناج عليه الصعيرية مكدم

والصعيرية: سمة في عنق الناقة، فجعلها سمة في عنق الجمل، فقال طرفة قولته المشهورة التي صارت مثلا.

ولذلك أقول: إن هذه الألوان من التعبيرات الأدبية واللغوية التي تهدف إلى توضيح جمال اللغة العربية، وروعة التحدث بها، وحسن

التعبير بها إن هي إلا خطوات في طريق اللغة العربية، لغة القرآن الكريم، وأدب العرب، حتى تبدو في صورتها الجديرة بأن تبدو فيها، وتتبوأ مكانتها اللائقة بها، وسأظل - ماحييت - نصيرا للغة القرآن الكريم وأدب العرب، حبا في قرآنها، ورغبة في جمالها، وسعادة بأدبها.

وها هي ذي بعض الأساليب اللغوية، والأدبية التي هي قل من كثر في بهاء اللغة العربية.

***

***

أخوة الصفات.

قال قيس بن عيذارة:

وأبيك إن الحارث بن خويلد لأخو مدافعة له مجلود[١]

أي أخو مجالدة، ودفاع متصف بذلك، أو ملازم له، أي هو مدافع، مجالد.

***

وأنشد ابن الأعرابي:

من عف خف علي الوجوه لقاؤه وأخو الحوائح وجهه مبذول[٢]

أي صاحب الحوائح الملازم للاحتياح، الموصوف به، أو المحتاج الذي لا يجد ما يسد حاجته، مبذول وجهه دائما.

***

وقال حاتم الطائي:

وإني كأشلاء اللجام ولن تري أخا الحرب إلا ساهم الوجه أغبرا[٣]

---

(١) ديوان الهذليين ٧٣/٣

(٢) لسان العرب ٦٨/٣

(٣) ديوان حاتم الطائي، ص ٤٨

أشلاء اللجام: حدائده بلا سير.

أخو الحرب إن عضت به والحرب عضها　　وإن شمرت يوما به الحرب شمرا

أي المحارب، الملازم للحرب، صاحب الحرب، فالمحارب ساهم الوجه، أغبره من الحرب، وهو إن عضت به الحرب عضها، وإن شمرت به الحرب شمر واستعد لها.

***

وقال ابن الرومي في رثاء ابنه:

ثكلت سروري كله إذ ثكلته　　وأصبحت في لذات عيشي أخازهد

أي زاهد، أو صاحب زهد، أو ملازم زهد، أو متصف به، أي صرت زاهدا في لذات عيشي، فقد ثكلت سروري، يقصد حين فقد ابنه محمدا.

***

وقال سحيل بن وثيل:

أخو خمسين مجتمعا أشدي　　ونجذني مداورة الشئون[2]

أي صاحب خمسين سنة، أو ملازم خمسين سنة، لازلت قويا محنكا، مجربا، خبيرا.

---

(١) ثكل: فقدت ولدها، ومن الأمثال المشهورة ثكل أرأمها ولدا، المثل ٧٧١، مجمع الأمثال للميداني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، لذات العيش: مستلزمات الحياة، فازهد: أي ملازم زهد، فهو كناية.

(٢) الأصمعيات، ص١٩

***

وقال هرم الغنوي:

ألا أبلغ أبا حنص رسولا فدي لك من أخي ثقة إزاري[1]

أي صاحب ثقة، أو ملازم لها.

وقال لبيد:

ونائحتان تندبان بعاقل أخي ثقة لاعين منه ولا أثر[2]

أي صاحب ثقة، أو ملازم لها، تندبه نائحتان، وهو لاعين منه ولا أثر له.

***

وقال الفرزدق:

تقول قدا فلولي عليهما وأفردت ألا هل أخوعيش لذيذ بدائم[3]

أي صاحب عيش لذيذ، أو الملازم لعيش لذيذ، أي لا يدوم صاحب هذا العيش اللذيذ.

***

---

(١) كتاب الوحشيات ص١٠٨

(٢) كتاب الوحشيات ص١٥٤

(٣) لسان العرب ٦٢/٢٠

وأنشد ثعلب:

إذا رأيت ازورارا من أخي ثقة   ضاقت علي برحب الأرض أوطاني[١]

أي صاحب الثقة، أو الملازم لها، الموصوف بها، أي إذا رأيت ازورارا عني منه ضاقت علي الأرض بما رحبت.

***

وقال زهير:

أخي ثقة لا تهلك الخمر ماله   ولكنه قد يهلك المال نائله[٢]

أخي ثقة: أي يوثق بما عنده، أو ملازم للثقة، متصف بها، ثم وصفه وصفا يدل علي مدحه بالكرم.

***

وقال كعب بن زهير:

ولا يزال بواديه أخو ثقة   مطرح البز والدرسان مأكول[٣]

---

(١) روضة العقلاء ونزهة الفضلاءص ٢٠٥

(٢) شرح ديوان زهير بن أبي سلمي ص١٤١-١٤٢

أخو ثقة: يوثق بما عنده من الخير لما علم من جوده، وكرمه، نائله: عطاؤه، ويروي لا تتلف الخمر ماله، ولكنه قد يتلف.

(٣) يصف الأسد المذكور قبل هذا البيت بأن آثار صرعاه من الشجعان عظيمي الثقة في أنفسهم وبأسهم، لا تفارق واديه، أخو الثقة: الشجاع الواثق بشجاعته وبأسه علي الكناية، مطرح: بصيغة اسم المفعول من طرح بتشديد الراء المبالغ في طرحه، أي إلقائه وقذفه علي الأرض،أي مبعثر البز، والبز: هنا السلاح، والدرسان: جمع درس، بكسر الدال، هو الثوب الخلق.

أي ملازم لها، لا ينفك عنها، أو متصف بها، قد فتك به هذا الأسد؛ فهو أسد يفتك بالشجعان، لقوته، وشراسته.

***

وقال شاعر:

يا أيها المتحلي غير شيمتـه   إن التخلق يأتي دونـه الخلـق

ولا يؤاتيك فيما ناب من حدث   إلا أخو ثقة فانظر بمن تثق[1]

أي صاحب الثقة أو المتصف بها، الملازم لها، لا يؤاتيك في الأحداث إلا هو، فانظر بمن تثق، ليكون عونا لك.

***

وقال المهلهل:

لم يطيقوا أن ينزلوا ونزلنا   وأخو الحرب من أطاق النزولا[2]

أخو الحرب: الملازم لها، المتصف بها، وهو من أطاق النزول عن الخيل، أو الإبل إلي الخيل، فهو الجدير بهذا الوصف.

---

(١) العمدة ١/٢٢١

(٢) شروح سقط الزند١/٦٦، الأغاني ٤/١٤٩، الخزانة٢/٣٠٥

النزول في الحرب علي ضربين: أحدهما في أول الحرب، وهو أن ينزلوا عن خيلهم، ويقاتلوا علي أقدامهم، إذا عقرت الخيل، أو كان موضعا لا تتصرف فيه الخيل، وهذا هو الذي أراد مهلهل، والضرب الثاني من النزول هو أن ينزل الفريقان عن إبلهما إلي خيلهما فيتضاربوا، والنزال والنزول بمعني.

***

وقال ذو الرمة:

وحاملة تسعين لم تلق منهم   على مواطن إلا أخا ثقة صقرا[1]

أخو ثقة: أي المتصف بها، الملازم لها، يقصد السهم الذي وصفه بالصقر، يصف الكنانة، وهي وعاء السهام.

***

وقال المزرد:

فلا مرحبا بالشيب من وفد زائر   متى يأت لا تحجب عليه المداخل

وسقيا لريعان الشباب فإنه   أخو ثقة في الدهر إذ أنا جاهل[2]

أي ملازم للثقة، أو متصف بها، أي ريعان الشباب وأوله هو أخو ثقة في الدهر، وذلك في جهالة الشباب.

وقال زهير:

ومستأسد يندي كأن ذبابه   أخو الخمر هاجت حزنه فتذكرا[3]

---

(1) المصون في الأدب ص٩٢، ديوان ذي الرمة ص١٨٢

حاملة تسعين: يعني الكنانة، لم تجد لها ولدا إلا أخاثقة، يريد بأخي ثقة السهم.

(2) المفضليات ص٩٤، منتهى الطلب١/١٨٥

ريعان الشباب: أوله.

(3) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، ص٢٦٣ . ٢٦٤

أي ورب مستأسد، أي نبت كثر وطال، يندي: من الندى، وأخو الخمر: يعني صاحب الخمر، شبه صوت الذباب وطنينها بترنم السكران إذا غنى.

أخو الخمر: يعني صاحب الخمر، يقصد الشارب إذا لعبت الخمر برأسه، يشبه صوت الذباب بترنم السكران من الخمر.

***

وقال المتنبي:

ذو العقل يشقي في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم[1]

أخو الجهالة: أي صاحبها الملازم لها، المتصف بها، الجاهل، ينعم في الشقاوة، والعاقل يشقي في النعيم، بون بعيد، وفرق شديد بينهما، وفي حاليهما مع السعادة، والشقاوة، والنعيم، والعقل، والجهل، وهكذا المتنبي، شاعر الحكمة غير مدافع، ولا منازع.

***

- نشدتك الله، نشدتك الله: أي أقسمت عليك بالله، هذا هو المعني العرفي لهذا التعبير، أما معناه الأصلي فهو: ذكرتك بالله، ونشدتك الله، تعبير ورد في الشعر كثيرا بمعني القسم، وهو المعني العرفي.

قال أبان اللاحقي:

نشدت بحق الله من كان مسلما أعم بما قد قلته العجم والعرب

.(1) العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب ٢/ ٦٣٠

يقول: العاقل يشقي بعقله، وإن كان في نعيم من الدنيا لتفكره في العواقب، وعلمه بتحول الأحوال، والجاهل ينعم وهو في الشقاوة لضعف حسه، وقلة تفريقه بين حال وحال.

أي أطلب ذلك بحق الله، أو أقسمت بالله، أو بحق الله، أو ذكرت كل من كان مسلما بحق الله، والمعني علي الاهتمام، سواء كان قسما، أو تذكيرا، فهو تهييب من ذكر الله، أو قسم بالله، وكلاهما معناه الترهيب، والتخويف، أو التأكيد للقول المقصود، أو المعني المراد تقريره.

***

لعن الله الشيطان.

قال الأصمعي: معناه باعده الله، واللعن: البعد، وأنشد للشماخ في هذا المعني يصف مكانه من ماء، نفي عنه القطا: [1]

وماء قد وردت لوصل أروي   عليه الطير كالورق اللجين

ذعرت به القطا ونفيت عنه   مقام الذئب كالرجل اللعين[2]

---

(١) الزاهر ص ٢٥٠، الفاخرص ٨

(٢) المعاني الكبير ١/ ١٩٤، خزانة الأدب ٢/٢٢٣، شرح المفصل ٣/١٣، شرح أدب الكاتب ص١١١، ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني ص٣٢٠-٣٢١، الزاهر ص٢٥٠ الطير: أراد ريش الطير، الورق اللجين: ورق الخطمي إذا أوخف أي إذا ضرب باليد ليثخن، والوصف للماء، أي الماء ثخين مما امتزج به كالورق، أو اللجين: الذي قد ركب بعضه بعضا فيتلزج،ويكون الوصف للطير، يشبه كثرة ريش الطير وتراكمه علي هذا الماء بالورق الساقط من الشجر، إذا كثر وركب بعضه بعضا، أو إن الطير قد اتخذت فيه الأوكار لخلائه، وقلة من يرده، فهي لكثرتها وتكابسها كالورق، ذعرت به: أفزعت ونفرت، والقطا أهدي الطير، والذئب أهدي السباع وهما السابقان إلي الماء، نفيت: طردت وأبعدت، يريد أنه ورد هذا الماء مبكرا، مقام الذئب: أي الذئب، اللعين: المطرود المقصي، واللعين وصف للذئب، أو للرجل، وقيل: كان للرجل في الجاهلية إذا غدر وأخفر الذمة جعل له تمثال من طين ونصب وقالوا: إن فلانا غدر فالعنوه، فالرجل اللعين هنا هو هذا التمثال، وقيل: شئ ينصب وسط المزارع تستطرد به الوحوش.

أي المباعد، وقال غير الأصمعي: اللعن: الطرد، ومعنى كالرجل اللعين: كالرجل المطرود، والمعنيان متقاربان، فالبعد والطرد متلازمان، أو الإبعاد هو الطرد، وباعده الله، أي طرده.

وقال آخر، ونسبها بعض الرواة لآدم عليه السلام حين قتل ابنه قابيل هابيل، فيكون المقصود الشيطان، وأنا لا أري لهذه الرواية سندا، إذ كيف ينسب شعر لآدم عليه السلام؟

وجاورنا عدو ليس يفني لعين لا يموت فنستريح[1]

أي مطرود من رحمة الله، أو مبعد كما يبعد الشيطان، أو ملعون مسبوب من كل شخص.

***

وقال الفرزدق يهجو جريرا:

لعن الإله بني كليب إنهم لا يغدرون ولا يفون لجار

أي طردهم الله من رحمته، وأبعدهم من جنته، أو طردهم عن المؤمنين، وأبعدهم عن المكرمين، وهي جملة خبرية لفظا، إنشائية معنى الغرض منها الدعاء عليهم باللعن، والطرد، والإبعاد.

***

(١) جمهرة أشعار العرب ص٢١ . ٣١

وقال الأخطل:

لعن الإله من اليهود عصابة　　بالجرع بين جلاجل وصرّار

أي طردهم الله من رحمته، وأبعدهم عن جنته، يدعو عليهم بالطرد، والإبعاد، والرجم، وذكر الفعل ماضيا للدلالة علي تحقق الوقوع، مع أنه يقصد اللعن في المستقبل، واختار الجملة الخبرية ليؤكد هذا المعني، مع أنه يقصد الإنشاء معني، لأنه يريد الدعاء عليهم، وهذا كله تأكيد لمطلبه، ورغبته، لأنه يريد أن يجبه خصمه بهذا كله، وحسبنا أن الأخطل من شعراء النقائض الذين يجيدون فن الهجاء العنيف الذي عرف في العصر الأموي.

***

التصوير بالشيطان.

قال عنترة في وصف من يحاربونه، ويضيق بهم، وبأخلاقهم، وذلك من فعل الدهر:

كم يبعد الدهر من أرجو أقاربه　　عني ويبعث شيطانا أحاربه[1]

يصف عدوه بالشيطان، فيكثر ما يبعد الدهر عني كل من أرجو أن يقربه مني، فهو يبعد عني أحبابي، ويبعث الشياطين من الأعداء، يحاربونني، وهذا من فعل الدهر الذي يعاكس رغبتي.

وقال جرير:

---

(١) ديوان عنترة ص٩١

أيام يدعونني الشيطان من غزل وهو يهوينني إذ كنت شيطانا[1]

أي يدعونه الشيطان بقصد النساء، والبيت غزل واضح، وتظرف معروف لجأ إليه جرير، فيقول: إن الفاتنات يدعونني الشيطان غزلا، وهن لا يهوينني، إلا إذا كنت شيطانا، وهذا تهكم، وسخرية.

***

ووصف ابن أبي عتيق لعمر بن أبي ربيعة أمرأة من قومه، وذكر جمالا رائعا، وعقلا فائقا، فرآها عمر فشبب بها، فغضب ابن أبي عتيق، وقال: تتشبب بامرأة قومي؟ فقال عمر:

لا تلمني عتيق حسبي الذي بي إن بي عتيق ما قد كفاني

إن بي مضمرا من الحب قد أبـ لى عظامي مكنونة وبراني

لا تلمني وأنت زينتها لي ....

فقال ابن أبي عتيق: أنت مثل الشيطان للإنسان[2]

***

وصفه بالشيطان في الوسوسة والتزيين.

فقال عمر: هكذا ورب الكعبة قلت، فقال ابن أبي عتيق: إن شيطانك ورب الكعبة ربما ألم بي.

---

(١) لسان العرب ١٧/ ١٠٤

(٢) زهر الآداب وثمر الألباب ١/ ٢٩٥، نهاية الأرب في فنون الأدب ٣/ ٧٨

والشـاهد هنا أن عمـر بـن أبي ربيـعـة وصف ابـن أبي عتـيـق بـأنـه في وسوسته له كالشيطان، لأنه زين له امرأة، فوصفها ابن أبي ربيعة، ومن عجب أن ابن أبي عتيق أكمل الأبيات بهذا الشطر الذي وصف فيه ابن ربيعة ابن أبي عتيق بالشيطان، فكأن ابن أبي عتيق يصف ابن أبي ربيعة أيضا بهذا الوصف.

***

وقال الراجز يصف امرأة، وزوجها، وصفا عجيبا، يدل على ضيقة منهما، وتبرمه بهما، فهجاهما بقوله:

أبصرتها تلتهم الثعبانا

شيطانة زوجت شيطانا[1]

صورها بالشيطانة وزوجها بالشيطان، والعجيب أنه يقول: أبصرتها أي رأيتها رأي العين، يؤكد على هذه الحقيقة، وهي: أنه أبصرها تلتهم الثعبان، ثم عكف عليها وعلى زوجها بالهجاء، فصورهما بالشيطان.

***

وقال أبو العباس الأعمى، وكانت له إبداعات طيبة، وهو ممن عاصر

---

(١) الكامل في اللغة والأدب ٢/ ٧١

زعم أهل اللغة أن كل متمرد من جن أو إنس يقال له شيطان، وأن قولهم تشيطن إنما معناه تخبث وتنكر، وقد قال الله عز وجل شياطين الإنس والجن.

الدولتين: الأموية، والعباسية، يصف أحد المجان بقوله:

ويلبس بالنهار ثياب إنس وشطر الليل شيطان رجيم[1]

أي من الإنس في النهار، وشيطان بالليل، يصوره تصويرا يوضح ضيقه من خلقه، وتبرمه من طباعه، فهو يلبس ملبس الإنس بالنهار، وهو شيطان رجيم بالليل، تصرف غريب عجيب.

***

وقال أبو تمام:

فإذا شربت كثيره فكثيره سرج عليك لمركب الشيطان

فاحذر بجهدك أن أراك جنيبه بعد العشاء تقاد بالأشطان[2]

جعله مركبا للشيطان يقوده بالأشطان، يقول: إذا شربت كثير الخمر، فكثير الخمر هو السرج عليك، ليركبك الشيطان، فالخمر حبائل الشيطان، ويحذره أن يكون جنيبه، فهو مركب، يقاد بالأشطان كالخيل والإبل، وهذا تصوير رائع، حيث جعل الإنسان الذي يشرب الخمر مركبا للشيطان، والعجيب أنه ولد صورة أخري من هذه الصورة، محذرا إياه أن يكون خنيبا، والجنيبة: هي الدابة التي تقاد إلي جانب الدابة، ليتعاور المسافر ركوب إحداهما، وأكمل الصورة بقوله: تقاد بالأشطان.

---

(١) مختار الأغاني٤/٢٣٤

(٢) ديوان أبي تمام ٤/٥٤٣

***

وقال دعبل لمامات المعتصم الخليفة العباسي:

قد قلت حين غيبوه وانصرفوا   في شرقبـر لشر مدفـون

اذهب إلي النار والعذاب فما   خلتك إلا من الشياطين[١]

يهجو الخليفة المعتصم ثامن الخلفاء العباسيين، بعد موته، بدلا من رثائه، حيث صوره بالشيطان، يقول له: اذهب إلي النار والعذاب، ويذكر تعليلا لذلك قائلا: فما خلتك إلا واحدا من الشياطين، والأمر في قوله: اذهب للدعاء، أو التمني.

***

والعرب تقول للشئ إذا استصعبوه: إنه شيطان، وهذا التعبير شائع عندهم، ويقال هذا للعاقل، وغير العاقل، بل قد يقال للجماد وهذا أمر في غاية الغرابة، وذلك لا ستقباحهم الشيطان في عمله، ووسوسته.

قال الشماخ:

ما ليلة الفقيـر إلا شيطان

ساهرة تودي بروح الإنسان[٢]

---

(١) الأغاني ١٤٥/٢٠

(٢) ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني ص٤١٣، معجم البلدان ٣٨٨/٦، معجم ما استعجم ٣/٦٢١، الأزمنة والأمكنة ١٥٩/٢

الفقير: بئر، أوركية، أو مغازة، جعلها شيطانا لما يلقون فيها من التعب، ولأن السير فيها متعب، ساهرة: يسهر فيها.

أي السير فيها متعب، فجعل الليلة في هذا المكان صعبة شديدة، لا يقدر عليها، ومن أجل ذلك وصفها بأنها شيطان، فجعل الليلة نفسها شيطانا، ولعله ضرب من المجاز العقلي، كما جعل الليلة ساهرة، وهو مجاز عقلي كذلك، وقد استخدم أسلوب القصر للتأكيد، والتخصيص، والشاعر يصف بئرا، أو ركية، أو مغازة، قائلا: إن الليلة في هذا المكان، أوليلة كنا في هذا المكان ليلة كأنها شيطان في الضيق بها، والتعب، والمشقة، والجهد.

***

قال الهمذاني على لسان البطل في المقامة القزونينية، يفخر بعمله، وصفاته، وخداعه الناس، وتلونه، وكأنه يقول: هأنذا أتصف بهذه الصفات:

أنا حالي من الزما	ن كحالي من النسب
نسبي في يد الزما	ن إذا سامه انقلب
أنا أمسي من النبيـ	ط وأضحي من العرب[1]

أي إنه يتلون تلون النبيط في المساء، ثم يصبح عربيا كأنه لم يتغير، ولم يتلون، وهذا أمر لا يصح الفخر به، والتباهي، لكن الهمذاني يفخر بذلك، ليؤكد ما يصنعه في المقامات من أعمال، هي من قبيل التلون.

---

(١) المقامة القزوينية

***

وقال الهمذاني أيضا في المقامة البلخية:

إن لله عبيدا أخذوا العمر خليطا

فهم يمسون أعرا با ويضحون نبيطا[1]

أي يتلونون، فهم أعراب بالليل، نبيط بالنهار، وذلك أمر مقصود، فهم يتلونون بقصد، لخداع الناس، وكأن البطل يقول: إن لله عبيدا، أنا منهم، أخذوا العمر خليطا، وأنا أيضا أصنع ذلك، فأنا أمسي من الأعراب، وأضحي من النبيط.

***

قال ابن الرومي يصف قوما بمثل هذا الوصف الذي ربما لا يتوافق لكنه حقيقة واقعة يصفها ابن الرومي:

فيهم لكنه النبيط ولكن تحتها جاهلية الأعراب[2]

أي يبدون مظهر النبيط، وهم أعراب، ففيهم نطق النبيط بلكنتهم، لأنهم لا يحسنون العربية، لكن تحتها جاهلية الأعراب، أي هم أعراب حقيقة، علي رغم ظهور لكنة النبيط.

***

---

(١) المقامة البلخية

(٢) ديوان ابن الرومي ١/٢٨٢

وقال ابن الرومي أيضا:

عجبت من معشر بعقوتنا باتوا نبيطا وأصبحوا عربا[1]

أي يتغيرون ويتلونون، فهم نبيط بالليل، وعرب بالنهار، أي يتلونون كما شاءلهم التلون، حتي أنهم في اليوم الواحد يتغيرون، فيبيتون نبيطا، ويصبحون عربا، حقا، ما أغرب هذا التلون.

***

وقال أبو العلاء المعري:

أين امرؤ القيس والعذاري إذ مال من تحته الغبيط

استعجم العرب في الموامي بعدك واستعرب النبيط[2]

أي اختلط لسان هؤلاء وأولئك، فأين أنت يا امرأ القيس، وأين لهجتك العربية الفصيحة، وأين ألفاظك السليمة، وأين لغتنا العربية الفصحي، التي كانت لغة البدو، والعرب في الجاهلية،، وهي لغة امرئ القيس، حين يصف نفسه في الغزل مع العذاري، ويذكر أنه مال من تحته الغبيط، من فوق الدابة، أين هذه اللغة العربية الفصيحة، يتحسر علي ماضي اللغة العربية ويقول: استعجم العرب، واستعرب النبيط، واختلط

(١) ديوان ابن الرومي ٢٩٩/١

(٢) شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني ص٢٤ . ١٠٥

العرب بالنبيط، فصارت اللغة العربية، واللهجة مضطر به مختلطة يتحسر علي الماضي العظيم للغة، والحاضر المضطرب لها.

***

وقال آخر:

كأن علي أكتافهم نشو غرقد　　وقد جاوزوا نيان كالنبط الغلف[1]

يقصد أنهم كالنبط، وليسوا نبطا، يقصد أنهم صاروا عندما جاوزوا هذا المكان كالنبط الغلف الذين لا يحسنون العربية، ولا يجيدون نطقها الفصيح، بلكنتهم الأعجمية، يصفهم في لهجتهم، كما يصفهم في مكانهم بعد أن جاوزوا هذا المكان، وتوغلوا في بلاد النبط والآعاجم صاروا نبطا، لا يختلفون عن النبط، فبعد أن صاروا مع النبط كأنهم نبط، كما يصفهم في طباعهم، وشكلهم، فهم صاروا نبطا، وهم في شكلهم كالنبط الغلف الذين لا يجيدون العربية، أو النبط الغلف الذين لم يتأثروا بغير حياتهم، وبيئتهم، وعلي الأحري فقد جعلهم نبطا، وهم ليسوا بأنباط، وهو هنا يذكر الظاهر علي الرغم من الباطن المختلف، فقد صاروا كالنبط الغلف شكلا، ومظهرا.

***

---

(١) لسان العرب ٢٠/١٩٩

قال أبو عبيدة:

ومن الشوارد التي لا أرباب لها قوله:

أكول لأرزاق العباد إذا شتا   صبور علي سوء الثناء وقاح [1]

أي سيئ الأدب، والخلق، وهو صبور علي سوء الثناء، أكول لأرزاق العباد، وقت الجدب، وهذه المعاني كلها تفيد الهجاء، والذم، ولا يخفي أثر صيغتي المبالغة في التعبير، أكول، صبور.

***

وقال البسامي يذكر حكمة قيمة، تدل علي خبرة طيبة بالحياة والأحياء، وسبحان الله، والحياء شعبة من الإيمان:

إذا رزق الفتي وجها وقاحا   تقلب في الأمور كما يشاء [2]

يقصد الوجه المبتذل الذي لم يصنه صاحبه عن التعفف، أو الوجه الذي لا يبالي بما يصنع صاحبه من الخطأ، أي الذي لا يندي خجلا وحياء، وصدق الرسول صلي الله عليه وسلم: الإيمان بضع وستوب شعبة والحياء شعبة من الإيمان، فإذا رزق الفتي مثل هذا الوجه تقلب كما شاء بغير وازع.

***

(١) البيان والتبين ٣/٢٧٤

(٢) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ص٥٨

وقال أبان اللاحقي يعبر عن نفسه، أو يصف نفسه، إما مفتخرا، أو مقررا حقيقة، أو مدافعا عن موقفه:

لست بالناسك المشمر ثوبيـ ـه ولا الماجن الخليع الوقاح

أي الوقح سئ الأدب، ينفي عن نفسه هذه الصفه السيئة، مقررا أنه ليس بالناسك المتعبد، المشمر ثوبيه في الاجتهاد في الدين والاستقامة، وليس كذلك بالماجن الخليع الوقاح، وإنما هو في موقف وسط.

***

***

السوادي: نسبة إلي سواد العراق، لأن لونه أخضر، والخضرة يطلق عليها هذا الوصف، وورد ذلك في لغة العرب كثيرا، كما ورد في شعرهم.

***

قال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب، وقد أورد الهمذاني بيتا ملفقا من هذين البيتين، فذكر الشطرين الآخيرين من البيتين:

وأنا الأخضر من يعرفني أخضر الجلدة في بيت العرب[١]

من يساجلني يساجل ماجدا يملأ الدلو إلي عقد الكرب[٢]

أي وأنا الأسود، وخضرة الجلد عند العرب معناها السمرة، وهي علامة تميز العرب، لذا كان فخره بخضرة الجلدة، أي لون ظاهر الجلد، فهو عربي عريق في نسبه العربي لذلك، ومما يؤكد أنه يقصد هذا المعني ما روي علي لسان الشعراء العرب في أشعارهم من الفخر بلون السواد، أو السمرة التي تكسو جلودهم، لأنها لون عربي خالص، يدل علي صدق نسب ذويها في عروبتهم.

***

(١) الكامل في اللغة والأدب ١٤٨/١

(٢) الكامل في اللغة والأدب ١١٣/١

وذلك مثل قول مسكين الدارمي الذي يبين نسبته إلي العرب، وأصالة هذه النسبة، واعتزازه بها:

أنا مسكين لمن يعرفني　　لوني السمرة ألوان العرب

يؤكد نسبته العربية، فيقول: لوني السمرة مما يدل علي أن قول الفضل اللهبي يقصد به لون السمرة، وذلك يؤكد قولنا إن الخضرة تكون بمعني السواد، لأن الخضرة إن زادت في الاخضرار، وكثرت صار لونها داكنا، قاتما، وصار أشبه بلون السمرة منها إلي الخضرة، خاصة أن الأرض التي تكسوها الخضرة تكون غالبا سوداء، فاجتمع سواد الأرض مع سواد لون الخضرة الذي زاد في الاخضرار، ومن ثم صار كل أخضر أسود، وكذلك العكس.

***

ومما يؤكد هذا القول بأن معني الخضرة السواد، وأن اللون الذي يتميز به العرب هو السواد، وأن قول الفضل اللهبي: وأنا الأخضر، معناه السواد، أو السمرة، قول أبي نواس، في هجاء الرقاشي الشاعر، وقد ذكر فيه نسبة العرب بسبب اللون الأسود، والهزال، فذكر أهم ما يميز العرب من الصفات قائلا:

أنا بالبصرة مولي　　عربي بالجبـــــال

أنا حقـا أدعيهم　　بسوادي وهزالي[1]

---

(١) لسان العرب ٥/٣٢٧، ٣٢٨، ٣٢٩

أي أدعيهم بلوني الأسود، فقد جعل لونه الأسود دليلا علي أنه ينتسب إلي العرب، فاللون يؤكد الجنس العربي، وهذا لايدع مجالا للشك في هذه القضية.

***

وفي خضرة الجلدة بمعني سوادها، قول جرير:

بني السيد لا يمحي ترمز مدرك ندوب القوافي في جلودكم الخضر

أي في جلودهم السوداء، أو السمراء، فأطلق وصف الخضرة، وأراد به السواد، أو السمرة، مما يصح معه إطلاق لفظ السواد، وإرادة الوصف بالخضرة، لأنه جعل الجلود خضراء اللون، ولا يمكن أن تكون الجلود خضراء، لذا فهو يقصد وصفا آخر، وهو أن هذه الجلود لونها أسود، أو أسمر، وهو لون العرب الخلص، وليس جرير من الشعراء الذين يطلقون الأوصاف بغير فهم للمعني، أو بغير قصد إليه، أو عمد إلي معناه، حتي نشك في فكرة هذا البيت، وليس هو بالبيت الذي يشك في روايته، فلم يبق إلا صحة البيت، وصحة روايته، وصحة الوصف فيه.

***

وما يؤكد هذا المعني إطلاق صفة الخضرة علي سواد الليل، وهو وصف ورد كثيرا في الشعر العربي في القديم، حيث جعلوا الليل أخضر، ووصفوا خضرة الليل بمعني سواده، وظلامه، وذكروا جلبابه، وسرباله الأخضر:

قال الشماخ يتحدث عن ناقته التي سري بها ليلا من ذي المجاز إلي زبالة في جنح الليل البهيم:

سريت بها من ذي المجاز فنازعت   زبالة سربا لا من الليل أخضرا[1]

يقصد سربالا من الليل، بلونه الأسود، فهو سربال أسود، فوصفه بالخضرة، لأنها تطلق علي السواد، كما ذكرنا من قبل.

***

وقال أحد بني لبيني:

فراحت رواحا من زرود فنازعت   عباية جلبابا من الليل أخضرا[2]

يقصد جلبابا أسود من جنح الليل، وأطلق عليه صفة الخضرة، لأن الوصفين بمعني واحد، وجعله جلبابا لإحاطته الكون، أو الأفق.

***

---

(١) جمهرة اللغة ٢/٢٠٨، معجم البلدان، التعليقات والنوادر ص١٤٦-١٤٧، الحيوان، ديوان الشماخ بن ضرار الأسدي ص١٣٩-١٤٠، معجم ما استعجم.

سريت بها: يقصد سريت بالناقة، والسري: السير ليلا، ذو المجاز: موضع بمني كانت به سوق في الجاهلية، وقيل: عند عرفات، زبالة: بلد من أعمال المدينة، الأخضر هنا: الأسود، والعرب تقول للأسود أخضر، وسميت قري العراق سوادا، لكثرة شجرها، ونخيلها، وزرعها.

(٢) ديوان الشماخ بن ضرار الأسدي ص١٣٩، الحيوان، جمهرة اللغة ٢/٣٠٢، التعليقات والنوادر ص١٤٦.

زرود: بفتح أوله: جبل رمل بين ديار بني عبس، وديار بني يربوع، وبنو لبيني: قوم ينسبون إلي أمهم من بني كلاب.

وكذلك قول البحتري في مقدمة إحدي قصائده في المدح وقد بدأه بالتشبيب، وذكر الرحلة إلي الممدوح:

وقد ساءني أن لم يهج صبابتي

سنا البرق في جنح من الليل أخضر[1]

أي في جنح من الليل أسود، لأن الخضرة تطلق علي السواد، ويطلق السواد بأحد معانيه علي الخضرة، وجنح الليل يقصد به ناحيته، أو القطعة منه، أي يقصد به سواد الليل، الذي يظهر فيه ضوء سنا البرق في ظلماء الليل، في ناحية من هذا الظلام، أو يظهر فيه ضوء البرق في ناحية من هذا الظلام الذي يعم الكون كله، أو الأفق المحصور بمنتهي مد البصر في كل ناحية حول الناظر، والمعني فيه رمز واضح، يقصد الممدوح الذي تظهر آثار نوره في ظلام هذا الكون الذي ليس فيه سوي الممدوح الذي يمثل نور هذا الكون، وضياءه أو المعني علي التصوير، وربما كان يقصد معني آخر تمليه عليه البيئة، وهي أن العرب كانوا إذا رأوا البرق سعدوا، لأن البرق مقدمة المطر، والمطر يرمز للخير، بل هو الخير نفسه، أو سبب الخير، فالشاعر يؤكد أنه قد شام البرق، ليري ما يسعده من وراء هذا البرق، وهو الخير، وكذلك هنا، فالشاعر مقدم علي خير الممدوح.

***

(١) ديوان البحتري ٢/١٠٦٢، معجم البلدان ٢/ ٢٧٠

الأخضر: قد يطلق هذا الوصف علي الأسود، ويقال: أخضر الجناحين كناية عن الليل.

***

- يطرف الإزار بالعقد: إما إنه يدل علي أنه يعقد إزاره علي نقد، أو يشد بالعقد المئزر للممارسة، والعمل، لأنه سوادي، والسوادي يصنع ذلك تأهبا للعمل، لأن عمل السوادي يقتضي الكدح، والمشتقة، والجهد، والبذل، والعرق.

***

ومما يؤكد هذا المعني قول زهير بن أبي سلمي يصف قوما بأنهم يعقدون المآزر للعمل، وإنما مآزرهم لينة، لأنهم مخدومون:

في فتيــة لينـي المــآزرلا ينسون أحلامهم إذا سكــروا

يشوون للضيف والعفاة ويو فون قضاء إذا همو نذروا[1]

أي هم ملوك لا يشدون مآزرهم للمارسة والعمل، لهم من يكفيهم شأنهم، لذا فمآزرهم لينة رقيقة، ليست كمآزر ذوي العمل الشاق، ثم وصفهم بالحلم، والكرم، والوفاء بالنذر.

***

(١) شرح ديوان زهير بن أبي سلمي ص٣١٥

المعني لينو المآزر: أي هم ملوك لا يشدون مآزرهم للمارسة والعمل، لهم من يكفيهم شأنهم، أو إنهم ملوك ليست ثيابهم بغلاط جافية، لاينسون أحلامهم: حلماء لا يجهلون، ولا يسفهون، يشوون للضيف: أي ينحرون لأضيافهم، والعفاة: الذين يأتونه يطلبون ماعنده، يقال: عفيته، واعفيته أطلب ما عنده.

***

يحل عقده بأسنانه، أي تحل عقد الكيس، المعقود علي النقد، وكانوا يعقدون كيس النقود علي النقود، حتي لا تسقط من الكيس، خاصة أن النقد كان من الدراهم والدنانير، أي من الفضة والذهب.

***

قال الهمذاني علي لسان البطل:

أطلق من اليد خصرا   واحلل من الكيس عقدا[1]

أي أطلق يدك من إمساكها بخصرك، أي حررها من ذلك، واحلل عقد الكيس، لتخرج من الكيس نقدا، لأن إخراج النقد ملازم لحل الكيس، لذا قال: واحلل من الكيس عقدا، وهو يقصد إخراج النقد من الكيس، والمعني علي الكناية، فقد هيأ الأمر لبذل النقد، بأن يطلق اليد من قيدها، فتكون طليقة أولا، ثم يترك لليد الحرية في حل عقد الكيس، ثم يترك ذكر ما بقي، وهو الذي يطلبه الهمذاني فقد أوصل السامع، أو المخاطب إلي قريب من مطلبه، أما ما بقي من تنفيذ ما يريد فهو مفهوم من المعاني السابقة، ولا يخفي أن الأمر في الشطرين، أطلق، واحلل، الغرض منهما إما الالتماس، أو التمني، كذلك لا يخفي الارتباط بين قوله: أطلق، وقوله: واحلل، والازدواج بين الشطرين: أطلق من اليد

---

(1) المقامة الساسانية.

خضرا، واحلل من الكيس عقدا، كما جعل الإطلاق للخصر، لأن اليد هي التي تقبض عليه، كما خص الحل للعقد من الكيس، وليس للكيس، لأن حل عقد الكيس يسهل العمل الباقي الذي يرجوه، ويطلبه.

***

وقد يكون عقد الإزار أمرا معروفا، وهو عقد الإزار، كي يمسك بالجسد، وحينئذ لا يقصد به العقد علي النقد، ولا يقصد به الاستعداد للعمل، وإنما يقصد به الأمر العادي المعروف.

قال الجعدي:

يذكر وقت عقد الإزار:

مازال قد عقدت يداه إزاره فسما وأدرك خمسة الأشبار[1]

أي كبر حتي استطاع عقد الإزار علي جسده، أو صار في عمر يستغني فيه عن أمه، لأنه كبر، حتي استطاع أن يقوم بهذا العمل وحده، فهو يريد وصفه بالصغر، وأنه في أول عهده بمعرفة أحواله، والقيام بمهام نفسه بنفسه، والاستغناء عن كل من كان يقوم بدلا منه، بهذا العمل، فيصفه منذ أن كان صغيرا حتي شب عن الطوق، وكبر، وطال جسده، وأدرك خمسة أشبار، ولست أدري هل خمسة أسبار تجعل الطفل يشب عن الطوق حتي يصل إلي أن يعقد إزاره بنفسه، ربما كانت هذه الأشبار

---

(١) لسان العرب ٣٦٨/٧

بحيث نصف الطفل حين يبلغها بأنه شب عن الطوق، وربما كانت هذه الأشبار الخمسة في عرفهم دلالة علي طول الجسم وكبره، لأن ثمت ألفاظا قد تكون مؤدية لمعني الضآلة إذا ذكرت في تعبير معين، وقد تؤدي هي نفسها معني مضادا إذا ذكرت في تعبير آخر، والمعول علي التعبير نفسه ، وربما كان هذا التعبير مؤديا لهذا المعني فعلا.

***

والإزار معروف، قال زهير:

عرش كحاشية الإزار شريجة صفراء لا سدر ولا هي تألب[1]

أي كحاشية الثوب أي جنبه، والحاشية أطول الثوب، أو أصلبه، تصوير لقوس العرش بأنها كحاشية الإزار، وحاشية الإزار أطول الإزار، أو أصلبه، أو أقواه، أو جانبه، وفي الغالب يكون هذا الجانب مقوي، لأن

---

(١) شرح ديوان زهير بن أبي سلمي ص٣٧٧

قوس عرش: أي طويلة، كحاشية الإزار: أي طويلة، لأن الحاشية أطول الثوب، أو صلبة، لأن الحاشية أصلب الثوب، وحاشيتا الثوب: جانباه اللذان لا هدب فيهما، وفي التهذيب: في طرفيهما الهدب، شريج: من شقه، يشق عود النبع باثنين ، ثم تعمل منه قوسان، والسدر ضعيف، فلذلك نفاه عنها، والتألب: الأثل، وهو أضعف عود، أو هو شجر تتخذ منه القسي، والأثل: شجر يشبه الطرفاء إلا أنه أعظم منه، وأكرم، وأجود عودا، تسوي منه الأقداح الصفر الجياد، ومنه اتخذ منبر سيدنا محمد صلي الله عليه وسلم، وقيل: من العضاه الأثل، وهو طوال في السماء مستطيل الخشب، وخشبه جيد يحمل إلي القري فتبني عليه بيوت المدر، وورقة هدب طوال دقاق، وليس له شوك، ومنه تصنع القصاع والجفان، وله ثمرة حمراء كأنها أبنة، يعني عقدة الرشاء.

جانب الثوب يقوي، حتي لا يضعف، فيشق، و دن جانب ثوب يكون مقوي، والإزار معروف، وهو ملبس معروف، والإزار والرداء كانا الثوبين المعروفين عند العرب.

***

وسمي الإزار لإحاطته الجسم، ولذلك يعقد ، كي يمسك بالجسم، ولا يزول عنه، وهو يلبس هكذا بالعقد.

قال زهير بن أبي سلمي يصف صرمة من الإبل، وأنها كالنخل المؤزر بصغاره من النخيل، وكذلك هذه الإبل:

فإن تك صرمة أخذت جهارا كغرس النخل أزره الشكير[1]

أزره: أي صار له إزارا، أي أحاط به، وقواه، وستره، كما يستر الإزار الإنسان، حين يلبسه، ويجعله يحيط بجسده إحاطة تقويه وتستره.

***

وقال أبو نواس:

---

(١) شرح ديوان زهير بن أبي سلمي ص٣٣٧

الصرمة من الإبل: ما بين العشرين- أودون العشرين- إلي الثلاثين، أو ما بين الثلاثين إلي الأربعين، أزره: أي صارله إزارا أي أحاط به، الشكير: صغار النخل، وكذلك شكير الشعير والزرع والورق، وكل شئ صغير، الواحدة شكيرة، شبه هذه الإبل بالنخل الطوال التي حولها النخل الصغار.

أبن لي كيف صرت إلي حريمي ونجم الليل مكتحل بقـار

وقام إلي العقار فسد فاهـا فعاد الليل مسود الإزار[1]

سد فم الزق، فأظلم الليل الذي كان منيرا بالخمر التي تبعث النور في الظلام، فعاد الليل مسود الإزار، علي التصوير، فكأن ما يحيط الليل من الظلام إزار، والظلام في إحاطته الليل بالسواد إحاطة لا تترك له فرصة للنور كالإزار الذي يحيط بالجسد، فلا يدع ثغرة، تفضح ستر الجسد، وقد صور الليل في ظلامه بأن نجمه اكتحل بالقار، والكحل أسود، والقار أسود، ولما كانت الخمر في رأيه منيرة، فإذا قام الساقي إلي الخمر، فسد فاها، أي فم الزق، أو فم الدن، فقد خبأ ضوء الخمر المزعوم، ولم يبق إلا سواد الليل، والإزار من الظلمة الحالكة.

***

يسوق بالجهد حماره، أي يسوق الحمار من خلفه، بمعني أنه لا يركبه.

والسوق نقيض القود، يسوق الدابة من خلفها، ويقودها من أمامها، وأكثر ما يكون السوق للإبل، وأكثر ما يكون القود للخيل.

قال المفضل اليشكري يذكر المعنيين معا، وهما السوق، والقود، بقصد سوق الإبل، وقود الخيل:

---

(٢) ديوان أبي نواس ص٧٧

فأبقينا ولو شئنا تركنا   لجيما لا تقود ولا تسوق[1]

ينفي الأمرين معا، القود، والسوق، أي ينفي سوق الإبل، لأن الإبل يسوقها حاديها من الخلف، كذلك ينفي قود الخيل، لأن الخيل تقاد من الأمام، وليس من الخلف، فهو يقول: ولو شئنا تركنا لجيما لا تقود من الإمام، ولا تسوق من الخلف.

***

(١) الأصمعيات ص٢٠٣

***

نبت الربيع علي دمنته، تعبير مجازي يدل علي موته من زمن بعيد، والربيع مجاز عن النبات، علاقته الزمانية، والتعبير كله كناية.

وأراد من دمنته أثره، أو قبره، لأن الدمنة آثار الديار بعد مضي أهلها وخرابها، أي إنه مات من زمن بعيد يكفي لتخرب داره، وينت المرعي علي آثارها، لذا قال: قد نبت نبات الربيع علي قبره، أو آثار دياره.

***

قال زهير بن أبي سلمي في مطلع معلقته يصف الأطلال، وما بقي من آثار ديار أم أو في التي ذكرها في المعلقة:

أمن أم أو في دمنة لم تكلم   بحومانة الدراج فالمتثلم

ودار لها بالرقمتين كأنها   مراجيع وشم في نواشر معصم[1]

---

(١) شرح ديوان زهير بن أبي سلمي ص٤

يريد: أدمنة من منازل أم أو في لم تكلم، وهذا توجع، لم تكلم: لم تبين، والعرب تقول لكل ما بين من أثر وغيره تكلم، أي ميز، فصار بمنزله المتكلم، والدمنة: آثار الديار وما سودوا بالرماد وغيره، فإذا اسود المكان قيل: قد دمن، المتثلم: اسم أرض، الحومانة: مكان غليظ منقاد، وهي أماكن من نجد إلي المدينة تهامة، وهي العالية، وقيل: الدمنةكل مكان أنبت نبتا أصيرا، أي مجتمعا، وجعل الدمنة بالحومانة لأنهم كانوا يتحرون النزول فيما غلظ من الأرض وصلب، ليكونوا بمعزل من السيل، وليمكنهم حفر النؤي، وضرب أوتاد الخباء، الرقمتان: إحداهما قرب المدينة، والأخري قرب البصرة، وصارت هنا حيث انتجعت، أي طلبت المرعي، بالرقمتين: أراد بينهما، وشبه آثار الديار بوشم ترجعه أي ترده حتي يثبت في كفها، النواشر: عصب الذراع، المعصم: موضع السوار، كأن ما بقي من هذه الديار مراجع وشم.

يتوجع لأن دمنة منازل أم أو في لم تتكلم، ثم ذكر مكان هذه الدمنة، والدار، وما بقي من آثارها كأنه مراجيع وشم في عصب معصَم اليد، أي محيت الديار، ولم يبق إلا آثار بقيت دلالة علي من كان يسكن هذه الديار.

***

وقال أبو نواس:

أعر شعرك الأطلال والد من القفرا   فقد طالما أزري به نعتك الخمرا[1]

أي الدمن المقفرة، يقصد آثار الديار، يخاطب نفسه قائلا: أعر شعرك الأطلال، والدمن المقفرة، لأن وصفك الخمو أزاري بشعرك، وحقره، جعل من نفسه شخصا آخر، أو هذا قول عاذليه.

***

وقال أبو نواس أيضا يصف الديار، والأطلال، ويعيب عليها، وعلي الشعراء الذين يصفونها، لأن ذلك ليس من رأيه:

الدار أطبق أخراس علي فيها   وأعتاقها صمم عن صوت داعيها

يادمنة سلبت منها بشاشتها   وألبست من ثياب المحل باقيها[2]

(1) ديوان أبي نواس ص١٦٦
(2) ديوان أبي نواس ص٣٢

أي آثار الديار بعد خرابها، يصفها بأنها سلبت منها بشاشتها، وحل بها المحل والجدب، وصارت الدار خرساء، لا تجيب داعيها، فعلام وصفها، وبدء القصائد بها؟ لا يري ذلك صوابا.

***

وقال أبو نواس أيضا يذكر ميله للخمر، وعطفه عليها، وذكرها، وبعده عن وصف الديار التي بليت، ولم تبق آثارها:

لأعطفن إلي الصهباء عن دمن لم يبق من عهدها إلا أثافيها[1]

أي خربت آثار الديار ولم يبق منها إلا الأثافي، وهي موقد النار، وهي ثلاث أثافي، يوضع فيها الحطب، والنار، ويوضع عليها القدر، أي فنيت الدار، ولم يبق إلا هذا الدليل، فأين هي الدار التي يصفها.

***

وقال أبو نواس أيضا:

مالي ودار درست استوحست أم أنست

وما ادكاري دمنا وسط عراض رمست[2]

---

(١) ديوان أبي نواس ص٣٢

الأثافي: حجارة توضع القدر عليها.

(٢) ديوان أبي نواس ص١٧٤

لا يريد ذكر آثار الديار بعد رحيل أهلها، فماله ومالها، فقد درست، وبليت، ومحيت آثارها، ومابالـه بها استوحشت، أم أنسب، وما باله حتي يذكر دمنا رمست، ودفنتها الرياح بما ألقت عليها من الرمال التي رمستها، حتي لم يبق من آثارها شئ، وهي شنشنة نعرفها لأبي نواس، لأنه من أنصار الثورة علي بدء القصائد بوصف الأطلال، ولكنه خرج من هذا التقليد إلي وصف الخمر.

***

وقال زفر بن الحارث الكلابي يصور ما يصير في النفوس، بسبب القتل، والحرب، والمعارك، والثارات، والغارات:

وقد بنيت المرعي علي دمن الثـري   له ورق من تحته الشر باديـــا

ويمضي ولا يبقي علي الأرض دمنة   وتبقي حزازات النفوس كما هيا[1]

أي ينبت المرعي علي قبور الثري، ويمضي المرعي، ولا تبقي دمنة ظاهرة علي وجه الأرض، وتبقي النفوس كما هي محملة بالشر والحزازة، وروح الثأر، والانتقام، والقتل، والدم، وتبقي النفوس مهيأة للشر.

***

وقال عمرو بن لؤي في تصوير جميل، مع أنه يحمل معني شريرا، إذ هو يبغي الشر، والموت، أو القتل:

(١) مجالس ثعلب ٣٦٧/٢، الخزانة٣٩٤/١

لو ينبت المرعي علي أنفه   لرحن منه أصلا قد أنين[1]

أي ينبت المرعي فوق جدثه، أي أنفه في التراب، وقد نبت المرعي فوق أنفه، أي هو ميت، أو مقتول، يتمني ذلك له.

***

أما قوله نبت الربيع بالمجاز، فهو كقول الحرث الإيادي:

قوم إذا نبت الربيع لهم   نبتت عداوتهم مع البقل[2]

أي نبت النبات في فصل الربيع، لكنه جعل الربيع نباتا، باعتبار أن الربيع زمن النبات، أو إن الربيع سبب للنبات، فهو مجاز، وهذه المعاني المجازية من معالم جمال اللغة العربية، وحلاوة التعبير بها.

ثم ذكر مجازا آخر في قوله: نبتت عداوتهم مع البقل، فجعل العداوة نبتا ينبت مع البقل، وهو تعبير مجازي جميل، والشاعر يقصد أنهم أهل شر، وعداء، وعداوتهم لا تزول، ولا تنقطع، وإتنما تتجدد بتجدد الأيام، وضرب الربيع مثلا لتجدد الأيام، لأنه يغير شكل الأرض، فكلما نبت الربيع نبتت العداوة منهم، مع نبات الربيع.

***

(١) كتاب الوحشيات ص٩

(٢) لسان العرب ١٣/٦٥

***

- النضد: الذي وضع بعضه فوق بعض.

***

قال مسلم بن الوليد يصف مجلسا، والمجلس في عصره كان مجلس قصف، وخمر، وطعام، ولهو.

وتحتهم جنان نباتها نضيد[١]

أي منضود فوق بعض، يصف الجنان التي جلسوا فيها نباتها بعضه فوق بعض، مما يدل علي كثرته، وغزارته.

***

وقال سحيم:

سأحيا ما حييت وإن ظهري لمستند إلي نضدأ مين[٢]

النضد: السرير ينضد عليه المتاع والثياب بعضها فوق بعض، أي ظهره مستند إلي نضد قوي أمين، مجاز عن أمنه وطمأنينته.

***

---

(١) شرح ديوان صريع الغواني ص١٩٨

نضد المتاع نضدا: جعل بعضه فوق بعض، وضمه متسقا، وفي الشجر والنبات ليس لها سوق بارزة ولكنها منضودة بالورق والثمار من أسفلها إلي أعلاها.

(٢) الأصمعيات ص٢٠

وقال ذو الرمة:

غداة بدت لعيني عند حوضي   بدو الشمس من جلب نضيد[1]

أي منضود بعضه فوق بعض، يصف بدوها ببدو الشمس من جلب نضيد، والحوض معروف حقيقة، ومجازا.

***

وقال طرفة بن العبد:

تري جثوتين من تراب عليهما   صفائح صم من صفيح منصد[2]

أي صفائح من حجارة بعضها فوق بعض، يصف نهاية البخيل، ليس له إلا هذا الذي ذكره، وهو جثوتان من تراب، وصفائح صم من حجارة، وضعت بعضها فوق بعض، فعلام البخل؟

***

وقال أيضا:

---

(١) شرح ديوان ذي الرمة ص٢٩

(٢) الروائع من الأدب العربي ١/ ٢٣١، شرح المعلقات السبع ص٠ ٥

الجثوة: الكومة من التراب، يريد هنا القبر، الصفائح: جمع صفيحة وهي الحجارة العريضة التي يخفي بها القبر، الصم: الصلبة، المنضد: الذي نضد فوق القبر، أي وضع بعضه فوق بعض. يقول: هذه هي النهاية التي ينتهي إليها البخيل والكريم: كومتان من تراب عليهما صفائح من حجارة.

وطي محال كالحني خلوفه ·وأجزنة لذت بدأي منضد[١]

أي عنق نضد بعضه علي بعض، يصف ناقة بقوة فقار الظهر كأن أضلاعه القسي، كما يصف عنقها بالقوة، والمتانة، والضخامة، والصلابة، والشدة.

***

وقال زهير:

غشيت الديار بالبقيع فثهمد دوارس قد أقوين من أم معبد

أربت به الأرواح كل عشية فلم يبق إلا آل خيم منضد[٢]

أي عيدان، نضد بعضها فوق بعض، يصف الديار، بعد زوال أهلها، وقد درست، وبليت.

---

(١) شرح المعلقات السبع ص٤٠

الطي: طي البئر، المحال: فقار الظهر، الحني: القسي، الخلوف: الأضلاع، الأجزنة: باطن العنق، اللز: الضم، الدأي: الظهر والعنق، النضيد: وضع الشئ علي الشئ، يصف الناقة بأن بها فقارا مطوية مترا صفة متداخلة، كأنها الأضلاع المتصلة بها قسي، ولها باطن عنق، ضم وقرن إلي عنق، قد نضد بعضه علي بعض.

(٢) شرح ديوان زهير بن أبي سلمي ص٢١٩

البقيع: بقيع الفرقد، وهو مقبرة أهل المدينة داخلها، ثهمد: جبل هناك، أقوي: أقفر، وذهب منه أهله، أربت: بتشديد الباء المفتوحة، أقامت ولزمت ولم تفارق، وفي الحديث: اللهم إني أعوذبك من غني مبطر، وفقر مرب، أي لازم غير مفارق، آل الخيمة: عمدها، وهي خشبات تبني عليها الخيمة، وهو عود له شعبتان يعرض عليه عود آخر، ثم يلقي عليه ثمام يستظل به.

***

وقال الشماخ في وصف النياق الكوم المقاحيد:

إذا دعت غوثها ضراتها فزعت   أطباق نئ علي الأثباج منضود[1]

أي الشحوم التي علي ظهر الناقة، وهي طبقات، كأن كل واحدة غطاء للأخري، لأن الأطباق أغطية، بعضها منصود فوق بعض، فوق ظهر الناقة، أو هي طرائق، يكون بعضها خلف بعض، كأنها منضودة عقب علي عقب.

***

وقال امرؤ القيس:

أبعد ريدان أمسي قرقرا جلدا   وكان من جندل أصم منضودا[2]

---

(١)ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني ص١١٦

الكوم: التي عظم سنامها وارتفع، المقاحيد: السمان، أوغلظ أصل السنام وتكاثر شحمه، ضرات: ضروع لا تكاد تخلو من اللبن، فزعت: أغاثتها، أي استغاثت بشحم ولحم كثير، أو يشتد عليها الحفل إذا أبطأوا عنها حتي يجئ الوطاب، فتسكن بعد الحلب، وأطباق النيء: العلب من جلود الإبل للحلب، أو أغاثها الشحم واللحم، النيء: بفتح النون الشحم، وبكسر النون اللحم الطري،أو اللحم لم ينضج، ولم تمسه النار، أطباق: طبقات الشحم، أي أغاثتها شحومها المتراكبه فأمدتها باللبن، أي إذا قل لبن ضراتها نصرتها الشحوم التي علي ظهورها، فأمدتها باللبن.

(٢) ديوان امرئ القيس ص٢٠٢

ريدان- بالراء- وزيدان-بالزاي: قصر بظفار بمنزلة غمدان بصنعاء، القرقر: المكان الخالي المستوي، الجلد: الصلب من الأرض، الجندل: الحجارة الصلبة، المنضود: الذي قد أضيف بعضه إلي بعض.

أي أضيف بعضها إلي بعض، يصفه بأنه كان من حجارة صماء صلدة منضدة، بعضها فوق بعض.

***

وقال امرؤ القيس أيضا:

أصاح تري البرق ذات العشاء كما أشعل الباجسان الوقودا

يضئ سنـــاه إذا ما عـــلا ربابا ثقالا ومزنا نضيـدا[1]

أي سحاب منضود بعضه فوق بعض، يصف البرق في العشاء كأنما أشعل الباجسان القادحان الحطب، يضئ نوره سحابا ممتلئا، منضودا بعضه فوق بعض، أي سحاب كثيف متراكب.

***

(٢) ديوان امرئ القيس ص٢٥٢ . ٢٥٣

أصاح : أصاحبي ترخيم، ذات العشاء: أراد الليلة، الباجسان: القادحان، الوقود: الحطب، أو النار نفسها، سناه: ضوؤه، الرباب: السحاب الممتلئ، المزن: السحاب، النضيد: المنضود بعضه فوق بعض.

***

الصدار: ما يغطي به الصدر من الملبس، أو قميص صغير يلي الجسد، وهو ثوب يشبه المقنعة، ويسيل حتي يغشي الصدر بتمامه، وهو ثوب لا يزال معروفا حتي اليوم، ويطلق علي ملبس معين مما يلي الصدر، ولكن معناه يشمل كل ما يلبس علي الصدر.

قال أبو تمام في المدح:

لولا جلاد أبي سعيد لم يزل ... للثغر صدر ما عليه صدار[1]

فصور الثغر بالصدر الذي لا يغطيه صدار، أي الصدر المكشوف، الذي يكون عرضة للعدو، فكما أن الثغر، وهو البلد الذي يجاور أرض العدو يكون معرضا لغارات الأعداء، كذلك الصدر بغير الصدار يكون معرضا للأذي، ولذلك كانوا يلبسون علي الصدر الدروع، والدروع السابغة تغطي من الصدر حتي أسفل البطن، وقد تصل إلي الفخذين، وهي تشبه القميص، لكنها قمصان من حديد، تصنع حلقا حلقا، حتي تحمي المحارب.

---

(١) ديوان أبي تمام ١٦٨/٢

الصدار: ما يغطي به الصدر من الملابس، وقطعة من المسح كانت المرأة المحد تاركة الزينة تلبسها، وتغطي به صدرها، تركا للين من الثياب، فسمي صدارا، يقول: الثغر محصن بك، غير متمكن منه، ولولا مجالدته ومضاربته بالسيف محاماة عنه، لكان صدرها ظاهرا مكشوفا، فكان يتمكن منه من يريد، أي ما كان للثغر منعة، ولا شئ يبقي منه، وقيل: الصدار شئ ينسج من سيور شعر، تلبسه الصبية والمرأة عند المصيبة، وهو قميص صغير.

***

وقال صخر في أخته الخنساء، وكأنه يعلم ما سيحدث منها بعد موته، فقد ذكر ما صنعت، وأقل مما صنعت، فقد بكته بكاءامرا:

فلو هلكت قددت خمارها　　ولبست من شعر صدارها[1] .

أي لبست صدارها من شعر ، والشعر هو الصوف الذي ينسج كما هو، ليس فيه لون من الزينة، وقددت خمارها: مزقته، وقطعته حزنا عليه.

وقال الراعي يصف فلاة:

كأن العرمس الوجناء فيها　　عجول خرقت عنا الصدارا[2]

أي خرقت ما تلبسه علي صدرها، يصف ناقة في سيرها في هذه الفلاة، كأنها امرأة عجول، تخرق صدارها عن صدرها.

***

وقال أبو نواس:

وقد عنه جانبي صداره[3]

أي مزق جانبي الصدار الذي يلبس علي الصدر، وهذا تعبير يذكر كثيرا، وله معان كثيرة، أوله أغراض كثيرة، إذ إن تمزيق الصدر يدل علي

---

(١) ديوان أبي تمام هامش الصحيفة ٦٣٠

(٢) لسان العرب ١١٧/٦

(٣) ديوان أبي نواس ص٦٣٠

الجزع، كما يدل علي الضيق والبرم، وقد شاع في الشعر العربي القديم بهذين المعنيين.

***

شق الجيب.

وشق الصدار من الجيب، هو شق الجيب، وهي عادة سيئة وردت في الشعر كثيرا، وقد نهي عنها الإسلام، وأكد رسول الله صلي الله عليه وسلم النهي في قوله: ليس منا من لطم الخدود، وشق الجيوب.

***

قال رجل من بني هلال:

يشققن عنهن الجيوب كآبة ولهفا علي أسد أتيح لها القتل[1]

يصف نسوة بشق الجيوب حزنا علي مفقود، فهن يشققن الجيوب عن صدروهن كآبة، وحزنا، ولهفا.

***

وقال عنترة:

ما دعاني إلا مضي يكدم الأر ض وقد شقت عليه الجيوب[2]

---

(١) كتاب الوحشيات ص١٤٨

(٢) ديوان عنترة ص١٠١

أي شقت عليه الجيوب من الحزن، والأسي، تعبير يدل علي حقيقة معينة، كما يدل علي مجاز عن الحزن والأسي.

***

وقالت امرأة من بني عامر:

يا أم كلثوم شقي الجيب معولة   علي أبيك فقد أودي إلي الأبد[١]

أي شقي الجيب عليه من الحزن، تناديها أن تشق جيبها علي أبيها حزنا عليه، فقد مات، وأودي إلي الأبد، ولن يرجع مطلقا.

***

وقال ابن بري:

علي مثل ابن مية فانعياه   تشق نواعم البشر الجيوبا[٢]

أي تشق النساء الجيوب عليه من الحزن، لأنه أهل أن تشق نواعم البشر الجيوب عليه، وعلي مثله يصنعن ذلك، يقصد عليه، ثم يأمر اللذين يخاطبهما فانعياه حزنا، وأسفا.

***

وقال أبو عطاء السندي في رثاء عمر بن هبيرة، أو ابنه يزيد:

---

(١) لسان العرب ٨/٣٩٥

(٢) لسان العرب ١٧/٣٦٠

عشية قام النائحات وشققت   جيوب بأيدي مأتم وخدود[١]

أي شققت جيوب حزنا علي المرثي، حين قام النائحات عشية وشققن عليه الجيوب، والخدود، في مأتم حزين

وقال أبو نواس:

أعاذلتي خلا رشدي قديما   فشقي الأن جيبك لا أتوب[٢]

أي فشقي جيبك حزنا علي أنه لم يرجع إلي رشده، فقد ضاع رشده، ولم يبق إلا أن تشقي جيبك، فلن أتوب.

***

وسئل جرير: من أشعر العرب؟ فقال: بشر بن أبي خازم، قيل له: بماذا؟ قال: بقوله:

رهين بلي وكل فتي سبيلي   فشقي الجيب وانتحبي انتحابا[٣]

أي فشقي الجيب حزنا، وانتحبي انتحابا حقيقيا، لأنه رهين بلي، وفناء، وكل فتي سبيله سبيلي، وهو الفناء والزوال، فشقي الجيب.

---

(١) اللآلئ ص٦٠٢، الحماسة ٢/٢٩٥-٢٩٧

الشعر والشعراء٢/٧٦٩، تاريخ الطبري٩/١٤٦، وفيات الأعيان٢/٣٦٩ المأتم: النساء يجتمعن في الخير أو الشر، وقيل: هو كل مجتمع من رجال أو نساء، في حزن أو فرح.

(٢) طبقات الشعراء ص٢٠١

(٣) العمدة ١/٧٨

***

وقال البحتري:

ففي كل يوم لنا موقف   يشقق فيه الوداع الجيوبا[1]

أي يشقق فيه الوداع الجيوب من الحزن، فشق الجيوب في هذه الحال من الحزن من ألم الوداع، لأن ألم الوداع شديد، والوداع قد يكون وداعا أبديا، وقد يكون وداعا طبيعيا.

***

وقال أبو تمام:

طلبت أنفس الكماة فشقت   من وراء الجيوب منهم جيوبا[2]

أي شقت نساؤهم بعد قتلهم جيوبهن حزنا، أي من بعد شق جيوب الكماة، وقتلهم، شقت نساؤهم جيوبهن حزنا عليهم.

***

وقال أبو تمام في الرثاء:

شق جيوبا من رجال لواسطا   عوا لشقوا ما وراء الجيوب[3]

---

(١) ديوان البحتري ١٥٢/١، الوساطة ص٢٨، العمدة ١٢٩/٢

(٢) ديوان أبي تمام ١٧٠/١

أي طلبت هذه الرماح أنفس الكماة، فشقت جيوب دروعهم، ونفذت إلي القلوب، فقتلتهم، وحملت نساءهم علي شق جيوبهن.

(٣) ديوان البحتري ٤٧/٤

أي موت المرثي شق جيوب الرجال حزنا علي موته، ولو استطاعوا لشقوا صدورهم، وهي ما وراء الجيوب.

***

وقال البحتري أيضا:

حرق الشوق والهوي يتصا   رخن علي مشققات الجيوب[1]

أي حرق الشوق والهوي يتصارخن عليه مشققات الجيوب لما ألم به من جرحه بلحظ المقل، وقد ذكر شق الجيوب دلالة علي الحزن.

***

وقال عنترة:

فإن مت فانعيني بما أنا أهله   وشقي علي الجيب يا ابنة معبد[2]

أي وشقي جيبك حزنا، يا ابنة معبد، يطلب منها أن تصنع ذلك إن مات، ويطلب منها أن تنعاه بما هو أهله، لأنه يستحق أن ينعي، وأن تشق عليه الجيب، وهو اعتزاز بنفسه حتي بعد وفاته، وهو مطلب غريب، لكنه كان في عصر الجاهلية، وكان شق الجيب أمرا معهودا عندهم، ليس ثمت نهي عنه، لذلك ليس غريبا أن يطلب منها ذلك، لأنه يدل علي مكانته عند نفسه، وعندها.

---

(١) ديوان البحتري ١٧٤/٤

(٢) الروائع من الأدب العربي٢٣٥/١، شرح المعلقات السبع ص٥٥ ديوان طرفة بن العبد ص٣٩

ابنة معبد: ابنة عمه، أو ابنة أخيه معبد، والنعي: إشاعة خبر الموت، أهله: مستحقه.

الفصل الثامن

الشعر مرآة الحياة عند العرب

دراسة تحليلية

لكل بيئة ما يناسب حياتها في كل لون من ألوان حركة الحياة فيها، وإذا كان لكل بيئة ما يناسبها من العادات والتقاليد التي تتفشي فيها، حتي تصبح أمراً معهوداً، وليس بوعا من الأمر.

وإذا كان البون بعيدا بينا وبين العرب القدماء فى العصر القديم، من الجاهلية حتى نهاية العصر العباسى، فإن الأمر قد اختلف قطعاً فى كثير من أمور الحياة بيننا وبينهم.

لكننا فى اللغة العربية حين نرجع إلى كتب التراث، فى اللغة والأدب قد نجد بعض ما يدل على ما كان موجودا لدى العرب من عادات وتقاليد، تتبعها أمور كانت موجودة، تلائم هذه العادات والتقاليد.

ومن هذه الأمور الأطعمة التى كانت تلائم بيئة العرب فى العصر القديم، والتى نراها فى شعرهم كثيرا، ولا يستطيع المتخصصون فى اللغة العربية أن يفصلوا ما ورد فى الطعام والشراب فى اللغة، والأدب عن بقية تراث اللغة العربية.

ومن ثم كان هذا البحث فى الطعام فى اللغة والأدب.

***

***

الشواء: اللحم المشوى، وهو شواء، بكسر الشين.

قال عمرو بن الأهتم[1] يصف كرمه، وأن الضيف قد نزل به ليلا فى قرة الشتاء، وأنه استقبله، ونحر ناقة عظيمة السنام، كأنها القصر المشيد، وقدم للضيف القرى من اللحم المشوى من هذه الناقة التى نحرها، وهيأها الجازران:

فبات لنا منها وللضيف موهنا   شواء سمين زاهق وغبوق[2]

يصف كرمه بتقديم الشواء السمين، وبات لهم من هذا الشواء ولضيفهم فى الوقت بعد منتصف الليل.

***

---

(١)المفضليات ص ١٢٥، زهر الأداب ١/٣٨-٣٩

عمرو بن الأهتم، كان سيدا من سادات قومه، خطيبا بلغيا شاعرا، شريفا جميلا، ولقبه المكحل لجماله، وكان يقال لشعره:الحلل المنشرة، وفد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وفد بنى تميم، وسأله الرسول صلى الله عليه وسلم عن الزبرقان بن بدر، فمدحه، ثم هجاه، ولم يكذب فى الحالين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن من الشعر حكما، وإن من البيان سحرا، ويروى: إن من البيان لسحرا، وإن من الشعر لحكمة.

وسمى سنان والد عمرو بالأهتم لأن قيس بن قاسم المنقرى سيد أهل الوبر ضربه بقوسه، فهتم فاه، وقيل: هتم فوه يوم الكلاب الثانى، وهو يوم كان لبنى تميم على أهل اليمن، وبنو الأهتم أهل بيت بلاغة فى الجاهلية والإسلام.

(١)لسان العرب ٢٠/٨٨، المفضليات ص ١٢٧

موهنا: بعد وقت من الليل قريب من نصفه، الزاهق:الذى ليس بعد سمنه سمن، الغبوق: شراب العشى، يفخر بكرمه حين يطرقه الضيف فى الليل فى قرة الشتاء، واستقباله إياه بالقرى والجود، وذبح الجزور، وتقديم الشواء.

وبات يدل على وقت المبيت الليل، ولكنه عبر عن وقت معين، هو بعد وقت من الليل قريب من نصفه، بقوله: موهنا.

ووصف الشواء هنا بوصفين، هما أنه سمين، وقد وصل فى السمن إلى درجة بعيدة ليس بعدها فى السمن شئ.

أما قوله: غبوق، فهو شراب العشى، يقصد به الخمر التى قدمها للضيف، فقد بالغ في كرمه بتقديم الشواء للضيف وتقديم الخمر أيضا.

أما قوله: موهنا من الوهن، وهو الوقت قريبا فى منتصف الليل، أو بعد ساعة منه، والوهن. الضعف فى العمل، ولعل هذه المادة بسبب ذلك، لأن المصباح فى ذلك الوقت يكون واهنا، لذا سمى هذا الوقت بالوهن، والموهن.

***

***

وقال عارق الطائى:

له إبل لعام المحل منها   شواء الضيف والزق العظيم[1]

يمدح أحد الأجواد الكرماء فيقول: له إبل لعام القحط، والشدة، والمحل، والجدب، منها شواء الضيف،أى اللحم المشوى الذى يقدم للضيف كرما، والكرم أظهر ما يكون فى وقت القحط، والجدب، وهو وقت الشتاء عند العرب.

ويقول أيضا: إنه كريم فى الطعام، وفى الشراب أيضا، إذ إن له الزق العظيم المملوء بالخمر، ليكمل الكرم فى نظرهم، ليأكل الناس، أو الضيف، ثم يقدم له، أولهم الخمر كرما أيضا.

وقد ذكر عام المحل، لأنه عام الجدب الذى يبخل فيه الناس لقلة ما عندهم، فكأن الممدوح غاية فى الكرم، لأنه كريم وقت بخل غيره، وعدم وجود ما يقدم كرما.

***

وقوله: له إبل لعام المحل منها شواء الضيف، أى له إبل جعل منها الكرم فى وقت الجدب، والقحط، والشدة، فهو يمدحه بالكرم أولا، ويعلى من شأن هذه الإبل المخصصة لقرى الأضياف فى وقت الجدب.

---

(١) كتاب الوحشيات ص ٢٥٠.

فقد خصصها لأشخاص بعينهم،وهم الضيف، أو الأضياف، وخصصها لزمان بعينه، وهو زمان الجدب، والقحط، والشدة.

ثم ذكر بعد ذلك الزق، وهو ما يوضع فيه الخمر، ووصفه بالعظم، ليدل علي كرم الممدوح في الشراب ككرمه في الإطعام.

وكان العرب يطعمون لحم الإبل، ويشربون الخمر، فهذا ملازم لذاك، فكان هذا التعبير عن الكرم الذى يدل على البيئة التى يعيش فيها الممدوح ويعرفها المادح، وهو الشاعر.

***

***

وقال مضرس الأسدى:(١)

وفتيـــان شويت لهم شواء   سريع الشي كنت به نجيحـا

وطرت بمنصلى فى يعملات   دوامى الأيد يخبطن السريحا(٢)

أى شوى لهم لحما سريعا شواؤه، حين أسرع، وكأنه طار إلى ذبح النياق، ليقدم القرى إلى الضيفان.

يحكى قصة تدل على كرمه، فيقول: رب فتيان شويت لهم شواء سريعا شيه، كنت به ناجحا فى إثبات كرمى، أو ناجحا فى قرى هؤلاء الفتيان.

ثم يحكى ما صنع كى يشوى لهم هذا الشواء، فيقول: أسرعت بيـــفى، فى النياق، لعقرها، فسقطت على الأرض، وقد غرقت أيديها فى الدماء، تخبط السيور المشدودة على أرجلها.

وقد كرر لفظة الشى بقوله: شويت لهم شواء سريع الشى، ولعله يقصد هذا التكرار، لتوضيح عمله.

ويقصد بالأيدى الأرجل الأمامية.

أما قوله: وطرت، فهى لفظة تدل على سرعة العمل، أى سرعة الذبح،

---

(١) البيان والتبيين ٣/٣٦.

هو المضرس الأسدى، كان من الشعراء المجدين، فى عهد الدولة الأموية ، وله شأن مع الفرزدق، على ما قال المزربانى

(٢) المنصل: بضم الصاد، وتفتح، السيف، اليعملة: الناقة النجيبة المطبوعة على العمل، الأبد: جمع اليد، والياء الساكنة محذوفة للوزن، وهذا مما يجوز فى الشعر، والسريح: السير الذى يشد على أرجلها.

مما يدل على كرمه، وعدم تردده فى تقديم القرى للضيفان، أو فى إظهار أثر الكرم.

ومما يدل على كرمه قوله: فى يعملات، لأنها نياق نجيبة مطبوعة على العمل، ومثلها لا يذبح، وإنما يحتفظ بها، ومع ذلك فهو لكرمه يذبحها بغير تردد.

***

وقال امرؤ القيس[1] يصف ما صنعه هو وصحبه بعد الصيد، من الطهي، والشواء، والقدير المعجل، وذلك بعد وصف فرسه، ووصف رحلة صيد على هذا الفرس، وأنه قد عن له ولأصحابه سرب من البقر، فأدبرن، فألحقه بالهاديات منها:

فعادى عداء بين ثور ونعجة   دراكا ولم ينضح بماء فيغسل
فظل طهاة اللحم من بين منضج   صفيف شواء أو قدير معجل[2]

أي إن الفرس لحق بثور ونعجة، فظل طهاة اللحم الذين طهوا لحم الثور

---

(١) تاريخ الأدب العربي ١/٩٧-١٠١، الشعر والشعراء ١/١٠٥ - ١٣٦.

امرؤ القيس هو حندج، أو عدى، أو مليكة بن حجر الكندي، الملك الضليل، وكان أبوه ملكا، وقتل بنو أسد حجرا أباه ،

وكان أبوه ينهاه عن قول الشعر، ولما سمع منه شعرا أمر غلاما له أن يقتله، ويأتيه بعينيه، ولكنه لم يقتله ، ولم يقل امرؤ القيس الشعر حتى قتل أبوه، وقيل إنه شبب بنساء أبيه، ومات محترقا بحلة مسمومة أرسلها له ملك الروم، لأنه أحب إحدى بناته، وقيل: مات بأنقرة، وهو أول من استعمل النسيب فى شعره، وقد سمي ذا القروح، لأن السم الذى كان فى الحلة لتى أهداها إياه ملك الروم أسرع فيه، وتنفط جلده، وقوله: وبدلت قرحا داميا بعد صحة، وقال الفرزدق عنه: ذو القروح، وقد ذكره النبى صلى الله عليه وسلم، فقال: هو قائد الشعراء إلى النار، وفى خبر آخر: معه لواء الشعراء إلى النار، وقال عمرو بن الخطاب رضى الله عنه فى شأنه: سابق الشعراء، خسف لهم عين الشعر، وهو أول من بكى الديار وأول من قيد الأوابد، وهو- بدون منازع- أشهر شعراء العصر الجاهلى

(٢) جمهرة أشعار العرب ص ١٤١، ديوان امرئ القيس ص ٢٢-٢٣ الروائع من الأدب العربى ١/١٠٦

عادى: والى الجرى بين اثنين، العداء: الموالاة فى الجرى، النعجة هنا: البقرة الوحشية، دراكا: مداركة وملاحقة، لم ينضح بماء: لم يعرق، والماء هنا العرق، أى صاد قبل أن يجهد ويعرق، فيكون كأنه قد غسل ، الطهاة: الطباخون،، صفيف: المرقق، أو الشواء الذى صف على الجمر، القدير المعجل: المطبوخ فى القدور، وجعله معجلا، لأنهم كانوا يستحسنون تعجيل ما كان من الصيد، أو قدير معجل، على معنى: من بين صفيف شواء، أو طابخ قدير، وظل: خلاف بات، والصفيف: الشرائح المرققة حتى تنضح، أى كثر الصيد، فأخصب القوم، فطبخوا، واشتووا.

والنعجة ما بين شاو يصف اللحم على السفود، ليشويه، وبين طابخ يطبخ اللحم فى القدر فى الماء الذى يكون مرقا.

فالشواء: هو اللحم المشوى، الموضوع على السفود ليشوى على النار، ويرقق، ويصف على النار:

وقد وصف الفرس بالسرعة، إذ إنه جارى ثورا ونعجة من حمر الوحش، وهى سريعة، ليدركها، فأدركها، ولم يعرق، أى أدركها بغير كبير عناء.

وهى مبالغة فى وصف الفرس بالسرعة، والقوة، والدربة على الصيد، حتى إنه ليلحق بثور ونعجة معا فى جرى واحد.

أما قوله: فظل طهاة اللحم، فيدل على عظم الصيد، لاستمرار عمل الطهاة من ناحية، ولتقسيم الصيد إلى مشوى، ومقدور من ناحية أخرى.

وعادى هنا: يقصد والى وجمع بينهما، فقد قصد بين ثور ونعجة من البقر، حتى أوصل فارسه إليهما.

ولم ينضح بماء، والنضح والعرق، والماء: المقصود به العرق أيضاً، فيغسل: أى فلم يعرق، فيكون فى منزلة من قد غسل بالماء.

وقوله: صفيف شواء: أى اللحم المشوى الذى يصف على النار، لذا فهو صفيف بمعنى مصفوف، فعيل بمعنى مفعول، أى صفوف من اللحم المشوى.

وقوله: أو قدير معجل، أى مطبوخ فى القدر على وجه العجلة،

والسرعة، لأنه ينضح قبل صفيف الشواء.

وقدير، أى مقدور، أى مطبوخ فى القدر، فعيل بمعنى مفعول، لأنهم يطبخونه فى القدر بالماء.

ومعجل، أى معجل به أو بطبخه ليقدم على وجه السرعة، فهى ضيغة اسم المفعول.

***

والشواء من اللحم يكون بشئ حزة، أو فلذة، أو قديدة.

وهذه أسماء قطع اللحم المشوية، سماها العرب بهذه الأسماء.

قال أعشى باهلة[1] فى رثائه أخاه لأمه المنتشر، وهى من المراثى المعدودات، وكان المنتشر هذا رئيسا ، فرثاه أعشى باهلة بقصيدة أبنه فيها بما أشاع من جوده زمان الجدب، و الأزمات، وكيف كانت إبله تفزع منه، لما كان يفجؤها به من نحرها للضيف، ومدحه بزهادته فى الطعام والشراب.

يقول:

إن الذى جئت من تثليث تفــديه ... منه السماح ومنه الجود والغيـــــر

نعيت من لا تغب الحــى جفنتــه ... إذا الكواكب أخطأ نوءها المطــــــر

عليه أول زاد القوم إن نزلوا ... ثم المطي إذا ما أرملوا جـــزروا

لاتأمن من البازل الكوماء ضربته ... بالمشرفى إذا ما اخروط السفـــــر

وتفـزع الشـول منه حين يفجـؤها ... حتى تقطع من أقناعها الجـــرر

لا يتـأرى لما فى القدر يرقبـه ... ولا يزال أمام القـوم يقتفـــــر

تكفيـه حـزة فلز إن ألم بهـا ... من الشـواء ويروى شربـه الغمـر

---

(١) الأصمعيات ص ٨٧، الخزانة ١/ ٩٠، الأغانى ٣٧/٤ هو أعشى باهلة، يكنى أبا قحفان، واسمه عامر بن الحرث من بنى عيلان، وباهلة هى بنت معن بن أعصر، وهى أمهم، وهى امرأة من همدان، نسب بنو معن إليها، وهذا الأعشى شاعر جاهلى مجيد.

لا يعجل القوم أن تغلى مراجلهم ويدلج الليل حتى يفسح البصر(١)

يرثي أخاه لأمه، فيذكر شيمه، ويبين أنه سمح جواد، لا تتأخر جفنته بما فيها من الطعام الحي في وقت الشدة، والجدب، وعليه زاد القوم وقوتهم إن نزلوا، وينحر لهم المطايا نفسها التي تحملهم، حتي إن الإبل من كثرة ما يذبح منها لا تأمن له.

وليست همته فى الطعام والشراب لزهادته فيها، إذ تكفيه قطعة

---

(١) الأصمعيات ص ٨٩-٩١، جمهرة أشعار العرب ص ٥٦٨-٥٧٦ يخاطب النعى الذى جاءه بنعى أخيه، وكان العرب إذا مات منهم شريف بعثوا راكبا إلى قبائلهم ينعاه، تغب: تأتى يوما بعد يوم، نوءها: النوء: سقوط نجم من المنازل فى المغرب مع الفجروطلوع رقيبه من المشرق، وكانت العرب تضيف الأمطار إلى الأنواء، يريد أن جفانه لا تنقطع فى القحط والشدة، ويروى: خوى، إذا لم يمطر، تنعى: النعى خبر الميت، لا تغب، لا تأتى يوما بعد يوم، الجفنة: القصعة الكبيرة، تثليث: مكان، ندب الميت: البكاء عليه وتعديد محاسنه، جنت: الخطاب للراكب، الغير: التغيير، وغير الدهر: أحداثه، عليه أول زاد القوم إن نزلوا: يعنى إنه يلزم نفسه زاد أصحابه، فإذا فنى الزاد أباحهم جزر مطاياه، أرملوا: نفد زادهم، أو قل، والزاد: القوت، جزروا: ذبحوا، والجزر، بضمتين، جمع جزور، وهى الناقة تنحر، والجزر، بفتحتين، جمع جزرة، وهى الناقة أو الشاه تذبح، البازل: ما استكمل من الإبل الثامنة وطعن فى التاسعة، وفطر نابه، من البزل، وهو الشق، يقال للذكر والأنثى، الكوماء: العظيمة السناء، المشرفى: السيف المنسوب إلى المشارف، وهى قرى من العرب تدنو إلى الريف، أو إلى مشرف، رجل من ثقيف،اخروط السفر: أبعدت الطريق، أو امتد وطال، الشول! بتشديد الشين المفتوحة، وسكون الواو، جمع شائلة، وهى الناقة التى أتى عليها من حملها، أو وضعها سبعة أشهر، فخف لبنها، وهو جمع على غير قياس، يفجؤها: يبغتها، أى يجيئها بغتة، الجرر: جمع جرة، بكسر الجيم فيها، وهى ما يخرجه البعير للاجترار، يريد أن الإبل تعودت أن يعقر منها، فإذا رأته كظمت على جرتها فزعا منه، لا يتأرى! لا يتحبس، يمدحه بأن همته ليست فى المطعم والمشرب وإنما همته فى طلب المعالى، الاقتفار: اتباع الأثر، وروى الفعل بالبناء للفاعل، أى يقدم قومه، ويتعرف لهم الأثر، ويروى بالبناء للمفعول، أى إنهم يتبعرنه، الحزة: ما قطع من اللحم طولا، والفلذ: كبر البعير، وفلز: جمع فلزة، والغمر: قدح لا يروى، أو أصغر الأقداح، المراجل: جمع مرجل، وهو ما يطبخ فيه من قدر وغيره، يريد أنه لا يعجلهم عن طعامهم، الإدلاج: سير الليل كله، يفسح: يتسع، أى يظهر النهار فيتسع مدى الإبصار.

صغيرة من اللحم، وقدح صغير من الشراب، وليس منهوما شرها، فلا يعجل القوم أن تغلى مراجلهم باللحم.

وقد ذكر الشاعر اللحم المشوى، بذكر الفلزة، والحزة، كما ذكر من أدوات الطعام الجفنة، والجزر من النياق، والشول، كما ذكر القدر، والغمر، والمرجل.

وقد ذكر الشاعر ذلك كله فى معرض رثاء أخيه لأمه، فى خضم ذكر محاسنه، وتعديد شمائله بما يتلاءم، ويتناسب مع بيئته التى عاش فيها.

***

***

وقال مزرد الذبياني:

وأصبح جارات ابن ثوب بواشما   من الشر يشويهن شي القدائد[١]

القدائد: شرائح اللحم المقطعة طولا، جعل جاراته بواشما من الشر الذى يحمله إليهن، والغرض من هذا المعنى الذم.

فكأن ابن ثوب قد ساق إلى جاراته ما لا يطاق. أو ما لا يحتمل بعده، حتى تخمن من كثرة شروره.

ثم صور أثر هذا الشر الذى ساقه ابن ثوب إلى جيرانه بأنه يشويهن شيا كشى قدائد اللحم على السفود، أو النار.

فجعل لابن ثوب شرا عظيما، وجعل أثر هذا الشر شديدا شدة النار التى تحرق ببطء، كشى قدائد اللحم على النار.

***

والشواء: بتشديد الشين، الذى يشوى اللحم بالسفود.

قال الأعشى[٢] يصف ما هو فيه وأمثاله من شعراء الجاهلية، من

---

(١) البواشم: من البشم، وهو التخمة والكسل عن كثرة الأكل، وإنما أراد إنه ساق إليهن من الشر ما تخمن به، القدائد، جمع قديدة، وهى شريحة اللحم تقطع طولا، وإنما مثلهن بالقديد لما يلقين من شدة أذاه.

(٢) تاريخ الأدب العربى ١/ ١٤٧/ ١٤٩، جمهرة أشعار العرب ص ٨٠- ٨٢، الشعر والشعراء ١/٢٥٧

اسمه ميمون بن قيس، ولد فى منفوحة باليمامة، ومن الجائز أنه كان نصرانيا، وكان ينادم أمير اليمامة الذى كان نصرانيا أيضا، وكان يزور أسقف نجران، وكان راويته من عباد الحيرة، =

الصيد، والقنص، والطعام، والشراب، والسماع، فهو يصف رحلة صيد في معلقته، في نهايتها.

يقول:

فإذا نحن بالوحوش تراعى   صوب غيث مجلجل هطال

فحملنا غلا مناثم قلنا   جاهر الصيد غير أمر احتيال

فجرى بالغلام شبه حريق   في يبيس تذروه ريح الشمال

= ومن ثم عرف الأعشى حمامة نوح، وأخبار سليمان، وكا الأعشى يجول بشعره في بلاد العرب، وكان مقذعا في الهجاء، حاد اللسان فيه، وكان ولوعا بالكلمات الأجنبية، وخصوصا الفارسية، وقد عابه المرزباني، ولم يعده في الفحول من الشعراء، وكان يلقب بصناجة العرب، قال الذين قدموه: هو أمدحهم للملوك ، وأوصفهم للخمر، وأغزرهم شعراء، وأحسنهم قريضا، وقال أبو عمرو بن العلاء: عليكم بشعر الأعشى، فإنما أشبهه بالبازي الذي يصطاد ما بين الكركي والعندليب، وهو عصفور صغير، وقال: مثله مثل البازي يضرب كبير الطير، وصغيره، وقال: هو أشعر القوم إلا أنه وضعه كثرة الجهل، وقيل: وضعه إلحافة، وقيل: ولكنه وضعته الحاجة بالسؤال، وقد روى أن الأعشى خرج يريد النبي صلى الله عليه وسلم، وقد قال فيه شعرا، حتى إذا كان ببعض الطريق نفرت به راحلته، فقتلته، فلما أنشد النبي صلى الله عليه وسلم شعره الذي يمدح فيه النبي صلى الله عليه وسلم، قال: كاد ينجو ولما، وروى أن عبد الملك بن مروان قال لمؤدب أولاده: أدبهم برواية شعر الأعشى فإن له عذوبة، قاتله الله، ما أعذب بحره، وأصلب صخره، وقال المفضل: من زعم أن أحدا أشعر من الأعشى فليس يعرف الشعر، وقال محمد بن عثمان : قلت لعلي بن أبي طاهر: من أشعر الناس؟ فقال وإنك لتشك في المعرفة، أشعر الناس الأعشى، قلت إن أبا عبيدة يجعله في الطبقة الثانية من الشعر، قال: يا ابن أخي ، ما أقدم على الأعشى أحدا، وإنما يفعل ذلك في الهوى والميل، وكان الأعشى أعمى، ويكنى أبا بصير، وكان أبوه قيس يدعى قتيل الجوع، وذلك إنه كان في جبل، فدخل غارا، فوقعت صخرة من ذلك الجبل، فسدت فم الغار، فمات فيه جوعا، وهو أول من ذكر الصنج في شعره، وكان يفد على ملوك فارس، ولذلك كثرت الفارسية في شعره، وقال عنه كسرى: مغني العرب، قال أبوعبيدة: الأعشى هو رابع الشعراء المتقدمين، أو المعدودين، وهو يقدم على طرفة، لأنه أكثر عدد طوال جياد، وأوصف للخمر والحمر، وأمدح وأهجى، فأما طرفة فإنما يوضع مع الحرث بن حلزة، وعمرو بن كلثوم، وسويد بن أبي كاهل في الإسلام.

بين عير وملمع ونحـــوص . ونعام يردين حول الرئـال
فى شباب يسقون ماء كرم عاقدين البرود فوق العوالـــي
لم يكن غير لمحة الطرف حتي كب تسعا يعتامها كالمغالــي
وظليمين ثم أبهت بالمهـ ـر أنادي فداك عمي وخالـيْ
ظللنا ما بين شاووذي قـد ر وساق ومسمع محفـال[1]

يقول: إنهم وجدوا الحمر الوحشية تراقب صوب المطر ذى الصوت، فحملوا الغلام على الفرس، وأمروه أن يجاهر الصيد بغير احتيال، فجرى الفرس بالغلام شبه الحريق فى هشيم تزروه الرياح، ووجد الغلام نفسه بين عير، ونعام، كب من العير تسعة حمر، ومن النعام ظليمين، فظلوا ما بين شاو يشوى اللحم، وطابخ يطبخه فى القدر، وساق يسقى الخمر، ومغن

---

(١) جهرة أشعار العرب ص ٢٣٣-٢٣٤

تراعى: تراقب، وتلاحظ، وتنظر، صوب: جهة وناحية، مجلجل: له صوت شديد، كالجلجل، وهو الجرس الصغير، هطال: كثير المطر، غيث:مطر، جاهر الصوت: أهجم عليه من غير أن تحتال لصيده، لأنه غافل بمراقبة المطر، ذرت الريح التراب وغبرته: طيرته: يقول: جرى فى سرعة كأنه نار جرت فى هشيم أثارته الريح، النحوص: التى لم تحمل، الرئال: جمع رأل، وهو ولد النعام، العير: الحمار، وغلب على الحمار الوحشى، وملمع: الأثان أو الفرس إذا أشرقت للحمل، أواستبان حملها، وصار فى ضرغها لمع سوداء، الرود: الذهاب والمجئ، من راد يرود، يقول: وصار فى وسط هذه الأنواع المختلفة التى فاجأها، كب: صرع، يعتامها: يختار أجودها، المغالى: بصيغة اسم الفاعل، المجاوز حده، والمغالى بالسهم: الرافع يده، يريد به أقصى الغاية، يقول: إنه صرع تسعا منها فى مدة قصيرة، وكانت من خيرها فكأنه اختارها حين فعل ذلك، الظليم: ذكرالنعام، أبهت، بتشديد الباء: صحت، محفال: يجتمع الناس لغنائه، لإعجابهم به، يقول: بعد الصيد اجتمعوا ينالون منه حاجتهم، ومنهم من كان شوى اللحم، ومن كان يطبخه فى القدور، ومن كان يسقيهم، ومن كان يغنى لهم بصوت جميل. جهير، ماء كرم: الخمر، العوالى: الرماح، وهو يرسم صورة لهؤلاء الشاربين الذين استخفهم السكر، فقاموا يرقصون، وبيدهم رماحهم، قد عقدت فى أعاليها الثياب، أو إنهم ربطوا ثيابهم فى أعالى الرماح، ليفرغوا للأكل والشرب.

يغنيهم، وهم شباب يشربون الخمر، وقد قاموا يرقصون وبيدهم الرماح وقد عقدوا ثيابهم عليها.

فقد جعل للمطر صوتا، وجعل له هطلا، وهى صورة عامة للمطر.

كما صور سرعة الفرس بسرعة النار فى الهشيم تزروه الرياح.

وجعل الصيد مختلفا، ما بين الحمر الوحشية والنعام.

كما جعل الصائد ماهرا صرع بسرعة تسعة حمر، وظليمين.

ثم بين شغلهم بعد ذلك بالشي، والطبخ، والسقى، والغناء، والرقص بالرماح.

فالشاوى: الذى يشوى اللحم على النار، والطابخ: الذى يطبخ اللحم فى القدر، واللحم هنا لحم الحمر الوحشية، والنعام، والسقى: سقى الخمر.

***

وقال الأعشى

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعنى شاو مشل شلول شلشل شول[1]

أى يتبعنى شاو يشوى له اللحم، حين غدا إلى الحانوت، وهو مكان الخمار، أو مكان العطار، لكنه يقصد هنا مكان الخمار.

يفخر بفعله هذا، غدا إلى الحانوت ليشرب الخمر، يتبعه من يتصل بشرب الخمر من الذين ذكرهم.

---

(١) الحانوت: محل الخمار، الشاوى : الذى يشوى اللحم، المشل: بكسر الميم وفتح الشين هو المستحث، والجيد السوق، وقيل: الذى يشل اللحم فى السفود ، الشلول: بفتح الشين، مثل المشل، ويروى نشول، بفتح النون، وهو الذى يأخذ اللحم من القدر، الشلشل: بضم الشين، هو الخفيف اليد فى العمل والمتحرك، الشول: بفتح الشين، وكسر الواو، هو الذى يحمل الشىء ، وقيل: المعنى بحاجته، ويروى شمل وهو الطيب النفس.

***

قال عمرو بن الداخل

فظلت وظل أصحابى لديهم غريض اللحم نئ أو نضيج[1]

فكانوا ينضجون اللحم قديرا، أو شواء، وهذه عادة العرب فى الجاهلية، ذكروا ذلك كثيرا فى شعرهم، وكانت البيئة العربية فى عصرهم هى التى طبعت حياتهم بطباع معينة، وأجبرتهم على كثير من العادات التى تعودوا عليها، فكان الضيف إذا حل على أحدهم، قام إلى إبله لينحر له، ويطعمه، وهو إذا صنع ذلك جعل اللحم نوعين: النوع الأول هو السريع المعجل، وهو القدير، أى النوع ينضج فى القدر على الأثافى، والنوع الثانى هو صفيف الشواء، أى اللحم المشوى المصفوف على النار.

***

وقال ابن فياض:

تطل في درمك وفاكهة وفي شواء ما شئت أو مرقه[2]

أي لباب الدقيق، واللحم المشوي، والقدير بالمرق.

وقال الحادرة:[3]

---

(١) ديوان الهذليين ٣/٤٠١

(٢) البخلاء ص ٢٢٩

(١) المفضليات ٤٣، الأغانى ٣/٨٠، لسان العرب ٥/٣٦٦ الحادرة: لقب، وأصل الحادر الضخم، ولقب بذلك لقول صاحبه زبان بن سيار فيه يشبهه بضفدع غليظة

كأنك حادرة المنكبين رصعاء تنقر فى حائر

ويقال له الحويدرة أيضا على التصغير، واسمه قطبة، من غطفان، وفى اللسان أن اسمه قطبة بن أوس الغطفانى، وهو شاعر جاهلى مقل:

ومعرض تغلى المراجع تحته   عجلت طبخته لرهط جوع[1]

يقول إنه أطعم صحبته، حين بكروا عليه بسحرة، فصبحهم بلحم معرض، جعل المراجل، تغلى تحته، ليعجل طبخته لهم، لأنهم جوع.

والفخر بالكرم، وبما يقدم من اللحم قرى للضيفان كان ديدن الشعراء فى العصر الجاهلى، وذلك لتأثير البيئة، وألوان المروءة فى رجالات هذا العصر، كما ورد فى الشعر فى العصر الجاهلى.

وقال سهل بن أبى كثير:[1]

أنت لوهر شت داوو   د على خبز ولحـــــم

أو على روس نعاج   صليت فى السوق ســـحم

لجرى أن يقطع الزر   رين أو يشجى بعظـــم

وله عشرون ضرسا   ليس فيها ضرس حلـــم

وهو لو دارك لقما   قلت هذا حس هـــدم[3]

---

(١) المفضليات ص ٤٦

المعرض، بتشديد الراء المفتوحة، اللحم الذى لم يبلغ نضجه، المراجل: جمع مرجل، وهو ما يطبخ فيه، أو القدر.

(٢) مجالس تعلب ٢٥٨/١

سهل بن أبى كثير، شاعر يظهر إنه عاش فى القرن الأول، وبداية القرن الثانى الهجرى، وهو أخى أبى نصر يحيى بن أبى كثير، اليمامى. كان بصريا ،وانتقل إلى اليمامة،ومات أبو نصر سنة مائة وتسع وعشرين، وقد مات أخوه سهل قريبا من هذا التاريخ، وكان أبو نصر راوية للحديث.

(٣) مجالس ثعلب ٢٥٨/١

التهويش: التحريش والإغراء، صليت: شويت، السحم: السود الزران: طرفا الوركين فى النقرة.

يتهكم بصاحبه داود، قائلا للمخاطب: أنت لو حرشت وأغريت داود على خبز ولحم، أو على رؤوس نعاج سحم شويت في السوق لكان حريا ان يصل في طعامه إلى حد قطع طرفي الوركين، أو يعترض كالشجى عظم في حلقه.

وهو في طعامه يأكل بينهم، حتى كأنه يأكل بعشرين ضرسا، كلها نهمة قاطعة ليس فيها ضرس حلم، وعقل.

وهو لو أدرك لقما فإنما يسمع له في أكله صوت كأنه حس هدم بناء، أو ما أشبه.

والسخرية والتهكم واضحان في المقطوعة، واختار الشاعر لها الألفاظ من مثل: هرشت، فهو تحريش وإغراء، وليس رغبة مجردة في الطعام.

كذلك قوله: لحرى أن يقطع الزرين، أو يشجى بعظم تعبير يدل على الشره، والنهم، وإنه لا يوقفه عن الطعام إلا الشجى في الحلق بالعظم.

كذلك قوله وله عشرون ضرسا ليس فيها ضرس حلم، مما يدل على شدة الشره بأضراسه، التي ليس فيها ضرس حلم، وإنما نسبها إلى السفه والطيش.

وقوله: وهو لودارك لقما، مما يدل على إنه لا يدرك اللقم، وهو تعليل لما سيأتي من أن صوت لقمه حس هدم، وليس صوت لقمة طعام.

وقد أوضح لنا الشاعر بعض الأطعمة في أبياته هذه، من مثل الخبز واللحم، ومن مثل رؤوس النعاج المشوية، وأطراف الأوراك في الذبيحة.

وقال أبو العباس ثعلب:

إن لنا هجمة حمرا محلقة فيها معاد وفي أذنابها كرم
يزرعها الله من جشب ونحصدها فلا تقوم لما نأتى به الصرم
إن أخلف الضيف رسل عند حاجتنا لم يخلف الضيف من أصلابها دسم
تسلف الجار شربا وهى حائمة والماء لزن بكى العين مقتسم[1]

يفخر الشاعر بأن لهم، هو وقبيلته إذ هو فخر قلبى، وقد يكون فخرا للنفس على التعظيم.

يقول: لهم قطعة من الإبل جيدة ، إذ هى حمر، كثيرة اللبن، كثيرة النسل، وعلى الجملة فهى إبل عتاق، أو كريمة، أو جيدة

ويقول بعد ذلك ينميها الله تعالى، ويحصدونها هم، ولا تقوم الصرم، أو القطعة من الإبل، أى الكثير منها لما نأتى به من كرائم الأمور، وعظيم ما يفعلون .

ويبين كرمهم قائلا: إن لم ينل الضيف منها رسلا، وهو اللبن، فلن يحرم من لحوم أصلا بها الدسمة.

ويقول: ينال الجار منها لهنة يتعجلها قبل الغداء، فى وقت تكون عطشى، والماء ضيق لا ينال إلا بعد مشقة، قليل، مقتسم.

---

(١) مجالس ثعلب ٢٥٦/١
الهجمة: القطعة من الإبل، المحلقة، بكسر اللام المشددة: الكثيرة اللبن، فى أذنابها كرم: كناية عن كثرة نسلها، الصرم: بكسر الصاد المشددة، جمع صرمة، وهى القطعة من الإبل، والغنم، قيل: هى من العشرين إلى الثلاثين، والأربعين، كأنها إذا بلغت هذا القدر تستقل بنفسها، فيقطعها صاحبها عن معظم إبله وغنمه، الرسل،: بالكسر، اللبن، التسليف: م السلفة، بالضم، وهى اللهنة يتعجلها الرجل قبل الغداء، حائمة: عطشى، اللزن: بفتح اللام الضيق الذى لا ينال إلا بعد مشقة، بكؤت العين: قل ماؤها.

وقد وصف الهجمة أوصافا تدل على كرم أصولها، وعتقها، ونجابتها، هجمة حمراء محلقة، فيها معاد، فى أذنابها كرم، منحها الله لهم، ويحصدونها، ولا تقوم الصرم بما يأتون به.

ويبين حق الضيف فى أموالهم، وهو الرسل، والأصلاب الدسمة من الإبل.

ويبين حق الجار فى أموالهم، وهو السلفة.

وقد بين لنا الشاعر بعض ألوان الطعام عند العرب وهو:

الرسل، بكسر الراء المشددة، وسكون السين، وهو اللبن.

- ولحم أصلاب الإبل الدسم.

- والسلفة، بضم السين المشددة وسكون اللام، وفتح الفاء، وهى اللهنة يتعجلها الرجل قبل الغداء.

كما بين نوع الثراء عند العرب، وهو:

- الهجمة، بفتح الهاء، وسكون الجيم، وفتح الميم، وهى القطعة من الإبل.

- الصرم، بكسر الصاد، وفتح الراء، جمع صرمة، وهى القطعة من الإبل والغنم، قيل هى من العشرين إلى الثلاثين، والأربعين، وسميت بذلك كأنها إذا بلغت هذا القدر تستقل بنفسها، فيقطعها صاحبها عن معظم إبله، وغنمه.

***

وقال ابن عناب الطائي:[1]

غلام أضلته النبوح فلـم يجد ... بما بين خبت فالهباءة أجمعـــا

أناسا سوانا فاستمانا فلا تري ... آخادلج أهدي بليل وأسمعـا

فقلت أجر اناقة الضيف إننـــي ... جدير بـأن تلقي إنائي مترعـــا

دفعت إليه رسل كوماء جلـــدة ... وأغضيف عنه الطرق حتي تضلعا

إذا قال قطني قلت آليت حلفة ... لتغني عني ذا إنائك أجمعـا

يدافع حيزوميه سخن صريحهـــا ... وحلقا تراه للثمالة مقنعـــا

إذا عم حرشاء الثحالة أنفـه ... تقاصر منها للصريح وأقمعـا[1]

---

(١) مجالس ثعلب ٥٣٦/٢

هو حريث بن عناب النبهانى، شاعر إسلامى من شعراء الدولة الأموية، بدوى، مقل، ويقال: إنه ابن عتاب، بالتاء، وليس بالباء

(٢) مجالس ثعلب ٥٣٦/٢-٥٣٩

أضلته النبوح: أراد أضل هو النبوح، لم يجدها، والنبوح: ضجة الحى ، وأصوات كلابهم، خبت: بفتح الخاء، وسكون الباء،والهباءة: بفتح الهاء موضعان، أناسا فى البيت الثانى متعلقة بالبيت الأول، فهى معمول يجد فى البيت الأول، وقد رفع الفعل: ترى، بعدلم، حملالها على ما، ولعل ذلك لضرورة الشعر، وقد ورد ذلك فى الشعر أيضا، وفى اللسان: فلا ترى، وهو ما اخترناه، استمانا: تصيدنا، بفتح الصاد، والمستمى: المتصيد، الدلج: سير الليل، أجرا: هذا خطاب، لخادميه وهو أمر من أجررته رسنه، إذا تركته يصنع ما شاء، يريد دعوها ترعى ما تشاء، وضمير تلقى للناقة، وقوله: إننى جدير بأن تلقى إنائى مترعا، أي من عادتى هذا، مترع: بصيغة اسم المفعول، مملوء، الرسل: بكسر الراء المشددة، اللبن، الكوماء: العظيمة السنام، أى الناقة، جلدة: قوية على العمل، أغضيت عنه الطرف كففت النظر عنه، تضلع: امتلأ ما بين أضلاعه، قطنى: حسبى، آليت: أقسمت، لتغنى عنى: أى لتبعده عنى، أى اجعله بحيث يكون غنيا عنى لا يحتاج إلى رؤيته، ذا إنائك: أى صاحب إنائك، يعنى اللبن، حيزوماه: ما امتنف حلقومه من جانبى الصدر، الصريح: اللبن بغير رغوة، الثمالة: رغوة اللبن، مقنعا: مرفوع لاستيفاء ما يشربه من ماء أو لبن، أو غيرهما، يريد: أنه يرفع حلقه لاستيفاء اللبن، عم: شمل خرشاء اللبن: رغوته، وقيل: جليدة تعلوه تقاصر: تراجع من الثمالة إلى الصريح، فشربه كله، تقاصر: انتهى، أو قصر عنقه عنها، أقمع، أن يمر الشراب فى الحلق مرا بغير جرع.

يذكر قصة من قصص الكرم عند العرب للضيف القادم الذى سار الليل كله، ولم يجد ما ينبحه من الكلاب، أى لم يجد حيا منَ العرب فى سيره تنبحه كلابهم سوى هذا الشاعر الكريم.

يقول: إن الضيف تصيدنا، ومال إلينا، فلم نجد أهدى منه، ولا أسمع منه إذ جاء إلى بيوتنا، فقد آوى إلى من يجد عندهم الأمن والقرى.

ثم يترك هذا الضيف فى حديثه، ويرجع بنا الشاعر إلى صنيعه، أو عمله الذى يكون وسيلته لإطعام الضيفان، فيقول: إنه يقول لخادميه: اتركا ناقة الضيف، أى الناقة التى أعددتها لقرى الضيف من لبنها، اتركاها ترعى كما تشاء، لأنى عادتى أن أكون جديرا بأن تلقى هذه الناقة إنائى مترعا، مملوءا.

أو إننى جدير بأن تلقى- أيها المخاطب - إنائى مترعا من لبف هذه الناقة التى أعددتها للضيفان.

وهذا البيت يعد تمهيدا لما سيأتى من ذكر قراه الضيف الذى سيذكره بعد ذلك.

ويعود الشاعر ثانية إلى ما فعل مع هذا الضيف، فيقول: قدمت إلى هذا الضيف لبن ناقة عظيمة السنام قوية، يريد إنه لبن ناقة من أفضل النياق، فيكون لبنا جيدا.

وللتنبيه على الكرم يقول: وأغضيت عنه الطرف حتى ملأ الضيف من هذا اللبن أضلاعه، أى شرب حتى امتلأ.

ولعل قوله: وأغضيت عنه الطرف يدل على أمرين.

أولهما: أدب العرب فى تقديم الطعام إلى الضيف أدبا يدل على الذوق الاجتماعى الراقى، وهذا يدفع عند العرب كثيرا مما أراد أن يلحقه بهم بعض الذين لا يرون إلا العيوب.

ثانيهما: الكرم الذى لا نهاية لحده، فهو يقدم اللبن للضيف، وهو يرغب فى أن يشرب الضيف اللبن كله، ولا ينظر إليه، حتى لا يكف عن الشرب، وهو جائع.

وقوله: حتى تضلعا، يدل على أنه شرب من اللبن حتى امتلأ بعد جوعة شديدة.

ويذكر فى البيت الخامس كرمه، فإذا قال الضيف حسبى ما شربت، قال الضائف قد حلفت أن تشرب جميع ما فى إنائك من اللبن.

ثم يقول: يدفع اللبن الصريح السخن جانبى صدره، وتراه وقد رفع حلقه لاستيفاء اللبن ورغوته، مما يدل على جوعه.

ويقول: إذا اشتملت رغوة اللبن، أو الجليدة التى تعلو اللبن أنفه رد عنقه لشرب الصريح من اللبن، وشربه بغير جرع، مما يدل على جوعه الشديد.

وقوله: أضلته النبوح دلالة على التحير، والخوف، حتى إنه ليتمنى أن ينبحه الكلاب، وقد ورد هذا المعنى فى الشعر العربى القديم.

وقوله: فاستمانا: دلالة على إنه صائد ماهر، وهم صيد سمين، لأنه عثر على كرماء يحققون مطلبه.

وقوله: أخادلج يدل على سيره الليل كله.

أما قوله : أهدى بليل وأسمعا ، أى أهدى منه، وأسمع منه لأنه اهتدى إليهم، ووجد سميعا.

وقوله: ناقة الضيف، يدل على أنه أعد ناقة للضيف مخصصة له.

أما قوله: تلقى إنائى مترعا ، فهذا يدل على كرمه.

وقوله: رسل كوماء جلدة، فهو وصف للناقة يعود على وصف اللبن بالجودة.

وقوله: تضلعا: دلالة على امتلائه باللبن.

وقوله: آليت حلفة، يدل على شدة كرمه.

أما وصف الضيف فى شربه اللبن فى البيتين الأخيرين فهو يدل على شدة جوعه، وبقائه مدة ليست بالقليلة بغير أن يطعم.

وقد ذكر فى هذه الأبيات بعض الطعام، وصفاته وهى الرسل، بكسر الراء المشددة، وهو اللبن، ولعل هذا المعنى مأخوذ من إرسال اللبن من ضرع الناقة، أو التفاؤل بأن يكون مرسلا أبدا ، وهو رسل بمعنى مرسل بصيغة اسم المفعول.

والصريح: اللبن الخالص بغير رغوة، ولذا قيل: وتحت الرغوة اللبن لصريح.

الثمالة: رغوة اللبن.

خرشاء الثمالة: جليدة رقيقة تعلو اللبن.

ولعلهم كانوا يشربون اللبن من الإناء مباشرة بغير آلة، كما هو واضح البيتين الأخيرين.

***

وأنشد أبو العباس ثعلب[1]

وقصعا تكسى ثمالا قشعما

يحسبه الجاهل ما لم يعلمـــا

شيخا على كرسه معممـــا

لو أنه أبان أو تكلـــم

لكان إياه ولكن أعجما[2]

---

(١) مجالس ثعلب ٢/٥٥٢.
الأبيات من أرجوزة تنسب إلى جبابة اللص، وإلى مساور العبسى، وإلى العجاج، وإلى أبي حيان الفقعسى، وإلى عبد بنى قيس.

(٢) مجالس ثعلب٢/٥٥٢، ٥٥٣، ٥٥٤، الشعر والشعراء ١/٣٤٩، تاريخ الأدب العربى ١/٢٢٦

الأبيات فى صفة الثمال، وهى رغوة اللبن، وقد أخطأ الشنتمرى فى ظنه أن الراجز وصف جبلا قد عمه الخصب، وحفه النبات، وعلاه فجعله كشيخ مزمل معمم، وقال ثعلب: شبه وطب لبن ملفوف بكساء، بشيخ من هذه الصفة.

ومساور العبسى، هو المساور بن هند العبسى، وجده قيس بن زهير هو صاحب الحرب بين عبس وذبيان، وهى حرب داحس والغبراء، وهو شاعر إسلامى مخضرم، فارس، شريف، أدرك النبى صلى الله عليه وسلم، ولم يجتمع به، وكان نحو أبى عمرو بن العلاء فى السن، ولد فى حرب داحس، قبل الإسلام بخمسين عاما، وكان أعور، ومن المتقدمين فى الإسلام، وهو وأبوه، وجده أشراف من بنى عبس، وقيل له: لم تقول الشعر بعد الكبر؟ قال: أسقى به الماء، وأرعى به الكلأ، وتقضى لى به الحاجة، فإن كفيتنى ذلك تركته.

والعجاج هو عبد الله بن رؤبة من بن تميم، كان يكنى أبا الشعثاء، والشعثاء، ابنته، وكان لقى أبا هريرة، وسمع منه أحاديث، وكان من أهل العراق، وقال له سليمان بن عبد الملك: إنك لا تحسن الهجاء، فقال إن لنا أحلاما تمنعنا من أن نظلم، وأحسابا تمنعنا من أن نظلم، بالبناء للفاعل فى الأولى، وللمفعول فى الثانية، وهل رأيت بانيا لا يحسن أن يهدم؟ وسمى العجاج لقوله: حتى يعج عندها من عجحا، والعج: الصوت، أو رفعه بالدعاء، وقيل: هو العجاج بن عبد الله بن رؤبة، ومات سنة سبع وستين من الهجرة.

يقول الشاعر: وقصعا، وهى جمع قصعة، تكسى ثمالا، وهى رغوة اللبن، قشعما.

فجعل القصاع مملوءة، كأنها مكسوة بالثمال.

ثم يصور هذه القصاع،وهى مكسوة بالبن أن الجاهل،مالم يعلم حقيقتها، يحسبها شيخا جالسا على كرسيه معمما، فهذه الصورة تحاكى تلك.

ثم يستطرد بقوله: لو أنه، أي الشيخ أبان، أو تكلم، أى لكان هذا الظن إياه، لكنه أعجم لا ينطق، فهو ليس شيخا على كرسيه معمما، وإنما هو ثمال اللبن فى القصعة، وقد ملأها، أو كساها حتى نهايتها.

ولعله صور رغوة اللبن تكسو القصائع كالكسوة، واشتق منها: تكسى، فهى استعارة تبعية فى الفعل تتبع الاستعارة فى المصدر.

وقد ذكر هنا الثمال بمعنى رغوة اللبن التى تعلوه.

***

وأنشد أبو العباس ثعلب عن النابغة الجعدى أو الكميت: (١)

---

(١) تاريخ الأدب العربى ١/٢٣٢، الشعر والشعراء
البيان والتبين ١/١١٤
النابغة الجعدى هو أبو ليلى عبد الله بن قيس، من بنى جعدة بن كعب، ولد فى الفلج جنوبى نجد،وزار اللخميين فى الحيرة،وقدم وهو سيد قومه مع وفدهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة تسع من الهجرة، وشهد فتح فارس، وحارب مع على رضى الله عنه يوم صفين، ومات معمرا بأصفهان سنة خمس وستين من الهجرة، وقيل: إن اسمه حسان، وكان أسن من النابغة الذبيانى، وهو من الشعراء المخضرمين، وعمر عمرا طويلا، قيل: إنه عاش مائتتين وعشرين سنة، ولما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم،قال له: إلى أين أبا ليلى؟ فقال: إلى الجنة، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يفضض الله فاك، فبقى عمره لم تنفض له سن، ونادم المنذر أبا النعمان بن المنذر، وقد نادم النابغة الذبيانى النعمان بن المنذر، فكان الجعدى أقدم من الذبيانى، وعمر حتى ورد على ابن الزبير،ونازع الأخطل الشعر، فغلبه الأخطل، وكان العلماء يقولون فى شعره=

تفور علينا قدرهم فنديمها ونفثؤها عنا إذاحميها غلا[1]

يقول: تفور القدر، وهى فوق النار من الغليان، فيتركون إيقاد النار تحتها، ويتركون القدر على الأسافى كما كانت، ،ولا ينزلونها، حتى يزول هذا الفوران.

أي يكون هذا العمل بعد أ ن ينضج ما فى القدر من اللحم غالبا، لأنهم ينضجون اللحم المعجل، فى القدر، ويطلقون عليه القدير، وهى صيغة فعيل بمعنى مفعول، أى المقدور، أى المنضج فى القدر بالماء.

وهو غير الصفيف، بمعنى المصفوف، أى المصفوف على السفود للشواء.

= تفاوت، فبعضه جدمبرز، وبعضه ردئ ساقط.

أما الكميت بن زيد الأسدى فقد ولد سنه ستين من الهجرة، كان يهاجى شعراء اليمن، وكان يتشيع لبنى فاطمة رضى الله عنها، ويرى أنهم وحدهم المثلون الشرعيون لبنى هاشم، ولما مدح بنى هاشم أمر الخليفة هشام بن عبد الملك بقتله، فحبس بالكوفة، واحتالت زوجته في خلاصه، وعفى عنه، لكنه مات مقتولا سنة مائة وست وعشرين من الهجرة، وشاع شعره بين الشيعة بعد وفاته، وكان يعاب فى عربيته، وقال الأصمعى: ليس بحجة، وقال العجاج: إنه كان يسأله عن الغريب، فيخبره، فيضعه فى شعره فى غير موضعه، وحكى ابن جنى ما يدل على بطء قريحته فى الشعر، وقال عنه الجاحظ : إنه من الخطباء الشعراء، وكنيته أبو المستهل، وكان من خيرة شعراء الدولة اليمنية، وكان عالما بلغات العرب وأيامهم، ومن خير شعره وأفضله الهاشميات، وهى القصائد التى ذكر فيها بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخير، وكان معلما يعلم الصبيان فى مسجد بالكوفة، وكان أصم أصلخ لا يسمع شيئا، وكان شديد التكلف فى الشعر، كثير السرقة، وكانت له صحبة، ووقف، علياالفرزدق، وهو ينشد، والكميت صبي، فقال له الفرزدق: أيسرك أنى أبوك؟ فقال الكميت: أما أبى فلا أريد به بدلا، ولكن يسرنى أن تكون أمى، فحصر الفرزدق، وقال: ما مر بى مثلها

(١) مجالس ثعلب٢/٤٩٧

نديمها: الإدامة، أن يترك القدر على النار بعدما تنضج، ولا يوقد تحتها، ولا ينزلها، فتلك الإداقة، يقال: أديمى قدرك، فثأعنه، أى انكسر عنه، وفثأت الحار بالبارد، أى كسرته.

ثم يقول: ونكسر حرارتها إذا حميها غلا، أى يكسرون حرارتها بالماء البارد عندما يحمى غليها إلى درجة بعيدة

فالشاعر هنا يوضح طريقة إنضاج اللحم فى القدر على النار، حين يحمى غليها: يكسرون ذلك بالماء يضعونه فى القدر، ليخفف من حمى هذا الغليان.

وحين ينضج اللحم فى القدر، يكفون عن إيقاد النار تحت القدر، ولا ينزلون القدر من فوق الأسافى، وتترك هكذا بغير إشعال نار.

وقد ذكر الشاعر طريقة إنضاج اللحم فى القدور.

***

- الجوذابة: خبز يخبز فى التنور، وقد علق فوقه طائر، أو لحم يشوى، فيقطر ودكه على ذلك الخبز، فيغنى عن الأدم.

وهو طعام معروف عند العرب، وخاصة فى العصر العباسى، حيث الحضارة.

قال ابن الرومى يصف دجاجة.

طفقت تجود بذوبها جو ذابة قانى لباب اللوز فيها السكر [1]

أى دجاجة فوق الخبز تجود بذوبها، بما ذاب منها من الدهن، والحشو، الذى ذكر منه هنا لباب اللوز، والسكر.

وليت شعرى، كيف تكون مثل هذه الدجاجة التى يذوب فيها ودكها، مع اللوز، والسكر.

---

(١) ديوان ابن الرومى ٩٥٤/٣

وربما قصد أن ذوبها كأنه لباب اللوز، فى الطعم الحلو الشهى، لان الجوذابة تصنع بغير سكر، ولو قلنا: إنها تحشى باللوز فلا بأس، أما أن تحشى بالسكر، فهو أمر مشكوك فيه.

وربما صور لباب اللوز القانى فيها بالسكر، وهذا فى ظنى أقرب المعانى المقصودة، فهو يصف الدجاجة، وذوبها، وحشوها من اللوز القانى الذى يشبه السكر فى الطعم.

وكأنه يقول: السكر فيها اللوز القانى، أو اللوز القانى فيها هو السكر.

***

وأنشد أبو العباس ثعلب:

بيالهم إذ نزلوا الطعامـــا

الكبد والملحاء والسناما[1]

المعنى أن الضائف هيأ لضيوفه، حين نزلوا عليه، هيأ لهم الطعام، وأوضح هذا الطعام بقوله: الكبد، والملحاء، والسنام.

وهذه ألوان من طعام العرب من الإبل، الكبد ، فكانوا يأكلون كبد الإبل.

والملحاء: وهى قطعة من لحوم الإبل، تستبطن فقر الصلب، أو الظهر، من الكاهل من الأمام إلى العجز فى الخلف، ولعل هذا الجزء يعد أفضل

(١) مجالس ثعلب ٢/٤٥٥

بيا: هيأ، الملحاء: لحم مستبطن الصلب من الكاهل إلي العجز، الكبد: بكسر الكاف، وسكون الباء، هو الكبد، بفتح الكاف، وكسر الباء، الملحاء: بفتح الميم، وسكون اللام، السنام: بفتح السين المشددة.

أجزاء الإبل، وغيرها من الحيوانات الأخرى، وذلك يدل على اعتزاز الضائف بضيفه الذين نزلوا عليه، فلا بد أن يطعمهم أجود ما عنده من اللحم.

وذلك يدلنا على أن العرب كان لديهم خبرة بمواطن الجودة من لحوم الإبل، نظرا لكثرة ما يذبحون، وما يأكلون.

والسنام: أى ما فى السنام من لحم وشحم، فقد جمع بين طعام دموى، وهو الكبد، وطعام من اللحم الخالص، وهو الملحاء، وطعام من الشحم، وهو السنام، فقد جمع لهم أطايب طعام لحوم الإبل.

ولا شك أن معنى البيت يدل على كرم الضائف، وسرعة القرى عنده، وذلك لقوله.: إذ نزلوا، أى عند نزولهم هيأ لهم الطعام، ولم يتوان فى ذلك .

وهذان البيتان يدلان على ثلاثة أنواع من الطعام عند العرب، هى الكبد، والملحاء، والسنام.

***

***

ومن بين طعام العرب التمر، والتمر عندهم مشهور، ومعروف، ومن أنواعه الفرض، بفتح الفاء، وسكون الراء، والأزاذ، بزاى وذال بينهما ألف، والسعد، بضم السين المشددة، وسكون العين.

أنشد أبو العباس ثعلب :

إذا أكلت سمكا وفرضا ذهبت طولا وذهبت عرضا[1]

يقول إذا أكلت سمكا، وأكلت فرضا فقد قويت، حتى إننى أستطيع أذهب طولا فى البلاء، وأذهب عرضا فيها، لا يضعفنى شئ بعد هذا الطعام.

وربما يكون المعنى: فقد ذهبت فى طعامى مذهبين طولا وعرضا، فهما سمك، وتمر، والسمك طعام البحر، والتمر طعام البر، والسمك مرتبط بالماء، والتمر مرتبط بالرمال والصحراء، وشتان بين موضع كل منهما،

وقد ذكر فى البيت لونين من الطعام. هو السمك، والتمر الذى هو الفرض.

***

(١) مجالس ثعلب ١٧٩/١
الفرض: تمر من تمر اليمامة.

وقال أوس بن حجر: [١]

وكأن طعن الحى مدبرة   نخل بزارة حملها السعد [٢]

يصور الإبل بهوادجها، وفيها النساء، وهى مدبرة بالنخل فى زارة، حملها تمر هو السعد.

وذلك التصوير يحمل معانى كثيرة، فالتحل فى هذا المكان يحمل تمرا كثيرا، فيكون شكلا معينا، هو منظر ساق النخل الطويل الذى يعلوه حمل كبير.

واجتماع النخل، وكثرته، وكثرة ما يحمل من تمر، جعل الشاعر يصور ظعن الحى فى كثرتها، وكبر هوادجها بهذا النخل الكثيف، الثقيل الحمل.

---

(١) تاريخ الأدب العربى ١/١١٢، الشعر والشعراء ١/٢٠٢-٢٠٩، البيان والتبين ١/١٩٠، الروائع ١/٢٨٤-٢٨٦

أوس بن حجر التميمى، كان معاصرا لعمرو بن هند ملك الحيرة، شاعر جاهلى، كان مولده بالبحرين، وطاف بشعره ومدائحه فى نجد والعراق، نادم ملوك الحيرة، وكان زهير بن أبى سلمى ربيبه، وراويته، ونالت أشعاره شهرة فى وصف الصيد والسلاح، قال أبو عمرو بن العلاء: كان أوس فحل مضر، حتى نشأ النابغة وزهير فأخملاه، وقيل لعمرو بن معاذ، وكان بصيرا بالشعر: من أشعر الناس؟ فقال: أوس، قيل: ثم من ؟ قال: أبو ذؤيب، وكان أوس عاقلا فى شعره، كثير الوصف لمكارم الأخلاق، وهو من أوصفهم للحمر والسلاح، ولا سيما القوس، وسبق إلى دقيق المعانى، وإلى أمثال كثيرة، وهو شاعر تميم فى الجاهلية غير مدافع،

وقال الأصمعى: أوس بن حجر أشعر من زهير، ولكن النابغة طأ طأ منه، وكان منقطعا إلى فضالة بن كندة الذى كان كثير البر به، وكان من شعراء البلاط الحيرى، وقد عمر طويلا، وكان بدويا قحا فى حياته، وفنه، وبرع فى وصف المطر، ومناظر الصيد، وهو رائد من رواد مدرسة الصنعة فى الجاهلية ، وكان زهير زوج أمه.

(٢) مجالس ثعلب ١/ ١٨٠، ديوان أوس بن حجر ص ٤

السعد: بضم السين المشددة، وسكون العين : ضرب من التمر

زارة: قرية كبيرة بالبحرين، الظعن: جمع الظعينة، وهى المرأة المسافرة فى الهورج، أو الإبل بهوادجها، وفيها النساء

وربما كان اللون أيضا مشبها إلى حد بعيد هذا النخل.

وقد قيل ظعن الحى بقوله: مدبرة، حتى لا تظهر أعناق الإبل، وتظهر سيقانها الطويلة بما تحمل من الهوادج، فتكون آنئذ مشبهة نخل زاره بما يحمل من السعد.

وكما قيد ظعن الحى بالإدبار قيد أيضا النخل بأنه نخل زارة.

أما حملها السعد فهو توضيح لما تحمل، لأنه مشهور، ومعروف.

وفى رأيى أن كلمة الحى حشو فى البيت للوزن الشعرى.

وقد ذكر الشاعر فى بيته لونا من ألوان التمر، وهو السعد.

***

وكانوا يأكلون من البلح أيضا الفضيخ، وهو الرطب المفنوخ المشدوخ، وهو البلح الذى أرطب بعد ما كان بسرا.

أنشد أبو العباس ثعلب

إذا رأيت أنجما من الأســـد

لاح سهيل فى الفضيخ ففســـد

وطاب ألبان اللقاح وبـــرد [1]

يقول: إذا رأيت أنجما من كواكب الأسد، فى هذا الوقت يلوح سهيل، فيصير البسر رطبا، وربما فسد هذا الرطب، لكن ألبان الإبل تطيب، وتبرد.

وفى هذه الأبيات دلالة على التوقيت فى ذلك الزمن، فهم يؤقتون بالكواكب، وطلوع بعضها، فيعرفون السنين، والشهور، ولذلك قال: إذا رأيت أنجما من الأسد، ولاح سهيل، وقد أشير إلى ذلك فى القرآن الكريم، والتقويم الهجرى الآن على هذا النحو.

أما الطعام الذى ذكر فى هذه الأبيات فهو الفضيخ، وهو رطب البلح المفضوخ المشدوخ، وكذلك ألبان الإبل، ويحبونها باردة، وقد اعتمدوا فى برودتها على الطبيعة.

***

(١) مجالس ثعلب ٢/٤٢١

الأسد: مجموعة نجوم، يطلق عليها كواكب الأسد، لاح: ظهر، الفضيخ: الرطب المفضوخ المشدوخ، يقول: لما طلع سهيل ذهب البسر وأرطب، وحد برد، لأن معنى لبن، وألبان واحد، اللقاح: جمع لقحة، وهى ذوات الألبان من الإبل.

***

الرقاق: خبز رقيق، والرقاق والرقيق بمعنى.

وسمي بذلك لأنه يصنع رقيقا، حتى ليجعلون آحاده أوراقا، فيقولون: أوراق الرقاق، ليدلوا على انتهائه في الرقة إلى حد يشبه رقة الورق.

ولهذا المعنى كان الرقاق والرقيق اسمه كوصفه، فهو رقيق ورقاق، اسما ووصفا.

قال أبو نخيلة السعدى:[1]

بربة لم تأكل المرققا ولم تذق من البقول الفستقا[2]

أي لم تأكل المرقق، وإنما تأكل الخشن من الطعام، فهي برية، لم تذق الفستق من البقول، وإنما تعيش على ما خشن من ألوان الطعام.

***

وقال ابن الرومي

---

(١) البيان والتبيين ٣/١٩٥

هو أبو نخيلة السعدى الراجز، كان من شعراء بني أمية، ورجازهم، والعاملين على الإشادة بذكرهم، وكان مسلمة بن هاشم بن عبد الملك يختصه بعطفه وبره، فلما قامت الدولة العباسية انقطع إليهم، ومدحهم، وهجا بنى أمية، وأنشأ أرجوزة يغرى فيها أبا جعفرالمنصور بالعهد لابنه المهدى، وخلع عيسى بن موسى من ولاية العهد، وأنشدها بين يدى المنصور بأمره، وبحضور عيسى، فسلط عيسى عليه أحد مواليه، فقتله بطريق خراسان.

(٢) لسان العرب ١٣/٦٥

ومرقّقات كلهن مزخرف   بالبيض منها ملبس ومدثر [1]

أى ألوان من الخبز مرققات، ومزخرفات بألوان أخر من الطعام، أو بالبيض، قد جعل البيض لها لباسا، أو دثارا، وهذه ألوان من الطعام تدل على ما وصلت إليه الحضارة في العصر العباسي، في القرن الثالث الهجري.

وقال جرير:

تكلفنى معيشة آل زيد   ومن لى بالمرقق والصنابّ [2]

المرقق: أى أوراق الرقاق، أى لا أستطيع تكاليف هذه المعيشة، فمن أين لى بالمرقق، والصناب؟ لا قدرة لى على ذلك.

فقال الفرزدق يجيبه

فإن تفركك علجة آل زيد   ويعوزك المرقق والصناب

فقد ما كان عيش أبيك مرا   يعيش بما تعيش به الكلاب [3]

يقصد ما قال جرير أنه يعوزه المرقق والصناب، فقال: فإن تكرهك هذه الجارية، ويعوزك هذا الطعام، فقد كان عيش أبيك مرا، إذ كان يعيش بما تعيش به الكلاب، انتهز الفرصة لهجائه اللازع.

وفي اللسان: ومن لى بالصلائق والصناب.

---

(١) زهر الآداب وثمر الألباب ٢/ ٥

(٢) الكامل فى اللغة والأدب ١/ ٩كان جرير اشترى جارية من رجل يقال له زيد من أهل اليمامة، ففركت جريرا، وجعلت تحن إلى زيد، وكانت العرب تسمى الرقاق سبائك، والصناب: صباغ يتخذ من الخردل، والزبيب.

(٣) المصدر السابق

وهذه محاورة لطيفة بين جرير والفرزدق اللذين كان لهما فى النقائص باع طويل.(١)

---

(١) تاريخ الأدب العربى ١-٩-٢٠، البيان والتبين ١/ ٢١٥ . ٣٤٥، الشعر والشعراء ١/ ٤٧١-٤٨٢ . ١/ ٤٦٤-٤٧٠

الفرزدق أبو فراس همام بن غالب، ولد بالبصرة سنه عشرين من الهجرة، ولقب جده صعصعة بمحيى الموءودات، وأوصاه على بن أبى طالب رضى الله عنه أن يقرأ القرآن خيرا له من الشعر، ويروى إنه وضع رجليه فى القيد، وأقسم لا يفكها إلا بعد أن يحفظ القرآن، وانتقل من البصرة إلى الكوفة، ثم إلى المدينة، ثم إلى العراق، وله مع زوجته النوار قصة عجيبة، وأسن الفرزدق حتى قارب المائة، ومات فى البصرة سنه مائة وعشر من الهجرة، وبرزت قوة شعر الفرزدق على أشدها في الهجاء، وحكيت طرف كثيرة فى حدة هجائه، وكان يونس بن حبيب النحوى يقول: لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث لغة العرب، وكان الفرزدق مستهترا بالنساء ولكنه مع ذلك ليس له بيت واحد مذكور فى النسيب، وكان جرير عنيفا، وهو مع ذلك أغزل الناس، وكان الأصمعى يعيب على الفرزدق كثرة السرقة، وكان جرير يعيب قوم الفرزدق بالخزيرة، وذلك أن ركبا من مجاشع مرواوهم عجال على شهاب التغلبى، فسألهم أن ينزلوا فلما أبوا لاستعجالهم، رفض أن يجوزوه حتى يصيبوا القرى، فحمل إليهم خزيرة، فأكلوها، يعظمون اللقم،فتسيل على لحاهم، وكان أبوه غالب يكنى أبا الأخطل، وكان سيد بادية تميم، واستجير بقبره، وهو بكاظمه قرب البصرة، فى حمالة، فاحتملها عند الفرزدق، وسمى الفرزدق لغلظه وقصره، شبه بالفتيتة التى تشد بها النساء، وهى الفرزدقة، والفرزدق: الرغيف، أو فتات الخبز، أو قطع العجين، سمى بالعجين الذى يسوى منه الرغيف، وكنيته أبو فراس، وأصابته الدبيلة، بالتصغير، وهى خراج ودمل كبير تظهر فى الجوف، فتقتل صاحبها غالبا، ومات وقد قارب المائة، ومات الفرزدق قبل جرير، فرثاه جرير.

أما جرير فهو أبو حزرة جرير بن عطية الخطفى، وسمى الخطفى لقوله: وعنقا باقى الرسيم خيطفا، والعنق! لون من السير، والرسيم أسرع منه، والخيطف أسرع منهما لأنه من الخطف، كما يخطف البرق والخيطف هو الخطف، والياء زائدة، ولد بالعراق، وهاجي كثيرا من شعراء العراق، وقد غلب الفرزدق فى النسيب، وقيل فى كل بيوت الشعر، وهى أربعة، فخر، ومديح، وهجاء، ونسيب، وروي عنه أنه قال: إن الأخطل أشعر منه، وأعانه عليه كبر سن، وخبث دين، وروى أن جريرا هاجي ثلاثة وأربعين شاعرا، وهاجي البعيث أربعين سنة، وانتقل فى أواخر عمره إلى اليمامة، ومات فيها سنة مائة وعشر من الهجرة، وقيل: كان ذلك بعد وفاة الفرزدق بستة أشهر، وكان عطية أبو جرير مضعوفا، وولدت جريرا أمه لسبعة أشهر، وعمر الفرزدق ثمانين سنة، ومات باليمامة، وكان له عشرة من الولد، فيهم ثمانية ذكور، وكان من أولاده شعراء، وكان من فحول شعراء الإسلام، ويشبه من شعراء الجاهلية بالأعشى،وكان أبو عمرو بن العلاء يقول:هما بازيان =

***

لما عيب ابن الرومى أنه لا يأتى بتشبيهات ابن المعتز، فقال: لكنه لا يحسن أن يقول مثل ما قلت.

ماأنس لا أنس خبازا مررت به   يدحو الرقاقة مثل اللمح بالبصر

ما بين رؤيتها فى كفة كرة   وبين رؤيتها قوراء كالقمـــر

إلا بمقدار ما تنداح دائرة   فى لجة الماء يلقى فيه بالحجر(١)

يصف عمل الخباز، وهو يدحو الرقاقة، ويصور هذا العمل، فى تصوير

= يصيدان ما بين العندليب إلى الكركى، وكان من أحسن الناس تشبيها، وقال جرير: لولا ما شغلنى من هذه الكلاب لشببت تشبيبا تحن منه العجوز إلى شبابها، كما تحن الناب إلى سقبها، وكان من أشد الناس هجاء، وقال الراعى: لعنة الله على من يلومنى أن يغلبنىَ مثل هذا، يقصد جريرا، وكان مع حسن تشبيبه عفيفا، وكان الفرزدق فاسقا، وكان يقول: ما أحوجه مع عفته إلى صلابة شعرى، وما أحوجنى إلى رقة شعره، لما ترون، وسأله أبو عمرو بن العلاء: فلأى شيئ تشتم الناس؟ قال يبدؤوننى ثم لا أعفو، وكان يقول: أنا لا أبتدى، ولكن أعتدى، وقال بعض شعراء بنى كليب: إن نساء جرير لم تدع الشعراء فيهن مرقعا، وكان جرير يقول: النصرانى أنعتنا للخمر والحمر، وأمدحنا للملوك، وأنا مدينة الشعر، وسئل الأخطل: أيكم أشعر؟ قال: أنا أمدحهم للملوك، وأنعتهم للخمر والحمر، يعنى النساء، وأما جرير فأنسبنا وأشبهنا وأما الفرزدق فأفخرنا، وقال مروان بن أبى حفصة:

ذهب الفرزدق بالفخار وإنما   حلو القريض ومره لجرير

وكان جرير مقيما بالمروت من البادية، والفرزدق بالعراق، وهما يتهاجيان، فأرسلت بنو يربوع إلى جرير: ليس عندك أحد يروى عنك، والفرزدق بالعراق قد ملأها عليك منذ سبع حجج، فانحدر إلى العراق، فأقام بالبصرة.

(١) تاريخ الأدب العربى ٢/ ٤٣-٥٩

هو أبو العباد عبد الله بن المعتز، ولد سنة سبع وأربعين ومائتين من الهجرة، وهو ابن الخليفة المعتز بالله الخليفة العباسى من سنة أثنتين وخمسين ومائتين إلى سنة خمس وخمسين ومائتين من الهجرة، وقد بويع ابن المعتز بالخلافة، ولقب بالمرتضى، ولكنه لم يبق فى كرسى الخلافة إلا يوما وليلة، وقتل سنة ست وتسعين ومائتين من الهجرة، وكان يمعن فى تقليد مذهب القدماء فى الشعر، وتأثر بأبى نواس، وتأثر فى شعره بحياته، وكان هاشميا لذا وقف ضد العلويين، وله مؤلفات كثيرة.

بديع، يدل على سرعة الخباز، فى صنع الرقاقة، كسرعة انداح الدوائر فى الماء، إذا ألقى فيه الحجر، فإن الدوائر سرعان ما تتكون، من نقطة التقاء الحجر بالماء، فتسرع الدوائر، واحدة تلو الأخرى.

وهو تصوير يدل على دقة ملاحظة الشاعر، وبراعته فى رسم الصور المعبرة، والربط بين الصور بعضها ببعض.

وهذا أمر ليس غريبا على ابن الرومى، حيث أتى بالتصوير البديع، وبالصور العجيبة، وقد أتى فى هذه الناحية بما لم يسبق إليه، حيث أتى بالصور المبتكرة، والمخترعة، وأحسن فى تصويرها، بما يملك من حدة الذكاء، وسرعة الخاطر، والبديهة، والقدرة على الربط بين الصور، والمعانى، وحسن التأتى والإبداع.

فهاهو ذا يربط بين كرة الرقاق، وكرة الماء، ودائرة الخبز، ودائرة الماء، بشرط أكد عليه، وهو يلقى فيه بالحجر، قوة ملاحظة لا شك فى ذلك.

وقوله ما أنسى لا أنسى يدل على روعة المنظر، وعلوقة بالذهن، حتى إنه لا ينسى، لغرابته، وحسنه، وشدة التعجب منه، وهذا تهويل ومبالغة، أو تشويق وإثارة للذهن.

وقوله: مررت به يدل على خلو الذهن، لكن المنظر لكونه عجيبا، أو غريبا، أو مستطرفا فإنه أثار إنتباهه.

أما لفظة يدحو، فتدل على الشكل العام للرقاقة المدحوة، فهو يعطيها وصفا تشكيليا، وهو الاستدارة والرقاقة واحدة الرقاق.

ثم التصوير: مثل اللمح بالبصر، والتصوير الثانى: بمقدار ما تنداح

دائرة فى لجة الماء يلقى فيه بالحجر. والتصوير الثالث: ورؤيتها فى كفة كرة، والتصوير الرابع: رؤيتها قوراء كالقمر.

والتصوير الأول مثل اللمح بالبصر يدل على السرعة، وخفة العمل.

والتصوير الثانى تصوير عام للعمل كله، وسرعة إنجازه. وهو وصف عمل الخباز لهذه الرقاقة التى هى كالكرة فى الشكل ثم تستدير، وتكبر فى استدارتها، كدوائر الماء التى نجمت عن إلقاء الحجر فيه، وسرعة كبر هذه الدوائر .

والتصوير الثالث لعجينة الرقاقة بالكرة فى الشكل .

والتصوير الرابع للرقاقة بعد كبرها واستدارتها بالقمر، ولعل هذا التصوير الأخير قد راعى فيه أثر الرقاقة فى نفسه، لذا وصفها وصفا جميلا، يدل على شكلها، وأثر هذا الشكل، وهو أنها كالقمر، وكأنه يود أن يطعمها.

ثم قيد اندياح دائرة فى الماء بقوله: يلقى فيه بالحجر، وهو تقييد، جعل الصورة منطبقة تماما، وذلك يدل على براعة الشاعر.

***

***

وقال ابن الرومى أيضا يصف صانع الزلابية، بمثل ما وصف الخباز، وهو يصنع الرقاقة.

وقد أبدع فى التصوير، ودقة الملاحظة، وسرعة البديهة، وسهولة التعبير.

فيحكى أنه رأى صانع الزلابية، وحدد الزمان فى وقت السحر، وحدد العمل، وهو إنه يقلي زلابية .

ثم وصف الزلابية بوصفين، هما: رقة القشر، والتجويف، وصورها بالقصب المجوف فى هذين الوصفين.

ثم وصف صانع الزلابية، فهو يلقى العجين، ويصف هذا العجين بأنه لجين فى لونه.

ثم يصف الزلابية بعد قليها، فصورها بشبابيك من الذهب، وقد راعى فى هذا الوصف الشكل، واللون.

وربما يكون لوصفها بالذهب نوع من الرغبة فيها، وفى اشتهائها.

كما دل على دقة عمل هذا الصانع بقوله: من أنامله، غاية فى الدقة.

***

يقول فى هذا الوصف:

رأيته سحرا يقلى زلابيـــة   فى رقة القشرة والتجويف كالقصب

يلقى العجين لجينامن أنامله   فيستحيـل شبابيكـا من الذهـب

ذكر الزلابية، وكيف تصنع من العجين ، فتصير شبابيك من الذهب، بعد نضجها ، كما ذكر رقتها ، وتجاويفها ، كأنها القصب المجوف، ويصف شكل العجين قبل النضج، وبعده.

***

وقال ابن الرومى أيضا:

طباهجة كأعراف الديوك ‏‏ تروق العين من شرط الملوك[1]

والطباهجة: ضرب من اللحم المشرح، يصنع من البيض والبصل، يصف الطباهجة فى الشكل والحجم، واللون كأعراف الديوك، وهو وصف يدل على حسن صنعة الطباهجة.

وقال آخر:

فنضحى سكارى والمدام مصفف ‏‏ يدار علينا والطعام المطهبج[2]

أى الطعام المطبوخ من اللحم والبيض والبصل، لكنه ذكر مع هذا الطعام المدام المصفف الذى يسكرهم

***

وقال ابن الرومي أيضا:

ومدققات كلهن مزخرف ‏‏ بالبيض منها ملسن ومدثر [3]

روى مدققات، ومرققات.

---

(١) ديوان ابن الرومى ٥/ ١٨٩٠

(٢) شرح مقامات بديع الزمان الهمذانى ص ٣٦٨

(٣) ديوان ابن الرومى ٣/ ٩٥٤

***

وقال ابن الرومي:

ضحك الوجوه من الطبرزد فوقها　　دمع العيون من الدهان تعصر [١]

والطبرزد: نوع من السكر أبيض صلب.

ومما روى في وصف الطعام قول ابن الرومي يصف طعاما أكله عند أبي بكر الباقطاني، وقد وصف أنواعه، وهذه الأنواع تدل على ما وصلت إليه الحضارة في العصر العباسي في شتى نواحي الحياة.

وسميطة صفراء دينارية　　ثمنا ولونا زفها لك حزور

عظمت فكادت أن تكون أوزة　　وغلت فكاد إهابها يتفطر

طففت تجود بذوبها جوذابة　　فأتى لباب اللوز فيها السكر

ظلنا نقشر جلدها عن لحمها　　فكأن تبرا عن لجين يقشر

وتقدمتها قبل ذاك ثدائد　　مثل الرياض بمثل ذاك تصدر

ومرققات كلهنا مزخرف　　بالبيض منها ملبس ومدثر

وأتت قطائف بعد ذاك لطائف　　ترضى اللهاة بها ويرضى الحنجر

ضحك الوجوه من الطبرزد فوقها　　دمع العيان من الدهان يعصر[٢]

ذكر السميطة، والجوذابة، والثرائد، والمرققات، والقطائف، والطبرزد،

---

(١) ديوان ابن الرومي ٣/٩٥٤

(٢) زهر الآداب وثمر الألباب ٢/٥

الحزور: السريع إلى إكرام الضيف.

واللون، والسكر، مما يدل على براعة الصنع، وجمال التذوق.

وقد جعل السميطة صفراء دينارية فى لون الدينار، وثمنه، قدمها لك كريم، ليدل على حسنها وجعلها أوزة، يتفطر جلدها لسمنها

وذكر الجوذابة المحشوة، التى يشبه جلدها التبر، ولحمها اللجين.

كما ذكر الشرائد التى تشبه الرياض فى الألوان، والمرققات المزخرفة بالبيض، والقطائف اللطائف، التى تسعد بها اللهاة، والحنجر، والطبرزد، والدهان الذى يعصر.

ولعلنا نلاحظ الأوصاف التى ذكرها، التى تكمل صفة الطعام، أو يكون لها دور فى طعمه، أو حجمه، مثل قوله: وسميطة صفراء دينارية ثمنا ولونا، فهذه الصفات تعلى من قيمة هذه السميطة، وتغلى ثمنها.

ثم زادها وصفا بقوله: زفها لك حزور، والحزور السريع إلى إكرم الضيف، والكريم إنما يقدم الشئ الجيد، فهذا الوصف أيضا يعود أثره على السميطة.

ثم زاد وصفها بقوله: عظمت فكادت أن تكون أوزة، وهذا وصف يدل على كبر الحجم.

ثم وصفها وصفا يدل على اشتهاء مثلها.، وهو قوله: وغلت فكاد، إهابها يتفطر، أى نضجت بالطبخ إلى درجة بعيدة.

ثم وصف عملهم عند أكلها، بقوله: ظلنا نقشر جلدها عن لحمها، وصورها فى هذا العمل كأن تبرا، وهو الجلد عن لجين، وهو اللحم يقشر، أى يزيلون التبر عن اللجين، فاللون الأول أصفر يميل على الحمرة، والثانى أبيض.

ووصف الثرائد بالرياض، وتصدر الألوان لها.

وذكر المرققات المزخرفة بالبيض، فمنها المدثر والملبس.

ووصف القطائف بأنها لطيفة شهية، فترضي اللهاة بها، ويرضى الحنجر، لأنها ذات طعم مستساغ جميل.

ثم وصف الطبرزد فوقها بالوجه الضاحك والدهان الذي يعصر منها بدمع العين.

وهذه الألوان من الطعام تبين إلي حد بعيد مظاهر الحضارة في العصر العباسي، في القرن الثالث الهجري.

***

***

ومن مليح ماقيل في القطائف قول علي بن يحيي المنجم في وصف القطائف، وصنعتها، وما تشتمل عليه من الحشو، والدهن:

قطائف قد حشيت باللـــوز

والسكر الماذى حشو المـوز

يسبح فى آذى دهن الجــوز

سررت لما وقعت فى حوزى

سرور عباس بقرب فـوز[1]

ذكر القطائف، واللوز، والسكر، والعسل، والموز، والجوز، مما يدل على بديع صنع هذه القطائف، فهى محشوة باللوز، والسكر، المذاب، أى العسل، وكأنها حشو الموز، يسبح فى دهن الجوز.

كل هذا يجعل الشاعر يسعد بهذه القطائف، لذا قال: سررت لما وقعت فى حوزى، سرور العباس بن الأحنف بقرب محبوبته فوز، وهو تصوير يدل على شدة السرور، والسعادة.

---

(١) زهر الأداب وثمر الألباب ٢/٧

الماذى: العسل، الآذى: الموج، عباس: هو العباس بن الأحنف، فوز: هو معشوقة العباس بن الأحنف.

والعباس بن الأحنف أشهر شعراء الغزل فى عصر بنى العباس، ولا يكاد يعرف له شعر فى غير الغزل، وقد نزل فى خراسان، واختلط بالعجم، وهو شاعر مطبوع يتبع مذهب عمر بن أبى ربيعة، نشأ ببغداد، ونادم هارون الرشيد، وتوفى سنة ثمان وثمانين ومائة من الهجرة فى بغداد، أو فى البصرة، أو فى الصحراء، وقيل سنة ثمان وتسعين ومائة من الهجرة

تاريخ الأدب العربى ٢/٢٣، طبقات الشعراء ٢٥٣-٢٥٦، الشعر والشعراء٢/٨٢٧

***

– اللوزينج: نوع من الحلوى يصنع من نوع من الخبز، ويسقى بدهن اللوز، ويحشى بالنقل.

قال ابن الرومى.

لا يخطئنى منك لوزينج   إذا بدا أعجب أو عجبا [1]

أى لا يخطئنى ولا يبعد عنى، فلا بد أن أصيب منه أى من اللوزينج، واسمه كما هو واضح يدل على أنه يصنع من اللوز.

ثم يقول إذا بدا وظهر أعجب، أو عجب، من آلإعجاب، أو التعجب

***

ولم يقل أحد فى صفة اللوزينج أحسن من قول ابن الرومي

لا يخطئني منك لوزينج   إذا بدا أعجب أو عجبا

لم تغلق الشهوه أبوابها   الا أبت زلفاه أو يحجبا

لو شاء أن يذهب في صخرة   لسهل الطيب له مذهبا

يدور بالنفخة في جامه   دوراً تري الدهن له لولبا

عاون فيه منظرا مخبر   مستحسن ساعد مستعذبا

مستكثف الحشو ولكنه   أرق جلدا من نسيم الصبا

كأنما قدت جلابيبه   من نقطة القطر إذا حببا

---

(١) ديوان ابن الرومى ٢٣٧/١

يخال من رقة خرشائه   شارك في الأجنحة الجندبا

لو أنه صور من خبزه   ثغر لكان الواضح الأشنبا

من كل بيضاء يود الفتى   أن يجعل الكف لها مركبا

مدهونة زرقاء مدقوقة   صهباء تحكى الأزرق الأشهبا

قرة عين وفم حسنت   وطيبت حتى صبا من صبا

زيق له اللوز فما مرة   مرت على الزائق إلا أبى

وانتقد السكر نقاده   وشاوروا في نقده المذهبا

فلا إذا العين رأته بنت   ولا إذا الضرس علاه نبا

لا تنكروا الإدلال من وامق   وجه تلقاءكم المطلبا[1]

فقد ذكر اللوزينج، واستساغة مذاقه، ورائحته، والطيب، والحشو، والرقة، والدهن، واللوز المنتقى، والسكر المنتقد.

وهذه كلها تدل على مذاق طيب لهذا اللوزينج مما جعل الشاعر يلهج بهذا الوصف.

وليت شعرى كيف يكون مثل هذا اللوزينج، وكيف يكون طعمه، وكم هى المواد التى دخلت فى تكوينه العجيب؟

ألهذا الحد وصلت بهم الحضارة إلى حيث يصنعون ذلك الطعام العجيب، لله أمرهم .

---

(١) زهر الأدب وثمر الألباب ٢/٨-٩

اللولب: استدارة الماء، حبب: صار ذا حبب، بالتحريك،

الخرشاء: الجلدة الرقيقة، الجندب: الجراد، الأشنب: من الشنب، وهو رقة، وبرد، وعذرية فى الأسنان، ذيق له اللوز: يريد أن صانع اللوزينج كان يختبر اللوز ليطرح منه ما يجد فيه مرارة.

وقد جعل الشهوة لا تغلق أبوابها عنه، فهو مأكول دائما، لا يحجب عن الشهوة إليه أبدا، ولو أراد أن يذهب فى صخرة لسهل له الطيب مذهبا إليها.

وقد جعل الدهن لولبا له، وقد عاون فيه المخبر المنظر، أو العكس.، وهو كثيف الحشو، لكنه أرق جلدا من نسيم الصبا، وياله من تصوير جميل.

وكأن جلابيبه قدت من نقطة القطر إذا صار ذا حيب، وجلدته رقيقة كأنها جناح جندب، ولو صور ثغر من خبزه لكان هذا الثغر رقيقا باردا عذبا.

وهو ذو لون أبيض، ومدهون بزرقاء، وصهباء، وأبيض، وهو قرة عين، وفم،

وقد اختير صانعه اللوز، لينفى عنه المرمنه، كما اختير له السكر اختيارا، فلا تنبوالعين عنه، ولا ينبو الضرس عنه، فهو حسن المنظر، شهى المذاق.

فلا تنكروا الإدلال من محب يطلب منكم أن يذوق هذا اللوزينج.

***

***

إضافة الثريد

إلى الليل، وإلى النهار فهى نسبة وردت فى الشعر، ينسبون الشئ إلى الليل والنهار، فيقولون: ليلى، ونهاري.

أنشد ابن سيده:[1]

لولا الثريدان لمتنا بالضمر   ثريد ليل وثريد بالنهر

أى ثريد صنع ليلا، أو أكل ليلا، وثريد صنع نهارا، أو أكل نهارا، فلولا هذان الثريدان لمتنا ضمرا، ثم بين الثريدين.

***

الخرديق: المرق

قال الهمذانى على لسان البطل:

أو قصعة تملأ من خرديـــق

يفثؤعنا سطوات الريق[2]

أي يكسر ويخفف سطوات الريق، وريق الجائع صعب شديد، وإذا وجد الجائع طعاما مثل هذا الطعام، الذى هو المرق، فإنه يفثأ به ريقه، الذى له سطوة شديدة عليه، والمقصود من سطوة الريق غلبة الريق على الجائع،

(١) لسان العرب ٧/٩٦، ٩٧.
(٢) المقاومة الأزاذية.

حتى إن ريقه ليبل فمه عند رؤية الطعام أو الشراب، وكأنه يشتهى هذا الطعام، أو ذلك الشراب.

والخرديق المرق، والقصعة: الإناء.

***

***

دخل الربيع بن زياد الحارثي على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فدعا بالطعام، فأتى بخبز يابس، وأكسار بعير، أو أكسار بغير إدام.

فقال له الربيع: لونظرت يا أمير المؤمنين إلى قوتك من الطحين، فيخبز لك قبل إرادتك إياه بيوم، ويطبخ لك اللحم كذلك، فتؤتى بالخبز لينا، وباللحم غريضا.

قال عمر رضى الله عنه: ياربيع، إنا لو نشاء لملأنا هذه الرحاب من صلائق، وسبائك وصناب.

***

ويوضح صاحبا العقد الفريد والكامل هذه الأطعمة بقوله:

صلائق: هو شئ يعمل من اللحم فمنها ما يطبخ، ومنها ما يشوى، أو ما عمل بالنار طبخا وشيا، يقال: صلقت الجنب، إذا شويته.وصلقت اللحم، إذ طبخته على وجهه .

ويقال: صلقت اللحم، إذا طبخته، وصلقته، إذا شويته.

***

غريضا: طريا، يقال لحم غريض: تراد به الطراءة، أو الطراء.

قال العتابى:[1]

---

(١)طبقات الشعراء ص ٢٦١
العتابى اسمه كلثوم بن عمرو، وهو من بني تغلب، من ولد عمرو بن كلثوم التغلبى قاتل عمرو بن هند، ويكى أبا عمرو من أهل قنسرين، وكان العتابى مجيدا، مقتدرا على الشعر، عذب الكلام، وكاتبا جيد الرسائل حاذقا، وقلما يجتمع هذا لأحد، وقيل: ما سمعت كلاما قط لأحد من المتكلمين أحسن من كلام العتابى، وما رأيت كاتبا تقلد الشعر مع الكتابة إلا وجدته ضعيف الشعر غيره، فإنه كان فحل الشعر جيد الكلام.

إذا ما فاتنى لحم غريض ضربت زراع بكرى فاشتويت

***

سبائك: يريد الحوارى من الخبز، وذلك إنه يسبك، فيؤخذ خالصه، والعرب تسمى الرقاق السبائك.

والصناب: صباغ يتخذ من الزبيب والخردل، ومنها قيل للفرس صنابى إذا كان فى ذلك اللون، أو شبه لونه بذلك. كما فى عبارة اللسان.

***

أكسار بعير، الكسر، والجزل، والعصل: العظم يفصل ما عليه من اللحم، أو ينفصل بما عليه من اللحم[1]

أما الإكسار بغير أدم، فهى إكسار الخبز الجاف بغير أدم يوضع عليه.

***

(١) العقد الفريد ١٩/١، الكامل فى اللغة والأدب ٨٩/١/ ٩٠
فى الكامل: الكسر، والجذل، والوصل: العظم ينفصل بما عليه من اللحم.

***

ويروى أن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أول من فطر جيرانه، وأول من وضع الموائد على الطرق، وأول من حيا على طعامه، وأول من أنهبه، وفيه يقول شاعر المدينة:

وفى السنة الشهباء أطعمت حامضا   وحلوا ولحما تامكا وممزعـــا
وأنت ربيع لليتامى وعصمـــة   إذا المحل من جو السماء تطلعـــا
أبوك أبو الفضل الذى كان رحمة   وغوثا ونورا للخلائق أجمعا[1]

***

فذكر الطعام الحامض، والحلو، وذكر اللحم المكتنز، واللحم المقطع .

وإذا كان يطعم فى السنة الشهباء، فهو غاية فى الكرم ، وهو ربيع لليتامى، وعصمة فى زمن المحل، والجدب، وصحو السماء ثم مدح أباه بأنه كان رحمة، وغوثا، ونورا، فأضاف إلى الكرم صفتين تنازعان الكرم المكانة العالية فى الإسلام بين العرب.

ومدح أباه وهو العباس بن عبد المطلب عم النبى صلى الله عليه وسلم.

وقال لقيط بن زرارة:[2]

---

(١) العقد الفريد١/ ٣٤٠
السنة الشهباء: التى لا خضرة فيها ولا مطر، تامكا: مكتنزا، ممزعا: مقطعا مفرقا.

(٢)الشعر والشعراء ٢/ ٧١٠، الأغانى ٣٤/١٠
هو لقيط بن زرارة من تميم، ويكنى أبا دختنوس، وأبا نهشل، وقتل يوم جبلة، وكان أشرف بنى زرارة، وتزوج بنت قيس بن مسعود، وأعطاه كسرى مائة من عصافيره، وهى نجائب، أو الجمل ذو السنامين، فهى عصفورية.

إن الشواء والنشيل والرغف

والقينة الحسناء والكأس الأنف

للطاعنين الخيل والخيل خنف

***

الشواء: ما يشوى من اللحم، والنشيل: لحم يطبخ بلا توابل، وقيل: النشيل: ما انتشلت يدك بلا مغرفة من القدر من اللحم المطبوخ، والأنف: المستأنف الذى لم يؤكل أو يشرب قبل منه شئ، يقال كأس أنف:

إذا لم يشرب منه شئ، ويقال طعام أنف: إذا لم يؤكل قبل منه شئ.[1]

***

قال الحطيئة:

ويحرم سرجارتهم عليهم ويأكل جارهم أنف القصاع.[2]

---

(١) الشعر والشعراء ٢/٧١١

(١)الكامل فى اللغة والأدب ٢/١٩، تاريخ الأدب العربى ١/١٦٨، الأغانى ٢/٤، الخزانة ٢/٤٠٨، الشعر والشعراء ١/٣٢٢،

الحطيئة، أى القصير، لقب جرول بن أوس، وكان من بنى عبس، ولكنه كان ينتسب حسب الحاجة إلى قبائل مختلفة فى أثناء تجواله، وكان جوالا طفيليا، يمدح الأشراف ويعتصر منهم العطايا والمنح، أو يهجوهم هجاء لاذعا، إذا قبضوا أيديهم عن العطاء، واستشرى شره حتى حبسه الخليفة عمر، وروى أنه مات سنةثلاثين من الهجرة، ويعد الحطيئة أهجى الشعراء القدامى، وإلى نبوغه فى الهجاء يرجع الفضل فى بقاء شعره، ويروى أنه سمى الحطيئة لقصره، وقربه من الأرض، وتشبيها بالقملة الصغيرة، يقال لها حطأة، ويكنى أبا مليكه، وكان راوية زهير، وهو جاهلى إسلامى، وكان قد هجا أمه، وأباه ونفسه، وروى عنه أنه قال: أنا أشعر الناس، كما روى=

أنف القصاع: أى المستأنف الذى لم يؤكل قبل منه شئ، أو أعلى الطعام مما يدل على أنه لم يؤكل منه شئ قبلا، فيبدأ هو بأكل أعلى الطعام.

***

= أنه قال: أشعر العرب زهير بن أبى سلمى، ثم عبيد بن الأبرص، ثم أنا، وروى عنه أنه قال: أشعر الناس أبو دؤاد، ثم عبيد بن الأبرص، ثم أنا، وروى أنه قال: أنا أشعر الناس لسانا، وهجا الحطيئة الزبرقان بن بدر، فاستعدى عليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فحبسه عمر رضى الله عنه، وقال: يا خبيث، لأ شغلنك عن أعراض المسلمين، فاستعطفه الحطيئة، فرق له عمر، وخلى سبيله، وأخذ عليه ألا يهجو أحدا من المسلمين، وكان من فحول الشعراء، ومتقدميهم، كان متصرفا فى فنون الشعر مجيدا فى ضروبه، مع سلاطة، ودناءة، وخسة نفس، وقد هجا زوجته، واشترى عمر بن الخطاب رضى الله عنه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم، وروى أنه مات سنة تسع وخمسين من الهجرة.

وأنشد أبو العباس« ثعلب:

ونازلة بالحى ليلا قريتها　　جواليق أصفارا ونارا تحرق [1]

قال ثعلب: هذا جراد.

وقال الجاحظ: والجراد يطيب حارا، وباردا، مشويا، ومطبوخا، ومنظوما فى خيط، ومجعولا فى الملة.

والمعنى، ورب جماعة نازلة بديار الحى ليلا، قدمت لها القرى، والكرم، وكان هذا القرى جرادا موضوعا فى جواليق، ونارا تحرق، لينضج هذا الجراد.

وهو من أغرب ألوان الطعام عند العرب، ولعل البيئة الصحراوية هى التى ساعدت على أن يجبروا على أكل هذا اللون من الطعام.

والغريب أن الجاحظ يعد هذا اللون من الطعام عند العرب من فصيلة اللحوم، ويقول: إنه يطيب حارا، وباردا، مشويا، ومطبوخا، ومنظوما فى خيط فى أثناء طبخه فى القدر، ومجعولا فى الملة الحارة لينضج من حرارة الملة.

فهو لون من ألوان الطعام المعروف عند العرب، وهو نوع غريب علينا، نظرا لاختلاف البيئة، والظروف.

ولعل قوله: جواليق أصفارا، يقصد بها أصفارا بعد ما فرغها

---

(١) مجالس ثعلب ٢/٥٥١

نازلة: يقصد جماعة نازلة بالحي: بديار الحي، قريتها: قدم لها القري، وهو ما يقدم للضيفان من الكرم، جواليق: ما يوضع فيها، أو، مايصاد فيها، أصفارا: خاليات فارعات، عني بذلك جميع ما يصاد من الجراد فيها.

جميعها، لينضجها على النار، فصارت أصفارا، أى أنه جاد بكل ما عنده من الجراد.

★★★

وكان العرب يشربون الماء بالثلج وكذلك العسل، يشربونه ممزوجا، ومخلوطا بالثلج.

قال المرار بن منقذ يصف فتاه:

وإذا تضحك أبدي ضحكها   أقحوانا قيدته ذا أشـــــــر

لـو تطعمت بـه شبهتـــه   عسلا شيب به ثلج خصر[1]

يقصد وصف الريق بالعسل المشوب بالثلج البارد، وكأن هذا لون من ألوان الطعام للمطعوم، والمشروب الذى يطعمونه، أو يشربونه، أو يحبون ذلك فذكر الحلاوة فى العسل، والبرودة فى الخصر، والعذوبة فى الثلج.

وقال عبدة بن الطبيب[2] فى معرض نصيحة يسديها لبنيه عندما كبر ورابه بصره، وقد ترك لهم ذكرا فى الكلام، ووراثة الحسب، ومقام خطبة

---

(١) المفضليات ص ٩٠، الجهرة ٢٦٨/٢

الأقحوان: نبت له نور أبيض، كأنه ثغر جارية جدثة السن وهو البابونج ، قيدته؛ ضربت فيه بإبرة ثم أسفته نؤورا والنؤور- بفتح النون-دخان الشحم، وأسفته- بتشديد الفاء-ادخلت فيه، الأشر-يضمنين- جمع أشر- بفتح فسكون- وهو مثل التحزيز يكون في أسنان الطفل قبل أن يأكل ، خصر: بارد.

والمرار بن منقذ، بتشديد الراء الحنظلي العدوية، والمرار شاعر مشهور إسلامي، معاصر لجرير، وقد هاج الهجاء بينهما.

(٢) المفضليات ص ١٣٤

هو عبدة بن الطبيب، شاعر مجيد، ليس بالمكثر، وهو مخضرم، أدرك الإسلام فأسلم، شهد قتال هرمز سنة ثلاث عشرة، وله فى ذلك أثار مشهورة، وكان فى الجيش الذى حارب الفرس بالمدائن، وكان أسود، وهو من لصوص الرباب، وهو القاتل أرتى بيت قيل، وهو بيت قائم بنفسه، ما له نظير فى الجاهلية وفى الإسلام، وهو

وما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

وقيل لخالد بن صفوان: كان عبدة بن الطبيب لا يحسن أن يهجو، فقال: لا تقل ذاك، فو الله ما أبى من عى، ولكنه كان يترفع عن الهجاء، ويعده ضعة، كما يرى تركه مروءة، وشرفاه.

أو خصومة، وعطايا منحها، ونصيحة، وأوصاهم بتقى الإله، وبر والدهم، وترك الضغينة ثم قال:

واعصوا الذى يسدى النميمة بينكم   متنصحيا وهو السلام المنقــــع

يزجى عقاربه ليبعث بينكـــــم   حربا كما بعث العروق الأخـــدع

حران لا يشفى غليل فـــؤاده   عسل بماء فى الإناء مشعشع [1]

أى عسل ممزوج، أو مخلوط بالماء، فهو مشعشع، أى مخلوط

وذكر أنه لا يشفى غليل قلبه، مهما شرب منه.

***

(١) الشعر والشعراء ٢/٧٢٧، المفضليات ص١٤٦، عيون الأخبار ٢/٢١
وصية أوصى بها بنيه، حين أسن ورابه بصره، وهى من أغلى الوصايا وأعلاها، يزجى: يسوق، المتنصح: المتشبه بالنصحاء، السمام: جمع سم، المنقع: المعتق، الأخدع: عرق فى العنق إذا ضرب أجابته العروق، حران: شديد التلهب، يغلى جوفه من حرارة الغيظ أو العطش، الغليل: لهبان فى الجوف من الغيظ، ومن العطش، مشعشع: ممزوج.

***

ماء يشعشع بالثلج

والماء بالثلج كان العرب يشربونه، أو يحبون شربه، نظرا لحرارة الجو، ولذا ورد فى الشعر.

قال الهمذانى على لسان البطل:

أريد ماء بثلج يغشى إناء طريفا [1]

فهو مطلب طيب وفى الجو الحار يكون هذا مطلبا طيبا، يطلب الماء بالثلج كما يطلب الإناء الطريف

***

وأنشد سعيد بن عبد الرحمن بن حسان:

حسب الفتى من عيشه زاد يبلغه المحلا

خبز وماء بارد والظل حين يريد ظلا [2]

فالزاد فى رأيه خبز وماء بارد، وظل ظليل يأوى إليه، وحسبه هذا من عيشه فى حياته، فقد ذكر أقصى ما يريد الفتى فى عيشته، وجعل من ذلك الماء البارد، والماء البارد مطلب حسن، وكذا الزاد القليل، ثم الظل حين يريد ظلا، وحسبك أن الظل من نعيم الجنة.

---

(١) المقامة الساسانية

(٢) البيان والتبين ١٦٩/٣

ويلاحظ زهد الشاعر، وتقشفه، ويسر مطلبه، وعزوفه عن الدنيا.

ولا غرابة فى ذلك، فهو القائل أيضا:

وما العيش إلا شبعة وتشرق ... وتمر كأخفاف الرباع وماء[1]

قصر العيش على أنه شبعة، وتشرق

أى شبع وجوع، فالتشرق هنا من التشريق، وهو تجفيف اللحم، فيكون التشرق جفافا، لا شبعة، أو تشرق من الشبع.

وتمر قليل كما يعلق فى أخفاف الرباع من الأرض، والرباع هى الفصلان تنتج فى الربيع، وما يعلق بأخفافها قليل، صور به التمر فى شكله، وهيئته، أو فى حجمه.

***

(1) البيان والتبين ٣/ ١٧٠

وأنشد أبو العباسى ثعلب:

لو أن سلمى ساوقت ركائبى

وشربت من ماء شن شاجب

لأصبحت تشكو إلى الإقارب

منها رثاثا شعث القصائب[١]

يقول: لو أن سلمى سارت مع ركائبى تساوقها، لأن الركائب إذا سارت معا، فإنما تساوق كل منهما الأخرى، أى كأنها لتنافسها فى السير يسوق بعضها بعضا.

والمقصود أن ركائب سلمى تساوق ركائبه.

ولو هنا للتمنى.

وشربت من ماء شن شاجب، أى شربت ماء القربة الخلق، البالية، اليابسة، التى قدلا تمسك الماء بإحكام.

والمقصود أن ركائب سلمى ساوقت ركائبه، لكن الشرب فى قوله: وشربت، المقصود به سلمى نفسها.

ويكمل ذلك المعنى بقوله: لأصبحت تشكو إلى القرائب، أى تشكو

(١) مجالس ثعلب ٢/٩٦؛

الشن، بفتح الشين المشددة: القربة الخلق، ساوقت: تسيد معها، رثاث من الرث، وهو البلى، شاجب: يابس، القصائب: جمع قصيبة، وهى الخصلة الملتوية من الشعر، ورثاث: بكسر الراء، جمع رثة، وشعث هنا: بضم الشين والعين، ولعل ذلك لضرورة الوزن، جمع أشعث، والشعث: تفرق الشعر.

إلى قريباتها، أو قريباته، لأنه لم يوضح ذلك، لكنني أرى أنه يقصد إلى القرائب لها، والقرائب : جمع قريبة.

منه رثاثا، شعت القصائب، المفروض أن هذا المعنى يقصد به القرب، الرثة البالية، المتشعثة الشعور، أى بليت حتى صار لها شعر متشعث، وذلك لقدم العهد بها.

وربما يقصد أن الركائب رثاث متشعثة الشعور وهذا أمر عادى.

أما المعنى الأول فيدل على أن القربة الخلق قد تآكلت، حتى صار جلدها كالشعر المتجعد لرثاثتها، وبلاها. وهذا يدلنا على أن العرب كانوا يشربون الماء من القربة التى يملأونها بالماء، ولعل ذلك من أثر الترحل، والتنقل فى الصحراء، لأن مثل هذه القربة يتحمل أعباء السفر، وليست إناء صلبا فينكسر، فهم يتخيرون ما يلائم ظروف حياتهم فى البادية.

***

***

القرم: شدة الشهوة إلى أكل اللحم، وهو أمر يعترى الإنسان إذا لم يأكل اللحم فترة من الزمن، أو إذا كان ميالا إلى أكل اللحم كثيرا، فيعتريه القرم.

***

قال أبو الهندى :[1]

وما فى البيوت كبيض الدجاج وبيض الجراد شفاء القرم [2]

أي شفاء الشهوة إلى أكل اللحم بيض الجراد، لكن أفضل البيض كما يقول هو بيض الدجاج، أما بيض الجراد فقد يغنى عن اللحم، ويشفى القرم.

وهذا فى رأى الشاعر الذى يجعل بيض الجراد عوضا عن أكل اللحم، فيشفى القرم، الذى هو شدة الشهوة إلى اللحم.

وقد يكون المعنى ما فى البيوت شئ أفضل ، ولا أشهى من بيض الدجاج، وبيض الجراد، يستوى كلاهما فى شفاء القرم

فكل منهما شهي، وهما أشهى ما فى البيوت من الطعام الذى يشفى القرم، فيكون عوضا عن اللحم الذى هو الشفاء الأساس للقرم.

---

(١) أبو الهندى هو غالب بن عبد القدوس، الشاعر المطبوع، صرف جل شعره فى وصف الخمر، وآلاتها.

البيان والتبين هامش صفحة ١/٧٧

(٢)لسان العرب ٢\٥٧

فالقرم على هذا شدة الشهوة إلى أكل اللحم.

ويروى: وما فى البيوض كبيض الدجاج، وهو يدل على تفضَيله بيض الدجاج على أنواع البيض الأخرى.

والتقدير: وما فى البيوض بيض كبيض الدجاج.

أما بيض الجراد فهو شفاء القرم، لأنه يعوض - ولو قليلا - عن اللحم.

وقد انتقل من العام: البيوض، إلى الخاص: بيض الدجاج، وهو نوع من تأكيد قوله بالتفضيل لهذا النوع.

***

وقال عقبة بن سابق [1] يصف فرسا فى نشاطه، وقوته، وسرعته، وقدرته على اللحاق بالصيد، وإيصال فارسه إلى صيده.

يزين البيت مربوطا ويشفى قرم الركب

ويردى الخاضب الأخر ج فى ذى عهد صهب

وفحل العانة الجون ال خماص النحص الحقب

يها العنق الأجر دفى مستأمن الشعب[2]

---

(1) هو عقبة بن سابق الهزانى، بكسر الهاء، وتشديد الزاى، من بنى هزان، وسماه ابن الأعرابى عقبة بن سالم الهزانى، وهو تحريف عن سابق، وذكره المبرد باسم عقبة بن سابق العنـ ، والظاهر أنه تحريف عن العنزى، نسبة إلى أصل القبيلة.

(2) الأصمعيات ص ٤١-٤٢

القرم: شدة شهوة اللحم، وإنما يشفى قرمهم بما ينيلهم من الصيد، يردى: يسقط، الأخرج: الذى لون سواده أكثر من بياضه كلون الرماد، العمد- بفتحتين- جمع عمود، وعمود الظليم:=

يصف الفرس بأنه يشفى قرم الركب، بما يجلب عليهم من الصيد، من الظليم، وفحل الحمر الوحشية، ووصف الفرس وصفا يدل على قوته، وضخامته.

***

ويقول إن الفرس مربوطا يزين البيت بمنظره، وضخامته، ويشفى قرم الركب بما يجلب لهم من الصيد، وذلك لنشاطه، وسرعته، فيستطيع أن يلحق بالصيد من حمر الوحش، التى تؤكل، فتشفى قرم جماعة الراكبين.

ويردى بسرعته ونشاطه الظليم، أو ذكر النعام الذى يشبه لونه لون الرماد، فلون سواده أكثر من لون بياضه، وله رجلان صهباوان، حمراوان.

ويردى أيضا بسرعته، ونشاطه، وقوته ذكر الحمر الوحشية، البيض، خميصة البطون مما يدل على سرعتها، ونشاطها، وقدرتها على الجرى، القوية التى لا ولد لها، ذات اللون الأبيض فى بطونها، وهى السريعة العدو.

يهز هذا الفرس عنقه الأجرد فى شعب قوية فى رأسه.

فالقرم هنا شدة الشهوة أو الميل إلى أكل اللحم، وهذا الفرس يشفى قرم الراكبين، بكثرة ما يلحق من الصيد، من النعام، والحمر الوحشية.

= رجلاه، الصهب-بضم الصاد- جمع أصهب، وصهباء- والصهبة: الحمرة، والخاضب: أحمر الساقين، العانة، القطعة من إناث الحمير، الجون- بضم الجيم- جمع جون بفتحها، يقال للأبيض وللأسود، وهو هنا الأبيض، لأن حمر الوحش توصف بالبياض، الخماص: الجياع، الضامرة البطون، وهو جمع خميص، وخميصة، النحص- بضم النون والحاء- جمع نحوص، وهى الأثان الوحشية التى لا ولد لها، الحقب: التى فى بطنها بياض، جمع أحقب وحقباء.

***

وقوله: يزين البيت مربوطا، هذا من عمل الفرس، فالزينة تتحقق للبيت الذى ربط فيه هذا الفرس، فهو من تمام زينة البيت.

ولعل ذلك جاء من باب الفخر بامتلاك أفضل وسائل القوة فى ذلك العصر، وهو الفرس.

أما قوله: ويشفى قرم الركب، ويردى الخاضب، فهذه الجمل أسند فيها الشاعر الفعل إلى الفرس من باب المجاز، لأنه لا يشفى قرم الركب إلا ما يصنعه من السرعة التى تجعل صاحبه يلحق بالصيد، ليصيده، ويطعمه، فيشفى قرمه به.

فشفاء القرم يكون بالصيد الذى كان الفرس سببا فى الحصول عليه، والإيقاع به.

وكذلك قوله: ويردى الخاضب، وفحل العانة فهو يرديها بسرعته، مما يجعل فارسه يلحق بها، ليصيدها، فهذا هو الإرداء المسبب عن سرعة الفرس، أما الإرداء الحقيقى فهو من صنع الفارس، لا الفرس، فأسند الإرداء إلى الفرس مجازا.

أما قوله: يهز العنق الأجرد فى مستأمن الشعب، فهذا وصف للفرس يدل على قوته، وضخامته، والعرب تجعل ضخامة الفرس من الأمام دليل على قوته، ومظهره، ومنظره الذى يوحى بما يملك من قوة وسرعة، فهو وصف حقيقى للفرس، لكن الشاعر اختار هذا الوصف أثناء حركة الفرس، ولعل الحركة هنا هى التى أوحت للشاعر بهذا الوصف.

أما وصف الخاضب الأخرج فى ذى عمد صهب، وفحل العانة الجون الخماص النحص الحقب، فإن هذا الوصف للصيد الذى يلحق به الفرس، وهذه الأوصاف تدل على سرعة الموصوف، فإذا كانت على نحو عظيم من السرعة، وكان الفرس يستطيع اللحاق بها، فإن الفرس أسرع، وذلك وصف للفرس بالتبعية لوصف الصيد.

ولعل الوصف الأول : يزين البيت مربوطا، وصف يدل على السكون، فأتبع ذلك بقوله: يهز العنق الأجرد، وهو وصف يدل على الحركة.

أما قوله: ويردى الخاضب، وفحل العانة، بعد قوله: ويشفى قرم الركب، فهو تفصيل بعد إجمال ، أو بيان بعد إبهام، أو هو تعليل لشفاء القرم، أى يشفى قرم الركب بإرادته الخاضب، وفحل العانة.

ووصف العنق بالأجرد، لأن هذا الوصف يعود على الفرس بوصف آخر، وهو العتق، وكرم الأصل.

أما الركب فهم الراكبون، وهم جماعة.

***

- والقرم أيضا: الأكل بمقدم الفم، وهو أكل اللحم وما أشبهه.

وهذا المعنى قريب من المعنى الأول، لكنه قد يستلزمه المعنى الأول.

وقد يكون المقصود منه نوعا معينا من طرائق أكل اللحم، أو هو نوع من أكل لحم يصنع خصيصا لهذا النوع من الأكل.

قال المزرد: (١)

فدع ذا ولكن ما ترى رأى عصبة أتتنى منهم منديات عضائل

يهزون عرضى بالمغيب ودونــه لقرمهم مندوحة ومآكل(٢)

ينتقل فى قصيدته من غرض إلى غرض آخر، ويقطع ما بينهما بقوله: فدع ذا، وذلك يتكرر كثيرا فى شعر القدماء لأنهم يجمعون عدة أغراض فى داخل القصيدة الواحدة، لأنهم يعدون البيت وحدة للقصيدة.

يذكر رأى هؤلاء الذى قد بلغه عنهم ما يخزى، ويندى له الجبين وينحي

---

(١) المفضليات ص١٠٠، ٧٥، تاريخ الأدب العربى ١/ ١٧٠، الشعر والشعراء ١/١٥٦، ٣١٥-٣١٩

الشاعر هو مزرد بن ضرار الشيبانى، مزرد لقب له لبيت قاله، وتزرد: ازدرد وابتلع، الخزانة ١١٧/٢٠، واسمه يزيد الذبيانى الغطفانى، شاعر فارس مشهور، أدرك الإسلام فأسلم، وله صحبة، وكان هجاء خبيث اللسان، حلف لا ينزل به ضيف إلا هجاه، ولا يتنكب بيته إلا هجاه،ويظهر أنه أقلع عن الهجاء أخيرا، لقوله:

تبرأت من شتم الرجال بتوبة إلى الله منى لا ينادى وليدها

وهو أخو الشماخ بن ضرار الشاعر المشهور، وكان المزرد أسن منه. الإصابة لابن حجر، اللسان ٤/٤٨٤

(٢) المفضليات ص ١٠٠

المنديات: المخزيات، التى يعرق لها الوجه، ويندى العضائل: الشدائد، يهزون: فسده الأنبارى بأنه يقطعون، والمعروف فى هذا الهذ، بالذال، بمعنى القطع، القرم: الأكل بمقدم الفم.

على من ينتقصه بظهر الغيب، فهم يقطعون عرضه بالمغيب، لكن دون عرضه، ونيلهم، منه مندوحة ومآكل، أي لا يستطيعون ذلك، لأن بينهم وبين تحقيق غرضهم ما لا يستطيعون النفاذ منه، أو التغلب عليه.

والقرم هنا الأكل بمقدم الفم، أو العض.

أي ودونهم مندوحة، ومآكل لقرمهم.

يعيب عليهم أنهم يغتابونه بالمغيب ويعيبون عرضه، وشرفه، ويهجوهم، ويذمهم لذلك الذى يفعلونه، وينهاهم عن ذلك، ويستبعد أن ينالوه بشر.

يقول: أتتنى منهم منديات عضائل، يقصد بلغتنى والتعبير مجازى، وكأنها أتت وحدها، وهو موضع المجاز.

وعبر عن المخزيات بالمنديات، لأن ذلك هو أثرها، فهى يندى لها الجبين خجلا، وحياء.

أما قوله فى البيت الثانى: يهزون عرضي بالمغيب، فهو توضيح بعد لقوله : أتتنى منهم منديات عضائل، أى أتانى منهم أنهم يهزون عرضي بالمغيب، وهذه من المنديات العضائل.

وقوله: يهزون عرضي بالمغيب، جعل قطع العرض هزا، لأنه لم يترك عرضه كما هو، بغير حديث عنه، فلما قطعوا عرضه، أو حركوا الحديث عنه فقد هزوا مكانته، ونالوا منه.

وكان رده عليهم: ودونه لقرمهم مندوحة ومآكل، أى دونه ودون قرم عرضه مندوحة ومآكل، أى دونهم ودون ذلك ما لا يستطاع بالنسبة له.

***

- اللقم: كثرة التهام الطعام، وهو يدل على السرعة في الأكل، كما يدل على الشدة فيه، وهو السرعة في لقم الطعام، وابتلاعه.

أنشد الأصمعي [1]

تلقم لقما كالقطا مكنوزا [2]

أى تلقم لقما سريعا، كثيرا، فهى كالقطا، والقطا سريعة فى لقمها، لأنها جبلت على ذلك، فهى تتناول طعامها بسرعة، لأنها تخطف ما تطعمه بمناقيرها التى تساعدها على ذلك.

فاللقم: سرعة تناول الطعام فى الأكل، أو سرعة تتابع ملء الفم باللقم عند الطعام، كما نرى من الحمام الذى يسرع فى تتابع ملء الفم بالحب، وهو سرعة الأكل، وهو اللقم.

***

وقال حميد بن ثور الهلالي:

---

(١) تاريخ الأدب العربى ٢/١٤٧-١٥١، زهر الآداب ١/٢٧٢، معجم الأدباء ٢/٢٠٥، البخلاءص ٢٢٣، وفيات الأعيان ص٣٥٢، ضحى الإسلام ٢/٢٩٨

أبو سعيد عبد الملك بن قريب الباهلى، من مدرسة البصرة في علم العربية، توفى بمرو، سنة مائتين وست عشرة، عاش فى عصر الرشيد، وكاد يكون مؤدبا لأبناء الرشيد الخليفة العباسى، لولا مطاردة إسحاق الموصلى له بسبب اختلاف رأييهما فى أبى نواس، ونال حظوة جعفر بن يحيى البرمكى، وله مؤلفات كثيرة

(٢) لسان العرب ٧/ ٢١٥

البيان والتبين ١/٢١

هو أبو المثنى، شاعر مخضرم فصيح، يعد من شعراء الصحابة، وكان عمرو بن الخطاب، رضى الله تعالى عنه، تقدم إلى الشعراء أن لا يشبب رجل بامرأة، فقال حميد بن ثور، وكنى عن صاحبته بالسرحة:

أبى الله إلا أن سرحة مالك ... على كل أفنان العضاه تروق

وهلى أنا إن عللت نفسى بسرحة ... من السرح موجود على طريق

والظاهر إنه توفى فى عهد معاوية بن أبى سفيان.

أتانا ولم يعدله سحبان وائل   بيانا وعلما بالذى هو قائـــــل

فما زال عنه اللقم حتى كأنـه   من العى لما أن تكلم باقل[1]

واللقم: تتابع ملء الفم باللقم عند الطعام.

أى لم يزل عنه اللقم، حتى صار من كثرة اللقم، عندما تكلم، كأنه باقل من العى، بعدما كان لا يعد له سحبان وائل فى الفصاحة، والبيان، والعلم بما يقول.

وقد صوره بسحبان وائل فى الفصاحة، والبيان، والعلم بالقول، حتى كأن سحبان نفسه لم يعدله فى ذلك.

لكنه ما زال عنه اللقم حتى صار بسبب اللقم، من العى، لما تكلم، كباقل.

وقد رفعه أولا عن سحبان وائل، وصوره بعد ذلك بباقل، وبينهما بون بعيد، وفرق كبير فى المكانة، والدرجة فى الفصاحة، والعى، والفهاهة.

---

(١) البيان والتبين ٢١/١

اللقم: تتابع ملء الفم باللقم عند الطعام.

قال الجاحظ: سحبان مثل فى البيان، وباقل مثل فى العى، ولهما أخبار.

وهو سحبان بن زفر بن إياس، كان من ألسنة العرب فى الجاهلية، وخطباء الناس فى الإسلام، وكان يضرب بفصاحته المثل، فيقال: أخطب من سحبان وائل، خطب بين يدى معاوية فى وفود خراسان من صلاة الظهر إلى صلاة العصر، ما توقف ولا تنحنح، ولا سعل، مات سنة أربع وخمسين من الهجرة.

وباقل هو ابن عمرو بن ثعلبة الإيادى.

قال أبو عبيدة: بلغ من عى باقل أنه اشترى ظبيا بأحد عشر درهما، فلقيه شخص، فقال: بكم اشتريته؟ ففتح كفيه، وفرق أصابعه، وأخرج لسانه، يشير بذلك إلى أحد عشر، فهرب الظبى من يده، فضربوا به المثل فى العى.

فما زال عنه اللقم، أى ما انفصل عنه، وليس المقصود الاستمرار هنا.

***

وقال ثعلب:

ألقى الرشيد الخليفة العباسى للفيل مائة رغيف، ولميسرة التراس مائة رغيف، فأكل ميسرة المائة رغيف، وأبقى الفيل من المائة رغيفا، فعطف عليه ميسرة فأكله.

وأنشد:

يلقم لقما ويفدى زاده يرمى بأمثال القطا فؤاده[1]

أى يلقم لقما كثيرا، أو شديدا، ويفدى زاده بنفسه، أى زاده أعز عليه من نفسه، فهو شره، سريع الأكل، كثيره، يجعل الزاد أعز عليه من نفسه، لشرهه، وطعمه، وهذا المعنى مقصود به الهجاء، والذم.

وقوله: يلقم لقما، يدل على كثرة اللقم، وسرعته.

ويفدى زاده، يدل على تفدية زاده بنفسه، فزاده أعز عليه من نفسه، لشرهه فى الزاد، والطعام.

***

(١) مجالس ثعلب ٢/٤٦١

ثعلب: هو أبو العباس أحمد بن يحى، إمام الكوفيين فى زمانه، ولد سنة مائتين من الهجرة، وقد تحدد الخلاف بين مذهبى الكوفة والبصرة باختلاف ثعلب رأس نحاة الكوفة، والمبرد رأس نحاة البصرة، وثقل سمع ثعلب في آخر حياته، ثم أصيب أيضاً بالصمم، فانصرف يوم جمعة من المسجد بعد العصر،وإذا بدواب آتية من ورائه، لم يسمع وقع حوافرها، فصدمته، فسقط في هوة من الطريق، ولم يقدر علي القيام، فحمل إلي منزله، ومات لتوه سنة إحدي وتسعين ومائتين من الهجرة، وله مؤلفات كثيرة.

الفهرس ص٣٩، تاريخ الأدب العربي ص١٢٥. ١٦٥و٢١٠. ١٢٣.

***

وكان ابن الرومى منهوما فى المآكل، وهى التى قتلته، وكان معـ ـا بالسمك، فوعده أبو العباس المرثدى أن يبعث إليه كل يوم بوظيفة لا تنقطع، فبعث إليه يوم سبت، ثم قطعه.

فقال:

ما لحيتاننا جفتنا وأني | أخلف الزائرون منتظريهم
جاء في السبت زورهم فأتينا | من حفاظ عليه ما يكفسهم
وجعلناه يوم عبد عظيم | فكأنا اليهود أو نحكيهم
وأراهم مصممين علي الهج | ر فلم يسخطون من يرضيهم
وقد سبتنا وما أتتنا وكانوا | يوم لا يسبتون لا تأتيهم[1]

أى جاء زورهم فى يوم السبت، فكان يوم السبت عيدا له، فكأنهم اليهود، أو يحاكونهم، ولكن زورهم لم يأت، وقد سبت الشاعر، وكان اليهود يوم لا يسبتون لا تأتيهم الحيتان.

وهو تظرف معروف عن ابن الرومى، وهذه شنشنته، أى سبتنا، وأتتنا الحيتان، فما بال السمك لا يأتى فى يوم السبت.

***

---

(١) زهر الآداب وثمر الألباب ٢/ ١٠
الزور: الضيف

فاتصل ذلك بالناجم، فكتب إلى ابن الرومى:

أبا حسن أنت مـن لا نزا ل نحمد فى الفضل رجحانـه
فكم تحسن الظن بالمرثدى وقـد قـلل اللـه إحسانـه
ألم تدر أن الفتى كالسراب إذا وعـد الوعـد إخوانـه
فبحر السراب يفوت القلوب فقل فى طلابك حيتانـه [1]

يعيب على أبي العباس المرثدى خلف الوعد، وأن وعده كالسراب، فلم تأت حيتانه لذلك الخلف المعروف عن المرثدى، وأنى للسراب أن يأتى بماء.

وهذه المحاورة الشعرية الجميلة بين ابن الرومى، والناجم تدل على تظرفهما، وهذا معروف عن ابن الرومى.

يقول: جفتنا الحيتان، ومتى أخلف الزائرون من ينتظرونهم ، فقد جاء زورهم، وهى الحيتان فى يوم السبت، وفاء للعهد الذى قطعه المرثدى على نفسه أن يبعث لابن الرومى بالسمك كل يوم.

فلما بعث المرثدى السمك لابن الرومى جعله يوم عيد، كاليهود فى

---

(١) زهر الآداب وثمر الألعاب٢/ ١٠

وابن الرومى الشاعر هو على بن العباس بن جريج، ولد فى بغداد سنة إحدى وعشرين ومائتين من الهجرة، وكان يفخر بنسبه الرومى، وكان هجاء يهجو كبار زمانه، وكان شيعيا، ومن ثم كان يهجو بني هاشم، وتوفى سنة ثلاث وثمانين ومائتين من الهجرة، وقيل: سنة أربع وثمانين ومائتين، وقيل: سنة ست وسبعين ومائتين، ومات مسموما بأمر أبى الحسن القاسم بن عبيد الله وزير المعتضد، وكان يخاف هجاءه.

تاريخ الأدب العربى ٢/ ٤٤-٤٨

عيدهم، يوم السبت، فكأنه يحاكى اليهود، لكن المرثدى أخلف وعده، ولم يبعث السمك.

فيتظرف ابن الرومى، ويقول: لما جعلنا السبت، عيدا لنا، لأن السمك يأتينا هذا اليوم، فصرنا نحاكى اليهود، جاء يوم السبت، فجعلته أنت عيدا كعيد اليهود، وكان اليهود يوم يسبتون لا تأتيهم الأسماك، فمنعت الأسماك عنا لذلك.

أمارد الناجم فهو يؤكد على أن ابن الرومى راجح فى فضله، وينعى عليه أن يحسن الظن بالمرثدى، وقد قلل الله إحسانه.

ثم صور المرثدى بالسراب إذا وعد إخوانه وعد الا يتحقق، وإذا كان بحر السراب يفوت القلوب المتلهفة على تحقيق أمل السراب، إذن امض القيلولة فى طلابك حيتان بحر السراب

***

أما سبب قتله لنهمه فى الطعام، فيروى أنه هجا القاسم بن عبد الله وزير المعتضد، فكظم غيظه، وصبر فى حنق، ثم ألان له السبال، حتى أزال موجدته، وحفيظته، وما زال يفتل له فى الذروة والغارب، حتى قربه إليه، ودعاه إلى مجلسه، وترفق به، وهش له، حتى هدأ وجسه، فقدم إليه خشكنانجة مسمومة، فأكلها، ولما أحس أحشاءه تتمزق، عرف أنه مود لا محالة، فنهض متجها إلى بيته، كى يقابل الموت.

فسأله القاسم متهكما: إلي أين؟

فقال ابن الرومى: إلى الموضع الذى أرسلتنى إليه.

فقال القاسم:سلم لى على والدى.

فقال ابن الرومى: ليس طريقى إلى النار.

واستدعى له الطبيب دون جدوى، ودخل عليه نفطويه، وهو يحتضر، فقال له: ما حالك؟

فأنشد:

غلط الطبيب على غلطة مورد   عجزت موارده عن الإصدار
والناس يلحون الطبيب وإنما   غلط الطبيب إصابة المقدار[1]

وهما بيتان غاية فى حسن التعبير، والتصوير للحالة التى كان عليها ابن الرومى، فإلى هذا الحد كانت شاعريته تفيض عليه، وعلى الأدب بأشهى الثمرات، حتى وهو يعانى سكرات الموت.

***

(١) دراسات فى الأدب العباسى ص ١٠٦-١٠٧

ونفطويه عالم من علماء العربية، وكان من تلاميذ ثعلب، وهو أبو عبد الله إبراهيم الأزدى الواسطى، ولد سنة أربع وأربعين ومائتين من الهجرة، وكان من القراء، كما كان يعتنق مذهب أهل الظاهر فى الفقه، وتوفى سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة.

تاريخ الأدب العربى ٢/ ٢٢٠

***

الطعام الهنئ: السائغ، أو اللذيذ، الذى يستساغ فى طعمه، وعند أكله.

قال أبان اللاحقى:[1]

لاهنيا ولا مريا لى العيـ   ش وقد كان لى هنيا مريا[2]

أى سائغا لذيذا، يصف حاله مع العيش قبل ذلك، ثم حاله الآن كان عيشه هنيا مريا، وصار الآن لا هنيا، ولا مريا.

***

وقال أبو المثلم:

كلوا هنيئا فإن أنفقتم بكلا   مما تجيز بنو الرمداء فابتكلوا[3]

أى كل طعاما سائغا لذيذا، أمر للإباحة، أى كلوا ما تودون من طعام هنيئا، كما تريدون.

---

(١) عصر المأمون ٢/٣١٧-٣٢٦، طبقات الشعراء ص ٢١٠

هو أبان بن عبد الحميد اللاحقى، كان صديقا للبرامكة، متصلا بهم أشد اتصال، يستشيرونه، وقد اتخذوه أديبهم الرسمى، وبالغوا فى ذلك حتى جعلوا إليه امتحان الشعراء وتقدير ما يستحقون من الجوائز والصلات، فغضب الشعراء لذلك، وكان أشدهم غضبا أبو نواس، وكان أبان هجاء قبيح اللسان، وكان أبان يفوق الشعراء فى شئ سبق إليه، فقد ابتكر فى الأدب العربى فنا جديدا هو فن الشعر التعليمى، ونظم للبرامكة كتاب كليلة ودمنة، وكان مؤدبا لصبيان البرامكة وشبابهم، وكان شاعر أديبا ، عالما ظريفا منطقيا، مطبوعا فى الشعراء مقتدرا عليه، يقتضب الخطب، ويرسل الرسائل الجياد، وقد فرغ من نظم كليلة ودمنة فى أربعة أشهر، وهى قريبة من خمسة آلاف بيت، وكان هذا العمل قد عرض عى أبى نواس، لكن أبان نصحه بترك هذا العمل، فلما صنعه أبان، ونال به شهرة وما لا عاداه أبو نواس، وهجاه بشعر كثير، لكن أبان لم يقل فى أبى نواس غير ثلاثة أبيات سارت فى الدنيا.

(٢) كتاب الوحشيات ص ١٤٢

(٣) ديوان الهذليين ٢/٢٣٥ أبو المثلم الهذلى الختناعى، أحد شعراء هذيل المعدودين، كان بينه وبين صخر الغى تنافس.

***

وقال أبو الغريب الأنصاري:

وكل هنيئا ثم لا تزمل وادع هديت بعتاد جنبل[1]

أى كل طعاما هنيئا ، أمر أيضا الغرض منه الإباحة ، أو النصح والإرشاد ، والتمنى ، أو كل ، جعله الله هنيئا .

***

وقال ابن الرومي:

بل كل هنيئا كسب أن فك قد منحتك منه شطرا [2]

أى كل طعاما سائغا لذيذا ، كسب أنفك ، وقد مننت عليك بأن منحتك منه شطرا ، فكله هنيئا .

وقال أبو عطاء السندى [3]لزائر له:

---

(١) لسان العرب ١٣٦/١٣

(٢) ديوان ابن الرومى ١٩٨/٣

(٣) البيان والتبيين ٣٥٨/١، تاريخ الأدب العربى ٢٤٥/١ الشعر والشعراء ٧٦٦/٢ - ٧٧٠، مهذب الأغانى ٩/٩-١٦

أبو عطاء السندى هو أفلح بن يسار،مولى بني أسد، وكان أسود قصيرا دميما، وكان شاعرا من شعراء الدولتين. الأموية والعباسية، وله فى رجال كل من الدولتين مدائح، وكان ألثغ ألكن، لا يكاد، يبين مع بديهة جيدة، وعارضة قوية، وكان له غلام فصيح، سماه عطاء، وتكني به، فكان يرويه الأشعار، فينشدها بين يدى من ينتجعه، مات سنة مائة وثمان وستين من الهجوة، وقيل: اسمه مرزوق، ولد بالكوفة لرجل من السند، وقد أمر له سليمان بن سليم بوصيف بربرى، كان إذا أراد إنشاد مديح لمن يجتديه، أو مذاكرة شعره أنشده، ومدح أبا العباس السفاح، ولم ير لديه من العطاء ما كان ينتظر، فهجا العباسيين، ورحل إلى خراسان، وكان يسار أبوه سنديا أعجميا لا يفصح، وكان يسار من أحسن الناس بديهة، وأشدهم عارضة، وتقدما، شاعر نحل فى طبقته، ومات عقب أيام المنصور

***

كل هنيئا وما شربت مريئا ثم قم صاغرا فغير كريم[1]

أي كل طعاما هنيئا، واشرب شرابا مريئا، ثم قم بعد هذا كله صاغرا ذليلا غير كريم، أما نحن فكرماء، يكرمه ثم يذمه.

***

وقال كثير عزة بن عبد الرحمن[2]

هنيئا مرئيا غير داء مخامر لعزة من أعراضنا ما استحلت

أي هنيئا مريئا لهاما استحلت من اعراضه، غير أن داء مخامرا مخالطا لها، لا يزول، وليس منه برء، أو علاج.

***

وقال أمية ابن أبى الصلت فى مدح سيف بن ذى يزن:

---

(١) تاريخ الأدب العربى ١/١٩٥، الشعر والشعراء ١/٣٠٥-٥١٧

هو كثير عزة بن عبد الرحمن، كان راوية جميل، وكان خاله هو الذى رباه، فظنه ضعيف العقل، فأعطاه إبلا، وأنزله فرس مالك، بفتح إلفاء، وسكون الراء، ثم سين مهملة، والأقرب أنه فرش ملل، وهو كما يقول ياقوت: دار، وهذه هى المواضع التى كانا يغشاها كثير وله فيها شعر، وفى واقع الأمر يبدو فى كثير من الأخبار المروية عنه أنه كان سهل الانقياد لكل تأثير، وقد ساقه علوه الديني إلى التشيع لإحدى فرق الكيسانية، كما روى أنه ممن يقولون بالتناسخ، وخدم الأمويين، وزار عبد الملك فى دمشق، ووجد إليه مدخلا، وتوفى سنة مائة وخمسين من الهجرة، وقال بعض الأدباء: إن شعره يماثل شعر جرير والفرزدق، ورغم بعضهم أنه أشعر منهما، ويكنى أبا صخر، وكان كثير أحد عشاق العرب المشهورين بذلك، وصاحبته عزة، وإليها ينسب، وهى بن ضمرة

(٢) البيان والتبين ٣/٢٨٤

فاشرب هنيئا عليك التاج مرتفقا   فى رأس غمدان دارا منك محلالا[1]

أى اشرب شرابا سائغا لذيذا، وأنت ملك عليك تاج الملك، أى اصنع ما بدالك، جعل الله شرابك هنيئا.

***

والتنور: موقد النار

قال الشاعر:

إذا كان ضرب الخبز مسحا بخرقة   وأخمد دون الطارق التنور[2]

يقصد موقد النار، أى وأخمد التنور دون الطارق، وهذا من عمل البخلاء، لا الكرماء فما يخمد النار دون الطارق سوى البخيل، ولذلك جعل ضرب الخبر مسحا بخرقة، ولم يجعله ضربا ليستدير الرغيف، وينال حظه فى الامتداد، والاتساع.

---

(١) شروح سقط الزند ٤٦٨/١، البيان والتبيين ٣٥/١، تاريخ الأدب العربى ١١٣/١ - ١١٤، الشعر والشعراء ٤٥٩/١-٤٦٢

أمية بن أبي الصلت، شاعر ثقيف، كان على عهد بعثة النبى صلى الله عليه وسلم، وكان قد نظر فى كتب الأوائل، وتعبد لإله إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وحرم الخمر، وشك فى الأوثان، والتمس الدين، وطمع فى النبوة، فلما بعث الله سبحانه وتعالى رسول الله صلى الله عليه وسلم، حسده وبلغ به الحسد إلى الجحود، وكان شاعرا مفوها، قال عنه الرواة: إنه أشعر أهل المدر، ولما وقعت وقعة بدر طفق يحرض قريشا، ويرثى قتلاها المشركين، ومات على غير دين فى السنة الثانية، أو التاسعة من الهجرة، وأكثر ما روى من شعره منحول عليه، ما عدا مرثيته لقتلى بدر، التى منع النبى صلى الله عليه وسلم من إنشادها، وسماه الأصمعى شاعر الآخرة، وكان أمية يخبر بأن نبيا يبعث قد أظل زمانه، ويؤمل أن يكون ذلك النبى، ولما أنشد رسول الله صلى الله عليه وسلم شعره قال: آمن لسانه، وكفر قلبه، وكان يحكى فى شعره قصص الأنبياء، ويأتى بألفاظ كثيرة لا يعرفها العرب، يأخذها من الكتب المتقدمة، وبأحاديث من أحاديث أهل الكتاب، وكان أبوه أبو الصلت شاعرا، وكان له ابن يقال له القاسم، وكان شاعرا.

(٢) البيان والتبين ٦٤/٣

***

- الخوان: المائدة قبل أن يوضع عليها الطعام.

قال ابن الرومى:

واتخذه على خوانك أدما   فهو أولى بالخل من إخوانك[1]

والأدم: ما يؤتدم به، أى يؤكل مع الخبز، لتسهل استساغته.

والأمر هنا للنصح والإرشاد، وربما كان هذا الأسلوب الإنشائى من قبيل التهكم والسخرية التى عرفت عن ابن الرومى، الشاعر الذى عاش فى القرن الثالث الهجرى، فى عصر الدولة العباسية، الذى كان هجاء خبيث اللسان، لم يسلم من لسانه أحد، ومات مسموما بسبب هذا الهجاء المقذع.

ولفظة الخل هنا تورية، فهى تحتمل أن تكون بفتح الخاء، وهو نوع من المشهيات للطعام.

ويحتمل أن تكون بكسر الخاء، بمعنى الصاحب والصديق.

***

(١) ديوان ابن الرومى ١٨٥٦/٥

***

وهذان بيتان فى غاية الطرافة يقول فيهما حماد عجرد:[1]

حبيش أبو الصلت ذو خبرة　　بما يصلح المعدة الفاسده

تخوف تخمة أصحابـه　　فعودهم أكلة واحده[2]

***

عودهم أن يأكلوا أكلة واحدة خوف التخمة، ورغبة فى إصلاح المعدة الفاسدة، إذ هو خبير بذلك، لكن الحقيقة إنه هجاء بالبخل، وتهكم وسخرية فيها طرافة.

***

ومما يقرب من هذا المعنى ما رواه الحصري فى كتابه زهر الآداب قول ابن الحجاج لرجل دعاه إلى خوان، وأخر الطعام، فقال:

قد جن أصحابك من جوعهم　　فاقرأ عليهم سورة المائدة[3]

---

(١) عصر المزمون ٢/٣٧٧

هو حماد بن يحيى،مولى نشأ فى الكوفة، ثم واسط، وعاصر الدولتين، الأموية ، والعباسية، لكنه نبغ فى الدولة العباسية، ونادم الوليد بن يزيد الأموى، وجاء بغداد أيام المهدى، ومعه مطيع بن إياس، ويحيى بن زياد وكلهم من المتهمين فى دينهم وهو الشعراء المجيدين ، وكان ماجنا، ظريفا، خليعا، متهما فى دينه مرميا بالزندقة، وأدرك بشار بن برد، وله معه أهاج فاحشة، ولم يكن يهاب كبيرا ولا صغيرا، عالما كان أو خليفة، توفى سنة إحدى وستين ومائة من الهجرة،

(٢) البيان والتبين ٣/٢١١

(٣) زهر الأداب ٢/٣ . ١/٤ . ١٠١ . ١١

الحصرى هو أبو إسحاق الحصرى القيروانى، والحصرى : بضم الحاء المهملة، وسكون الصاد المهملة، وبعدها راء مهملة، نسبة إلى عمل الحصر، أو بيعها، كما ذكر ابن خلكان فى كتابه: وفيات الأعيان، والقيروانى: نسبة إلى مدينة القيروان، وهو إبراهيم بن على بن تميم المتوفى سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة من الهجرة، وقد كان شباب القيروان- يجتمعون عنده، ويأخذون عنه، وكان لديهم من المكرمين، وله كتاب: زهر الآداب، وثمر الألباب، والمصون فى سر الهوى المكنون، وكان شاعرا ناثرا.

أى إن أصحابك قد جنهم الجوع، لتأخر طعامك عنهم، فاقرأ عليهم سورة المائدة.

وسورة المائدة ذكرت فيها قصة مائدة المسيح عيسى عليه السلام التى طلبها من ربه، ونزلت عليهم بدعائه ربه، وكان قومه قد طلبوها منه، فطلبها هو من ربه، سبحانه وتعالى.

وهنا يقول: إن أصحابك كأنهم أصحاب المائدة يطلبون المائدة، أو الطعام الذى تأخر عنهم، فهل ستطعمهم ، أم ستتركهم هكذا، يجنون من جوعهم.

***

وقال أبو المهوش الأسدى:

إذا ما مات ميت من تميم   فسرك أن يعيش فجئ بـزاد

بخبز أو بلحم أو بسمن   أو الشئ الملفف فى البجاد[1]

ذكر الخبز، واللحم، والسمن، والسخينة، وكانت تعير بها قريش، ويقصدها بقوله: أو الشئ الملفف فى البجاد.

***

وقد ذكر صاحب زهر الآداب وثمر الألباب بعض صفات الطعام لأهل عصره، ومقدمات الطعام، وموائده.[2]

---

(١) البيان والتبيين ٣/٢٦٥

(٢) زهر الآداب وثمر الألعاب ٢/٣-٥

وكان العرب يأكلون فى الجفنة يملأونها دلالة على الكرم، وربما كان ذلك العمل، لأنهم يجعلون طعامهم جميعه فى جفنة واحدة كبيرة، لذا يفخرون بأن جفنتهم مليئة بالطعام، وإلا ما كان الفخر فى موضعه إذا كانوا يملأون الجفنة مرة بعد أخرى.

لذا أقول: إنهم كانوا يملأون الجفنة الكبيرة مرة واحدة، وذلك بأن يضعوا طعامهم جميعه فى هذه الجفنة، فنستطيع أن نفهم الفخر بأن جفنتهم مليئة بالطعام.

قال لبيد بن ربيعة:[1]

---

(١) تاريخ الأدب العربى ١/١٤٥-١٤٧، الشعر والشعراء ١/٢٧٤-٢٨٥، البيان والتبيين ١/١٢١

هو أبو عقيل لبيد بن ربيعة العامرى، كان معمرا، وتحدث هو عن ذلك فى بعض شعره، وافتخر فى شعره فى شيخوخته بما قدم لقبيلته من تأييد بلسانه وبيانه، وازدرى مهنة الشاعر المتجول بالمديح فى طلب الجوائز، والصلات، ودخل فى الإسلام، وبقى فى المدينة، حتى هاجر في خلافة عمر رضى الله عنه إلى الكوفة، ومات بها فى عهد معاوية بن أبى سفيان، وهو ابن مائة سنة،وقيل: مات فى خلافة عثمان بن عفان عن سبع وخمسين ومائة سنة، وشعر لبيد من أجود أشعار البدو، واختار حماد الراوية قصيدة منه فى المعلقات، وقيل: إنه لم يقل شعرا فى الإسلام، وليس هذا بصحيح، وهو قدير على صياغة موضوعات البداوة، وفى شعره نغمات دينية، قال الأصمعى في شعره: كأنه طيلسان طبرانى، أى أنه محكم الأصل ولا رونق له، وقال أبو عمرو بن العلاء: وما أحد أحب إلى شعرا من لبيد بن ربيعة، لذكره الله عز وجل، ولإسلامه، ولذكره الدين والخير، ولكن شعره رحى بزر، وكان يقال لأبيه: ربيع المقترين، لسخائه، ومات مقتولا، وأدرك أخوه بثأره، ويكنى لبيد أبا عقيل، وكان من الفرسان الذين قتلوا المنذر بن ماء السماء، ونجا، وأتى ملك غسان، فكان ذلك سببا فى يوم حليمة، وروي أنه لم يقل فى الإسلام إلا بيتا واحدا، ولما استنشده عمر بن الخطاب رضى الله عنه من شعره، قرأ سورة البقرة، وقال: ما كنت لأقول شعرا بعد إذ علمنى الله تعالى سورة البقرة وآل عمران، فزاده عمر خمسمائة درهم على عطائه وكان ألفين، ولما أراد معاوية إنقاصه لكنه رجع عن ذلك، وكان حلف فى الجاهلية الاتهب الصبا إلا أطعم الناس حتى تسكن، وألزمه نفسه فى الإسلام، وكانت ابنته شاعرة، وعمه ملاعب الأسنة، وأربد الذى أراد الغدر بالنبى صلى الله عليه وسلم أخو لبيد لأمه، وهو أول من شبه الأباريق بالبط.

نحن بنوأم البنين الأربعــه

نحن خيار عامرين صعصعـه

المطعمون الجفنة المدعدعة [1]

يفخر بأنهم بنو أم البنين، والعرب تفخر بأن تنجب البنين، أى الذكور، لذلك كانوا يئدون الإناث، خوفا من العار الذى يلحق بهم، عند أسر إحداهن، لأنهم كانوا غير بعيدين عن الغارات.

وربما كانوا يسعدون أيضا بأن تلد الإبل الذكور، ومن ثم وجدت عندهم البحيرة والسائبة، والوصيلة، والحامى، وذلك حبا للذكور دون الإناث.

لذا افتخر الشاعر بأنهم، هو وإخوته، بنو أم البنين الأربعة لذلك.

ويؤكد على هذا الفخر بقوله: نحن خيار عامر بن صعصعة، أى نحن خيار هذه القبيلة، أو هذا الفرع من القبيلة.

ووضح بعد ذلك كيف كانوا خيار هذه القبيلة، بقوله:

المطعمون الجفنة المدعدعة، أى المطعمون الضيف، أو الضيفان، فحذف المفعول به، للعلم به.

الجفنة: يقصد ما فى الجفنة من الطعام، والجفنة تكون إناء كبيرا، ولذلك فإن قوله: الجفنة موضع لفخره .

والجفنة مجاز مرسل علاقته المحلية.

---

(١) مجالس ثعلب ٢/٣٧٤-٣٧٥ . ٢/ ٣٨٠-٣٨٣، ديوان لبيد ص ٧-٨، الخزانة ٤/ ١٧١، الأغانى ١٤/ ٩١-٩٢، العمدة ١/ ٢٧، المعارف ص ٤٠ وأم البنين هى أم خمسة من البنين، جعلهم أربعة للقافية، كما قال ابن قتيبة، المدعدعة: المملوءة.

ووصف الجفنة بقوله: المدعدعة، ليدل على كثرة الكرم ، فهى مملوءة طعاما .

وعلى ذلك فالمعنى: نحن المطعمون الأضياف ما فى الجفان الكبيرة المملوءة بالطعام.

***

الفصل التاسع

نظرات نقدية في الشعر العربي

التعبير الأدبى فى الشعر والنثر يخضع دائما لعوامل كثيرة تحيط بالمبدع، فتوجهه فى التعبير، حيث الوجهة التى تلائم حياته، وظروفه، وملابسات إبداعه، وما يحيط بنفسيته، ويشكل وجدانه، وقت الإبداع، فيخرج العمل الإبداعى،وقد تأثر بلمسات من وجدان الشاعر، وكثير مما يدور حوله، ويؤثر فيه، ويشكل وجدانه.

لذا نجد المبدعين على اختلاف البيئات، والأزمنة، قد اختلفوا فى التعبير عن معنى واحد، أو مضمون واحد، فعبر كل مبدع بما يتوافق مع مشاعره، وهواجسه، وفكره، وحياته، وما يدور حوله.

ولا غرو فى ذلك، فالتعبير الأدبى أصلا هو ابن للبيئة، والظروف التى يعيشها المبدع، لذا نجد الشاعر الذى عاش فى العصر الجاهلى قد يعبر بما لا يعبر به الشاعر الذى عاش فى حضارة العصرين:الأموى، والعباسى مثلا.

وهكذا دواليك فى كل العصور، والبيئات، حتى لنجد الشاعر قد يختلف تعبيره عن فكرة واحدة، أو مضمون واحد باختلاف زمن القول، أو وقت القصيد، بل إن الشاعر نفسه قد يعيب قولا له قاله قبلا، لأن ظروف حياته، وثقافته، واختلاطه بالمبدعين قد غيرت لديه مفاهيم معينة، كانت قد قادته، وشكلت وجدانه وقت قوله الأول، وهكذا اختلاف الشعراء بعضهم عن بعض فى عصر معين، واختلاف الشعراء فى العصور المختلفة.

وسوف أتناول فكرة الشيب والشباب فى الشعر القديم، لأرى كيف كان التعبير الأدبى، أو الشعرى عنها مختلفا، باختلاف الشعراء،

والبيئات،والأزمنة، والأحوال، والظروف، والعصور، ولأحاول نقد ما يمكن نقده من هذا الشعر الذى يعبر عن الشيب والشباب، كما صورها الشعر القديم، وكما عبر عنها الشاعر القديم.

وكذلك النقاد، فقد يتناولون أبياتا معينة لشاعر واحد، ويختلفون فى النظر إلي هذه الأبيات، ويفهم كل منهم جانبا معينا، ويحاول النقد حسبما فهم، أو عرف ما تضمه الأبيات من معان، وما عبرت عنه الأبيات، وأسلوب هذا التعبير، وهل يروق كل ذلك للناقد أم لا؟

وقد يكون الناقد متأثرا بعامل الزمن، أو العصبية، فيخرج نقده مطابقا لتأثره، وهكذا.

فالشعر فى رأيى قطعة من نفس الشاعر، وهو حالة إبداعية للنفس، وعسير أن تتطابق النفوس كلها، وإن تطابقت فإن الظروف والملابسات من الصعب أن تتطابق هى الأخرى.

وهكذا سيظل الشعر دفقة شعورية تخرج من نفس مفعمة بمعان، يصوغها الشاعر وفقا لثقافته، وسيظل الشعر ابنا للشاعر، لكننا نحاول التحليل، والمقارنة، والنقد، أما ما قال الشاعر فهو باق، وسيظل باقيا، استحسنوا العمل، أم لم يستحسنوه.

وآية ذلك اختلاف النقاد: ابن قتيبة، الامدى، الجرجانى، العسكرى، العقاد حول أبيات لكثير عزة، أو ابن الطثرية، يقول أحدهما.

ولما قضينا من مني كل حاجة ... ومسح بالأركان من هو ماسح

وشدت علي حدب المطايا رحالنا ... ولا يعلم الغادي الذي هو رائح

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننـــا وسالت بأعناق المطي الأباطح

نقعنا قلوبا بالأحاديث واشتفــت بذاك صدور منضجات قــرائح

ولم نخش ريب الدهر في كل حالة ولا راعنامنه سنيح وبارح[1]

فكل منهم نظر بوجهة نظر معينة، وكل منهم كشف عن فهمه الشعر بطريقته، وكل منهم ترك جانبا مهما فى حياة الشاعر، وظروفه، وملابسات قوله، لكنه النقد، الذى يعبر عن ناحية إنسانية من الصعب ضبطها بموازين، أو مقاييس دقيقة، فهى مشاعر، وأحاسيس للمبدع والمتلقى على حد سواء.

***

---

(١)زهر الآداب ٦٦/٢

أبدأ هذا التحليل، وهذه المقارنة بين الأساليب المختلفة بشعر لعالمين من علماء الأدب واللغة، لنرى إلى أي حد كان التعبير مساوقا لعلميهما فى الأدب واللغة، وأنهما لا يطاقان فيهما، فهل نرى التعبير الأدبى لعلماء اللغة والأدب فى درجة علو كعبيهما فى فهم اللغة، وزواية الأدب، ونقده، ونبدأ بالأصمعى عالم اللغة والأدب.

***

أنشد الأصمعى يبين رأيا فى الشيب، ويعلن أنه مع الشيب، فهو لا يزال فى صبوة الشباب، فيقول:

وإن يك شيب قد علانى فربما أرانى فى ريع الشباب مع المراد

طويل يد السربال أغيد للصبـــــا أكف على ذفراى ذا خصل جعد[1]

يقول: إن كان الشيب قد علانى، واشتعل فى رأسى، وتجلل شعرى فإننى لا زلت فى ريعان الشباب مع المرد الذين هم فى أول الشباب.

وربما قصد القوة، والفتوة، والعنفوان، وأنه لم يصل إلي حد الكبر بعد.

ثم يؤكد أنه لا يزال فى ريع الشباب بقوله: طويل يد السربال، أى أنه لا يزال بقوته، وجسده كما كان فى مرحلة الشباب.

---

(١) مجالس ثعلب ١/١٤٧

ريع الشباب: أوله، الأمرد: الذى لم ينبت عذاره، السربال: الثوب، أغيد، وغيداء، إذا كان الرجل أو المرأة أعناقهما تتثنى للنعمة

الصبا: الصبوة، الذفرى: عظم أو نقرة خلف الأذن، جعد: الشعر المتقبض ليس بالسبط.

وقوله: أغيد للصبا أى لايزال عنقه يتثنى من نعمة الصحة، والشباب، والقوة، ولم يتيبس عنقه.

والعجيب أنه أغيد للصبا، والصبوة التى هى من ملامح فترة الشباب، لكنه لا يزال يصر على هذا العهد.

ثم يؤكد قوته وشبابه بقوله: أكف على ذفراى ذا خصل جعد، المتجعد خلف أذنه.

أى إن شعره طويل لا يزال يحتفظ به، وأنه قوى جعد، يكفه، ويبعده، ويرجعه، خلف أذنه، لطوله، وقوته، وتجعده، يدل ذلك على شبابه.

وقد آثر ألفاظا تدل على غرضه، أو هدفه أوتفيده فى التعبير عن ذلك الهدف، مثل قوله: ريع الشباب، وهو أوله.

والمراد، وهم الفتية فى أول الشباب، لم يختط شاربهم بعد.

وقوله: طويل يد السربال، ليدل على قوته.

وقوله: أغيد للصبا، مما يدل على شبابه، وصبوته.

وقوله: أكف على ذفراى ذا خصل جعد، فجعل شعره طويلا، حتى ليصل إلى خلف الأذن، وجعله ذا خصل، كما جعله جعدا.

أما قوله: علانى، فذلك لأن الشيب يظهرفى شعر الرأس، وهو أعلى الإنسان.

***

***

ونأتى إلى عالم آخر من علماء اللغة، ونقد الشعر الذى يعتمد على الخبرة اللغوية العريضة، وهو الفراء، لنرى إلى أى حد كان تعبيره اللغوى والأدبى عن فكرة الشيب والشباب.

***

أنشد الفراء:[1]

ذرانى من نجد فإن سنينه   لعبن بنا شيبا، وشيبننا مردا

أى اتركانى من نجد، ودعانى منها، يخاطب صاحبيه على طريقة القدماء، فليس ثمت صاحبان.

وربما يكون خطابه لصاحبيه على الحقيقة فى الخطاب.

---

(١) تاريخ الأداب العربى ١٩٩/٢، الفهرست ص ٦٦

الفراء هو أبو زكريا يحيى بن زياد، الديلمى الباهلى الفراء، فارسي الأصل، كان أشهر تلاميذ الكسائى، فارسي الأصل مثله، وأخذ عن يونس بن حبيب البصرى، خصوصا معانى النحو، وصنف كتابا بأمر المأمون الخليفة العباسى، وقد جعله مؤدبا لابنيه، فكان يعتزل فى خلوة بدار الخلافة، ليتوافر على تصنيفه، حتى أكمله فى بضع سنين، وقال عنه ثعلب فى تفسيره القرأن فى مسجد ببغداد: لم يعمل أحد قبله مثله، ولا أحسب أحدا يزيد عليه، كما كان يلقى دروس اللغة والنحو، وقال عنه ثعلب: ولولا الفراء لما كانت اللغة، لأنه خلصها، وضبطها، ولولا الفراء لسقطت العربية، لأنها كانت تتنازع، ويدعيها كل من أراد، ويتكلم الناس على مقادير عقولهم، وقرائحهم فتذهب، وكان الناس يتشوفون إلى كتب الفراء، لا سيما كتاب المشكل، وكتاب المعانى، حتى كانوا يشرونها من الوراقين، كل خمس أوراق بدرهم، فشكا الناس إلى الفراء، فجلس على كتاب المعانى أتم شرحا، وأبسط قولا من الذى أملى قبل، فنسخه الوراقون، كل عشر أوراق بدرهم،وتوفى الفراء فى طريقه إلى مكة سنة مائتين وسبع من الهجرة، وقد بلغ ثلاثا وستين سنة.

ثم يذكر التعليل لهذا الأمر قائلا: فإن سنينه لعبن بنا شيبا، وشيبننا مردا.

إن السنين التى قضيناها فى نجد لعبن به وبصاحبيه، أو لعبن به، على التعظيم لنفسه شيبا، وربما يكون ذلك التعبير مجازا عقليا.

وشيبننا مردا، أى شيبننا قبل مرحلة الشيب، وهم مرد لا يزالون فى أول الشباب، أو فى عصر الفتوة، والقوة.

فهو يبين أثر السنين التى قضوها فى نجد، إذ هى شيبتهم مردا، ثم لعبت بهم شيبا.

وكان مقتضى الترتيب أن يقدم قوله: شيبننا مردا، على قوله: لعبن بنا شيبا، لكنه عكس الترتيب، فقد يكون أثر ذلك، لأنه فى مرحلة الشيب، فذكر حاله فى هذا الشيب أولا، ثم رجع بذاكرته إلى الوراء، فذكر حاله فى مرحلة الشباب، وهم مرد.

وربما كان هذا التقديم والتأخير، الذى يخالف الترتيب الزمنى، سببه ضرورة القافية.

وقد أعاد الضمير فى قوله: سنينه، على نجد، بالتذكير، على تقدير المكان.

وقد جعل سنين نجد تشيبهم مردا، لأن ذلك العمل أمر ذوبال، وهو أقصى مايؤثر عليهم.

كما جعل السنين فى مرحلة الشيب تلعب بهم، وهم فى هذه الحالة لا يطيقون ذلك، فهو أقصى ما تصنع بهم فى تلك المرحلة.

★★★

---

(١) مجالس ثعلب ١/١٤٧، اللسان ١٧/٣٩٥، ٤/٤٢٢، ويروى: دعانى من نجد

ونمضى فى طريقنا إلى العالم اللغوى أبى العباس ثعلب، فقد أدلى بدلوه فى هذا الدلاء، حيث نورد له بعض ما أنشده من شعر له، أو لغيره حول فكرة الشيب والشباب.

قال أبو العباس ثعلب:

ياويح تاجة ما هذا الذى زعمت   أمسها سبع أم مسها لمـــم

خبرت زوارها قالوا وما علموا   عيب وشيب وشيخ ما له نعــم

أما نضيلتك الأخرى فقد عرفت   أنى فتى الحى لا نكس ولا برم [1]

يقول: الهلاك لتاجة زوجته على ما زعمته، هل مسها سبع، فينفر الناس منها كما ينفر الغنم من المغيبة التى أخذها السبع، وهربت منه؟

أم مسها لمم، أو مسها مس من الجنون؟

ثم يوضح هذا المعنى بقوله: زوارها قالوا، أى خبره الناس بقول زوارها.

وما علموا: أى لم يعلموا شيئا عن الحقيقة، حتى يقولوا ذلك.

والذى قالوه، ونفى علمهم بسبب قولهم هو : عيب، وشيب، وشيخ ماله نعم.

---

(١)مجالس ثعلب ٢٥٦/١

الويح: الهلاك، تاجة: امرأة، أمسها سبع، هذا مثل المغيبة، وهى التى إذا أخذها السبع هربت منه، فإذا شمتها الغنم هربت منها، يقول: فأنتم تهربون ممن هجوته فكيف منى، والمعنى إنها تنفر كما تنفر الغنم من هذه، اللمم: طرف من الجنون، النضيلة: أراد بها الضرة، والنضيل: الذى يراميك ويسابقك، والنكس: الضعيف، البرم،: بالتحريك، الذى لا يدخل مع القوم فى الميسر، النعم: الإبل، لا واحد لها من لفظها.

ربما يقصد أن الأمر عيب، وشيب، وشيخ ماله نعم، على أنها صفات لتاجة امرأته، فالعيب فيها، وكذلك الشيب، وشيخها الذى هو زوجها، له نعم، إذ هو فقير لا يملك حمر النعم.

وهى الثراء عند العرب.

وربما يقصد ما يقوله زوارها عنه، وربما بإيعاز منها، أو هى التى قالت، ونقلته الزوار عنها بصفاته: عيب، وشيب، وشيخ ماله نعم،.

والمعنى الأول يتوافق مع قوله: أمسها سبع، وذلك لأن هذه العيوب فيها فابتعد عنها الزوار.

أما المعنى الثانى، فيتوافق مع ما سيأتى من دفاع عن نفسه فى البيت الثالث، وهو قوله: أما نضيلتك الأخرى فقد عرفت أنى فتى الحى، لا نكس، ولا برم.

فتى الحى: سيدهم، أو قويهم، أو زعيمهم، أو متقدمهم، والمشهور فيهم.

لا نكس: ينفى عن نفسه الضعف، وهو معنى مأخوذ من تنكيس الرأس، أو تنكيس السيف.

ولا برم: أى إنه من أثرياء الحى، إذ يدخل على القوم فى المسير وقت الجدب، أو القحط، أو الشدة، ليطعم الناس، أو الفقراء.

وهو أمر كان فى بادية العرب يصنعونه كرما، وإظهارا للثراء، فهو كناية عن كرمه، وثرائه.

وقد وفق فى تعبيره فى مثل قوله: ياويح تاجة بالتعجب والاستنكار

فى قوله: ما هذا الذى زعمت، والزعم مطية الكذب، كما يقولون، فهذا الذى زعمته بعيد عن الحقيقة.

أمسها سبع: تعبير يدل على حقيقة تحدث فى بادية العرب، ويقول: خبرت، ولم يذكر من خبره، لأنه لا يتعلق بذكر اسمه أمر ذوبال فى قوله.

وقبل أن يذكر قول الزوار ينفيه بقوله: وما علموا، أى وما عرفوا الحقيقة.

وخص النعم لأنها دلالة على الثراء فى مثل هذه البيئة.

وعبر عن زوجته الأخرى، أو الضرة بقوله: نضيلتك، وذلك لأن النضيل هو الذى يرامى، ويسابق، فكذلك الزوجة الأخرى كأنها تسابق الزوجة الأولى فى زوجهما.

وعبر عن رأى الزوجة الثانية بقوله: فقد عرفت بعد التعبير عن رأى زوجته الأولى بقوله: ما هذا الذى زعمت، فالأولى زعمت، لأن هذا الزعم على غير هواه، والثانية عرفت، لأن هذه المعرفة يراها حقيقة.

***

وأنشد ثعلب:

تعفي الشيب جهدك بالخضاب ... لترجع فيك أبهة الشباب

فكيف وقد كساك الشيب ثوبا ... كأخلق ما يكون من الثياب

به ظهرت معايب فيك شتى ... حوادث لم تكن لك فى حساب

تعيب الشيب من سفه وجهل ... وأعيب منه شغلك بالخضاب [1]

يقول: تزيل آثار الشيب بالخضاب على قدر جهدك، لترجع فيك مظاهر الشباب، ورونقه.

ويتساءل قائلا: وكيف تصنع ذلك، وقد كساك الشيب ثوبا خلقا، هو أخلق ما يكون من الثياب.

أى لن تستطيع إخفاء ثوب الشيب، ومظهره بالخضاب، لأن ثوب الشيب خلق، تظهر آثاره بوضوح، فلن ترجع إليك أبهة الشباب مطلقا.

ويقول بثوب الشيب، أو بالشيب، أو بسببه ظهرت فيك معايب مختلفة، وكثيرة.

وبين هذه المعايب بقوله: حوادث لم تكن لك فى حساب، ولم تضعها فى اعتبارك، أو فى حساباتك، أو فى تقديرك، وتوقعك.

ويقول بعد ذلك: تعيب الشيب من سفهك، وجهلك، لأن من يعيب

---

(١)مجالس ثعلب ٢٥٩/١

تعفى: تزيل الأثر، الجهد- بفتح الجيم- نهاية الجهد، بضم الجيم، أو نهاية الطاقة، الخضاب،: الحناء، أبهة: المظهر أو المنظر الحسن، الثوب الخلق: البالى، شتى: متفرقة، السفه: الطيش والحمق، شغلك: انشغالك.

الشيب الذى هو أمر من سنة الأحياء فى الدنيا فإنما يوصف بالسفه والجهل، والطيش، والحمق.

أما أعيب من عيبك الشيب فهو شغلك بالخضاب، لتزيل به آثار الشيب بغير أن تزيل معايب الشيب التى ليست فى حساباتك.

أما التعبير فقد أدى الغرض الذى من أجله أنشد هذه الأبيات، فقوله: تعفى الشيب جهدك بالخضاب، حيث ذكر الفعل الذى يدل على التعمل، بصيغة التفعل، وذكر الحدث، وهو التعفية، والوسيلة، وهى الخضاب، وحالته فى هذا الفعل، جهدك.

كما ذكر الغرض الذى يصنع هذا العمل من أجله، لترجع فيك أبهة الشباب.

وقد عبر عن مظهر الشباب بالأبهة، وهو تعبير يحسن به الشباب، ويحمد مظهر الجمال.

والاستفهام فكيف، أى فكيف يكون ذلك، لغرابته، واستنكاره.

وجعل للشيب ثوبا، لا أبهة، كما جعله خلقا، بل جعله أخلق ما يكون من الثياب، ليظهر الفارق بين الشيب، والشباب.

وأتى بالمعايب بصيغة منتهى الجموع، ولم يكتف بذلك، بل وصفها بقوله: شتى، ليدل على كثرة معايب الإنسان فى شيبه.

كما أتى بحوادث على صيغة منتهى الجموع أيضا دلالة على كثرتها.

ووصفه بالجهل فى التقدير فى قوله: لم تكن لك فى حساب.

وكل ذلك يؤدى معنى فى غاية القوة، أى إذا استطعت أن تعفى

الشيب بالخضاب فى المظهر، فإنك لا تستطيع أن تغير ثوب الشيب الخلق الذى كساك إياه، ولا أن تغير معايبك، وأثر حوادث الشيب فيك.

والنتيجة أنه يقول له لا تتعب نفسك فى إزالة الشيب بالخضاب، فليس الشيب مظهرا فقط، لكنه جوهر أيضا، وليس شكليا، لكنه يشمل الجسد كله.

ويخاطبه قائلا: تعيب الشيب، لذلك تعفى أثره بالخضاب، فهذا هو السبب فى عملك.

وعيبك الشيب سفه وجهل، أو من أثر السفه والجهل، ولعل السفه مسبب عن الجهل، فقد وصفه بصفتين: إحداهما سبب فى الأخرى.

وربما كان السفه زيادة فى الجهل.

ثم يختم ذلك بقوله: وأعيب من عيبك الشيب شغلك بعملك هذا، وهو الخضاب، لأنه وإن غير لون الشعر فلن يرجع أبهة الشباب.

والخطاب فى هذه المقطوعة كلها لصاحبه على الحقيقة، أو لصاحبه على المجاز، أو لنفسه على طريقة التجريد البلاغى.

وإذا كان الخطاب لنفسه فقد يكون ذلك دليلا على يأسه من الشيب، ومن رجوع الشباب.

وإذا كان الخطاب لغيره فيكون للنصح، والإرشاد، أو لتيئيسه من هذا العمل.

والضمير فى قوله: وأعيب منه يعود على الحدث، أى المصدر المفهوم من الفعل، وهو قوله: تعيب، أى وأعيب من هذا العيب.

***

وأنشد أبو العباس ثعلب.

ألقى عصاه وأرخى من عمامته   وقال ضيف فقلت الشيب قال أجل [1]

ألقى عصاه، أى ألقى عصا التسيار، أو التنقل، أو الرحلة، أو السفر، والعرب تكنى بهذا التعبير عن الإقامة بعد السفر، فكأنه حين ألقى العصا ترك ما يستلزم ذلك، وهو السفر، وآب إلى الإقامة.

وأرخى من عمامته، لم يشد العمامة، لأن شد العمامة معناه عند العرب الاستعداد للحرب، أما إذا أرخى عمامته، فإنه بذلك يكون فى حالة اطمئنان، ودعة، وسكون.

وقال: ضيف، أى ضيف حل به.

وإلى هذا الحد من البيت يكون الضيف على الحقيقة، أو المجاز، فهو ضيف بمعنى الشخص، ويرشح هذا المعنى قوله: ألقى عصاه، وأرخى من عمامته، فقد أقام فى سلم يستقبل الضيف.

وربما يكون هذا الضيف مجازيا، وهذا هو المقصود، فقد سأل صاحبه، أو السائل هو نفسه على التجريد البلاغى.

فقلت: الشيب، أى الشيب هذا الذى حل ضيفا؟

قال: أجل هذا الضيف الذى حل هو الشيب.

وقد صوره بالضيف، مع أنه يدوم مع الإنسان حتى الموت، لأنه يقصد

---

(١) مجالس ثعلب ٤١٨/٢، اللسان ١٥/ ٣٢٠.
أجل: بمعنى نعم، أراد وقلت الشيب هذا الذى حل، ألقى عصاه: أقام، أرخى من عمامته: أى لم يكن فى حرب، اطمأن وكان فى سلم.

أن العمر بعد الشيب قليل، وقد حل هذا الشيب ضيفا سريعا زواله،وإذا زال زال معه الشاعر، فكأنه يهدف إلى فكرة أخرى، وهى قصر ما سيأتى من عمره، وقد صور الشعراء العمر بالضيف، أو كالطيف ليس له إقامة.

وكأنه يقول: إن هذا الشيب الذى حل ضيفا علىّ ليس له إقامة، وكذلك الشاعر، أو عمره ليس له إقامة.

ولعلنى أرى البيت مزدحما بالصور البديعة، المنتزعة من البيئة، مثل: ألقى عصاه، وأرخى من عمامته، وقال: ضيف.

وقوله أيضا: ألقى عصاه، وأرخى من عمامته، وقال: شيب، فقلت: الشيب؟ قال: أجل، أعتقد أن هذا الحوار بينه وبين نفسه على التجريد البلاغى فى كل.

وأضاف العصا، والعمامة إلى ضمير الغائب، وكذلك: ألقى، وقال، ثم أضاف إلى ضمير المتكلم: فقلت، وهو التفات بلاغى، مبنى على التجريد البلاغى السابق.

ثم عاد بالضمير إلى الغائب مرة أخرى بقوله: قال: أجل، التفات بلاغى أيضا.

وتنكير ضيف لتعظيم الضيف نظرا لعظم مكانة الضيف عند العرب.

وتعريف الشيب للعهد الذهنى.

والبيت يدل على ترك حياة الترحل،والحرب،واللجوء إلى الدعة، والسكون، والراحة، فقد حل ضيف جديد، وهو الشيب، مما يلزم الاستعداد للرحيل.

***

وأنشد ثعلب:

عريت من الشباب وكان غضـا ... كما يعرى من الورق القضيب

ونحت على الشباب بدمع عينى ... ومنتحبا فما أغنى النحيب

فيا أسفا أسفت على شباب ... نعاه الشيب والرأس الخضيب

فياليت الشباب يعود يوما ... فأخبره بما فعل المشيب

تجلانى وبيض عارضيّ ... وغيرنى فأنكرنى الحبيب[1]

يقول: عريت من الشباب، وكأن الشباب ثوب خلعه، فتعرى منه.

وكان الشباب غضا، لأنه فترة القوة، فناسب أن يجعله غضا طريا كالعود.

ثم صور نفسه وقد عري من شبابه بالقضيب يعرى من الورق.

ويعلن أنه ناح على الشباب بدموع عينى وانتحب، فما أغنى عنه التحيب شيئا.

ويعلن أسفه على شبابه الذى ولى فجاء الشيب ينعاه، كما نعته الرأس المخضوبة بالحناء لإخفاء الشيب، أو المخضوبة بالشعر الأبيض مع الشعر الأسود، فهو فعيل بمعنى مفعول.

ويتمنى أن يعود الشباب يوما ليخبره بما فعل المشيب به.

ولعله يقصد بما فعل المشيب التهويل، والتفخيم، أى يخبر الشباب بما فعل المشيب به، وهومهول.

---

(١)مجالس ثعلب ٢٤٦/١

تجلاه رتجلله، أى علاه، وتغشاه،

ويوضح ما فعل المشيب به بقوله: تجلاني، وبيض عارضيّ وغيرني، بمعنى أن المشيب علاه، وتغشاه، واشتعل في رأسه، وبيض شعر العارضين، وغيره من هيئته الأولى.

ثم يبين نتيجة فعل المشيب به بقوله: فأنكرني الحبيب، وهذا القول يؤكد أنه تغير تغيرا كبيرا، حتى أنكره الحبيب، لما رآه.

ولعل التعبير ساعده على إبراز مقصوده، وذلك حين أخبر عن الشباب بقوله: وكان، وقوله: عريت، بالماضي، مع أنه عبر بالمضارع في قوله: كما يعرى من الورق القضيب، لأن ذلك أمر متجدد، مستمر معهود.

كما أكد على نواحه بالدمع الحقيقي، وبالنحيب، لكن ذلك لم يغني عنه شيئا.

ويبين زوال الشباب حين يقرر أن الشيب والرأس الخضيب قد نعياه.

ويتمنى عودة الشباب، ليخبره بما فعل المشيب به، ويذكر بعد ذلك ما فعله المشيب، وما ترتب على هذا الفعل.

***

وغضى إلى عالم من علماء اللغة والأدب، له شأنه، وله مكانته، وهو

أبو بكر بن دريد، لنرى ثمرة فكره، وعصارة ثقافته فى هذا المضمون الذى نحن بصدد التعرف عليه عند الشعراء، وتحليله، والمقارنة بين الشعراء فى التعبير عنه، وهو الشيب والشباب، وما يدور حولهما من أفكار.

***

قيل: إن أول شعر قاله ابن دريد[1] هو:

ثوب الشباب على اليوم بهجـته ... فسوف تنزعه عنى يد الكبـر

أنا ابن عشرين ما زادت ولانقصت ... إن ابن عشرين من شيب علي خطر

يقول: على اليوم ثوب الشباب، فجعل الشباب ثوبا، أو جعل للشباب ثوبا، يلبسه، فهو شاب، لأنه يلبس ثوب الشباب.

---

(١)المقصورة فى الأدب العربى ٢٠/٢٣، معجم الأدباء ١٨/١٢٨، مروج الذهب ٤/٢٢٩، ٢/٢٩٧، كشف الظنون ٢/١٨٠٧

ابن دريد، هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد بن عتاهية، الأزدى البصرى البغدادى، ولد بالبصرة سنة ثلاث وعشرين ومائتين للهجرة، وكان والده من الرؤساء وذوى اليسار، وتعلم فى البصرة، ثم عمان، فجزيرة ابن عمر، ثم فارس، ثم بغداد، وقد روى من الأخبار والأشعار ما لم يروه كثير من العلماء، وانتهت إليه لغة البصريين، وكان أحفظ الناس، وأوسعهم علماء، وكان أعجوبة فى سرعة الحفظ، وقيل: ابن دريد أشعر العلماء، وأعلم الشعراء، وتصدر العلم ستين سنة، وكان ممن قد برع فى الشعر، وانتهى فى اللغة، وقام مقام الخليل بن أحمد فيها، وأورد أشياء فى اللغة لم توجد فى كتب المتقدمين، وكان يذهب فى الشعر كل مذهب، فطورا يجزل، وطورا يرق، وشعره أكثر من أن يحصى، ومن جيد شعره قصيدته المقصورة التى مدح بها الشاه ابن ميكال، ويقال إنه أحاط فيها بأكثر المقصور وقد تولى تربيته عمه الحسين بن دريد، وكان الأشناندانى معلما له، وروى عن ابن أخى الأصمعى، والسجستانى، والرياشي، وروى عنه السيرافى، والمرزبانى، والأصفهانى، وكان يحب الموسيقى، وقداتهم بشرب المسكر، وبافتعال كلمات فى اللغة،وله كتب كثيرة منها الجمهرة، وغريب القرآن،وأدب الكاتب،والمقتبس، والأمالى، وتوفى ببغداد سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة من الهجرة. وتوفى مع الجبائى فى يوم واحد، فقيل: مات علما اللغة والكلام، ودفن ببغداد، وأبيات مقصورته مائتان وتسعة وعشرون بيتا.

والمقصود بثوب الشباب بزته، وهيئته، ومظهره، وقوته، وعلاماته وسيمياؤه، وأثره، وروعته التى تؤدى إلى البهجة والسرور، والسعادة، لذا قال: على اليوم بهجته.

ثم يبين أن الشباب لن يدوم، ولن يبقى، وإنما سوف يتبدل، بقوله: فسوف تنزعه عنى يد الكبر، فجعل للكبر يدا قوية تنزع عنه شبابه.

وكان الشباب قويا عبر عن ذهابه بالنزع، قوة، وعنوة، لأن يد الكبر أقوى من قوة الشباب، ولذلك آثر التعبير بقوله: يد الكبر، واليد هنا القدرة.

ثم يعلن أنه ابن عشرين، وابن العشرين فى عنفوان الشباب، ويؤكد ذلك بقوله: مازادت ولا نقصت، أى أنه ابن عشرين عاما، لا تزيد، ولا تنقص.

ثم يبين رأيا غريبا بقوله: إن ابن عشرين من شيب على خطر، أى إن ابن عشرين عاما على خطر من إسراع الشيب له.

وفى هذا مبالغة، أو هو لون من ألوان إدراك العواقب، وعدم الركون إلى طول العمر، وعدم الانخداع بدوام الدنيا، وبقائها.

فجعل للشباب بهجة، وثوبا، وجعل للكبر يدا، وللشيب خطرا.

وقوله: على، يدل على أن ثوب الشباب يعلوه، فهو ظاهر أيما ظهور، وبهجة ثوب الشباب تعلوه أيضا.

أما قوله: فسوف تنزعه عنى يد الكبر، حقيقة مؤلمة، لكنه يذكرها خبرية للتحسر، وإظهار الألم.

***

وقال ابن دريد أيضا فى مقصورته: (١)

أما ترى رأس حاكى لونــه   طـرة صبح تحت أذيال الـدجـــى
واشتعل المبيض فى مسوده   مثل اشتعال النار فى جزل الغضا(٢)

يصف شعره، ورأسه، وشيبه، وبياض شعره بعد سواده، فى تصوير رائع جميل.

فيقول: اشتعل الشيب بياضه، فى مسود شعره، كاشتعال النار فى الغضا.

واشتعال النار فى الغضاء أمر مشهور،عند العرب، وشعرائهم، لأن الغضا معروف بأنه سريع الاشتعال، ناره منيرة مضيئة، ليس فيها ما يعكر صفو ضوئها.

ويصور الشيب بالصبح، والشباب بالدجى.

والشاعر يخاطب محبوبته فى غزل صناعى بدأ به قصيدته المقصورة قائلا: ياظبية أشبه شئ بالمها، أما ترى رأسي، أى أنت ترينها، فهو استفهام تقريرى.

---

(١) المقصورة فى الأدب العربى ص ١٧

المقصورة: هى قصيدة تنتهى قافيتها بالألف المقصورة، وتكون فى الغالب من المطولات، وتضم مفردات لغوية غريبة، فى القافية بوجه خاص.

(٢)المقصورة فى الأدب العربى ص ٢٣-٢٤

الطرة: حافة الشئ، الغضا: الشجر.

حاكى لونه طرة صبح تحت أذيال الدجى، أى إن رأسه وقد اشتملت على الشعر الأبيض مع الشعر الأسود، فحاكى لونها لون بدء الصبح بنوره الذى يطرد الظلام، ولما يزل الظلام بعد، فهو نور تحت جوانح الظلام.

ونرى دقة الشاعر فى قوله: طرة صبح، فهى حافة الصبح أو ظهور الصبح، تحت أذيال الدجى التى زالت، وبقيت أذيالها، فهى بدء ونهاية، بدء الصبح ونهاية الظلام.

وهذا المعنى يعبر عن الواقع تماما بنهاية الشباب، وبداية الشيب.

واشتعل المبيض فى مسوده، أى الشعر المبيض فى الشعر المسود، فكأن الشعر الأبيض قد اشتعل، وزاد، وسار فى الشعر الأسود.

ثم يأتى بصورة منتزعة من بيئة العرب آنئذ، وهى مثل اشتعال النار فى جزل الغضا، فالنار تسرع فى الغضاإسراعا يصل إلى حد ضرب المثل به، مما يدل على سرعة اشتعال اللون الأبيض فى اللون الأسود فى رأسه.

وقد جعل للصبح طرة، وللدجى أذيالا.

وجعل اشتعال النار فى جزل الغضا، ليكون أسرع.

***

وفضي إلى عالم كبير فى الأدب، واللغة، والرواية، وكثير من العلوم، وهو ياقوت الحموى صاحب كتابى: معجم الأدباء، ومعجم البلدان، وصاحب الروايات الكثيرة للشعر والشعراء، وما قيل فى الأماكن المختلفة، والمواضع المتفاوتة، لنرى ماذا هو قائل فى الشيب والشباب؟

***

قال ياقوت الحموى[1] فى رسالة يصف فيها أحواله، ومتاعب حياته، ووجهها إلى وزير صاحب حلب، يقول فيها:

وشباب بان منى وانقضى قبل أن أقضى منه أربى

ما أرجى بعده إلا الفنا ضيق الشاب على مطلبى

يقول: وشباب بان منى، أى فارقنى، وابتعد عنى، وكأن ذلك البين على غير هواه، وإنما كان البين من الشباب، وليس من الشاعر.

ثم يؤكد ذلك بقوله: وانقضى قبل أن أقضى منه أربى، أى انقضى

---

(١)كشف الظنون ص ٨١٢، مفتاح السعادة ١/١٢، معجم المؤلفين ١٣/ ١٨٠، هدية العارفين ٢/٥١٧، المقصورة فى الأدب العربى ص ١٩/٢٣ معجم الأدباء ١/٤٣، كنوز الأجواد ص ٣١٩ ياقوت هو أبو الدرى شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى الرومى البغدادى، ولقب بالحموى لأن تاجرا يسمى الحموى رأى ياقوتا فى سوق بغداد، وقد حملوه أسيرا، فاشتراه، فنسب ياقوت إليه، ولقب الرومى لأنه مولود فى بلاد الروم، وقد أخذوه منها أسيرا، وقيل عنه البغدادى، لأنهم حملوه بعد أخذه إلى بغداد، حيث بيع فيها، وسمى نفسه يعقوب، وكانت ولادته سنة أربع وسبعين وخمسمائة من الهجرة، أو خمس وسبعين وخمسمائة فى بلاد الروم. وقد أرسله الحموى فى تجارته إلى بلاد كثيرة، بعد ما علمه فى الكتاب، ثم اعتقه الحموى، فتكسب ياقوت بنسخ الكتب والاتجار فيها، ونال منها جليلا بالمطالعة، وأنتهى به المطاف إلى حلب، وتوفى سنة ست وعشرين وستمائة من الهجرة، ووقف كتبه على مسجد الزيدى ببغداد، وسلمها إلى الشيخ ابن الأثير صاحب التاريخ الكبير.

سريعا قبل أن يقضى هو من شبابه أربه، والتعبير يدل على التحسر.

ثم يؤكد تحسره بقوله: ما أرجى بعده إلا الفناء، لأنه بعد زوال الشباب لا ينتظر إلا الفناء، وهو أمر منطقى سليم، يدل عليه واقع الحياة والأحياء.

وهو لا يرجى الفناء، وإنما ينتظر الفناء، أى لا أرجى شيئا سوى أن الفناء يلحق بى، فكأنى أرجى الفناء.

ثم يعلن تبرمه من الشيب قائلا: ضيق الشيب على مطلبى، أى ضيق الشيب بضعفه، وصفاته فى الشيب عليه مطلبه، وذلك أمر واقع.

ولعل الجمل التى ساقها الشاعر تدل على الحسرة، والحزن، والألم

فقد بان الشباب، وانقضى زمنه، ولم يقض من شبابه مأربه، ولا يرجى بعد بين الشباب إلا الفناء، وقد ضيق الشيب عليه مطلبه، كلها جاءت للتحسر، وإظهار الألم، والحزن.

ولعل هذا الضيق والبرم من حاله هو الذى أهاب به تنكير الشباب فى قوله: وشباب، كأنه لا يعرفه، بل ينكره.

وكذلك تعريف الفناء، والشيب، لأنه يعرفهما، ويعهدهما، فقد لزماه حتى ضاق بهما.

***

وأنشد ابن برى:

أتيت الذى يأتى السفيه لغرتى   إلى أن علا وخط من الشيب مفرقى[1]

أى إنه أتى فى شبابه ما يأتيه السفهاء فى شبابهم، أى أنه تصرف تصرف السفهاء، وفعل أفعال الحمقى فى شبابه قبل كبره، بغير وازع، أو رادع.

ويعلل ذلك بقوله: لغرتى، أى لبداية شبابه، وفتوته، وصباه، وجهالته.

أو لأنه صاحب غرة يكثر فيها الشعر الأسود، لأن الغرة هى مقدمة شعر الناصية.

أى لغرتى السوداء، فهنا أمران: هما: الغرة أصلا، وهى الشعر الذى يظهر فى مفرقه، أو فى مقدمة ناصيته، قبل أن يزول فى كبره، فظهوره، أو وجوده دلالة على عهد الشباب.

وربما أراد اللون، أى للون غرته الأسود، الذى يدل على لون الشعر فى حالة الشباب.

ثم يقول: إلى أن علا لون الشيب الأبيض مفرقه، أى تحكم اللون الأبيض فى مقدمة شعر رأسه.

وعبر عنه بالوخط، لأنه بياض يخالط السواد، فيظهر هذا اللون يغالب ذاك.

---

(١) لسان العرب ٣٠٣/٩

واختار مفرقه، لأن المفرق أول ما يعلوه الشيب غالبا، أو هو الذى يظهر فيه أيما ظهور، ويتضح أيما اتضاح.

والمعنى: أتيت فى شبابى الذى يأتى السفيه، لا الرشيد، إلى أن علا الشيب مفرقى، فتركت أعمال السفهاء، لأنها لا تلائم مظهر الشيب فى مفرقى، لأن الشيب يدل على التعقل، والرزانة، والحكمة، والرشد، وذلك كله يخالف عمل السفهاء.

***

ونأتى إلى رأى القدماء، فلعل لهم رأيا ينبئ عن تجربة صحيحة، ورأى سليم، وفكر ثاقب، ولنرى إلى أى حد نظر هؤلاء الشعراء القدماء إلى فكرة الشيب والشباب، وكيف عبروا عن هذه الفكرة؟

***

قال عبيد بن الأبرص [١] يخاطب امرأته، يرد عليها رأيها الذى عرضته عليه، تعرض به، وبكبره، وقلة ماله، ومواليه، وشيبه، وشيخوخته، وتغير رأيه.

تلك عرسى غضبى تريد زيالى ... ألبين تريد أم دلال

إن طبك طبك الفراق فلا أح ... فل أن تعطفى صدور الجمال

فاتركى مط حاجبيك وعيشى ... معنا بالرجاء والتأمال

زعمت أننى كبرت وأنى ... قل مالى وضن عنى الموالى

وصحا باطلى وأصبحت شيخا ... لا يواتى أمثالها أمثالى

إن ترينى تغير الرأس منى ... وعلا الشيب مفرقى وقذالى [٢]

---

(١) تاريخ الأدب العربى، بروكلمان ١/ ١١٠ طبقات الشعراء ص ٣٠، الشعر والشعراء ١/٢٦٧-٢٦٩، الأغانى٢٢/٨١-٩٥، الخزانة١/٣٢٢-٣٢٤ هو عبيد بن الأبرص الأسدى، نادم ملوك الحيرة مع النابغة الذبيانى، وقيل: إن الملك المنذر بن ماء السماء قتله، وهو شيخ كبير، ذبيحة على قبرصا حبين له، غضب عليهما، فدفنهما حيين، وكان من المعمرين، وقد شهد مقتل حجر والد امرئ القيس، وأنشأ قصيدة فى الرد على امرئ القيس، وحين قتله الملك النعمان كان عمره ثلاثمائة سنة، وسأله، أى قتلة تختار؟ فقال عبيد، اسقنى من الراح، حتى أثمل، ثم أفصدنى فى الأكحل، ففعل ذلك به، وجعله ابن سلام فى الطبقة الرابعة

(٢) البيان والتبين ١/ ٢٣٩ من فحول الجاهلية

.زيالى: فراقى، تعطفى صدور الجمال: أى ترحلين، عرسه: بكسر العين، زوجه، التأمال الأمل، تفعال منه، المفرق: مقدمة شعر الرأس حيث يفرق الشعر، القذال: جماع مؤخر الرأس.

يقول: إن زوجه غضبى منه تريد فراقه، ويتساءل عن هذا الفراق، أهو لبين، أي لبعد، وفراق من حيث هو فراق، أي هل تريد مفارقته؟ أم إنها لا تريد الفراق، وعملها هذا من باب التدلل، أو الدلال، ولا تقصد مفارقته، والبعد عنه.

ويرد عليها بقوله: إن يكن طبك، وعلاج حالك بالفراق، فأهلا به، فلن أهتم أن ترحلي، وتعطفي، أو تقربي إليك صدور الجمال، لتركبيها لفراق دائم، طالما أن هذا الفراق فيه علاج حالك.

ويقول: فاتركي الاشمئزاز، والتقزز، أو التعبير بغير النطق، والكلام، واللسان، وذلك بمط الحاجبين، وما إلى ذلك مما يدل على التعبير بغير الكلام.

يأمرها أن تترك هذا، وما يترتب عليه، أو بواعثه، وأن تعيش معه بالرجاء، والتأمال في غد سعيد، أو مستقبل فيه ثراء وغنى، وليس من أجل الفقر تترك الزوجة زوجها.

ويقول: زعمت، والزعم مطية الكذب، كما يقولون، أنه كبر، وقل ماله، وضن عنه مواليه، أي ضاع كل ماله في حياته، فقد ضاع شبابه، وكبر، وضاعت ثروته، وقل ماله، وضاع مواليه، فضن عنه مواليه.

كما زعمت أن باطله صحا، أي أن غفلته في الباطل قد زالت بكبره، وصار إلى العقل والحكمة أقرب منه إلى الباطل والجهالة.

كما زعمت أنه أصبح شيخا لا يصلح أمثاله، لأمثالها، فهي -في الظاهر- شابة، وقد صار هو شيخا، لا يتوافق معها.

ويقول: إن ترينى تغير الرأس منى، أى تغير الرأس، بالشيب الذى علا الرأس، وانحسار الشعر الأسود، وانحسار الشعر عن رأسه.

وعلا الشيب مفرقى وقذالى، أو علا الشيب مقدم رأسي، ومؤخره، يذكر ما تقوله مما يدل على كبره.

ويرد عليها رأيها هذا فى الأبيات التى تلى هذه الأبيات.

أى كبر، وعلاه الشيب، وقل ماله، وضن عنه مواليه، وصحا باطله، وزال، ورجع إلى صوابه،ورشده، وصار شيخا، لا يستطيع أن يجاريها فى حبها له، أوفى شبابها وشيخوخته، وأنه ليس أهلا لهذا الحب الذى تضن به عليه.

ثم يقول: إن ترنى هى كذلك، تغير رأسي، فصار شعره أبيض، وعلا رأسه الشيب، فى مفرقه، وقذاله، فلا يزال لم يطرح عنه الصبا بعد.

أى إنه- على رغم شيبه لم ينعم بأمن الشيب، ورشده، لأنه لا يزال مع الصبا، والشباب.

***

وقال عنترة بن شداد[1]، يذكر محبوبته، وابنة عمه عبلة، التى كان لها نصيب غير قليل فى شعره، وحياته، وأثر كبير فى حريته يقول:

ذنبى لعبلة ذنب غير مغتفر   لما نبلج صبح الشيب فى شعرى [2]

يقول: إن الشيب لا يعد عيبا ، لكنه بالنسبة لى، فى عبلة يعد عيبا، وذنبا، وذلك لأن عيوبه، وذنوبه تتضح لأنه عبد يدافع عن حريته، وليس له حق فى حياة كريمة، لذا فما لا يعد عيبا فى حق غيره يعد عيبا فى حقه، نظرا لأنه واجه صعوبات كثيرة فى حياته، وحريته، وبطولته، وزواجه من عبلة، ابنة عمه على أصح الروايات.

فيقول: ذنبى، بظهور الشيب فى شعرى، وليس هذا ذنبا لى، لعبلة ذنب لا يغتفر، فهو ذنب كبير، وإثم مبين.

وما ذلك إلا لتبلج الشيب فى شعره، وظهور لون الشيب الأبيض فى سواد شعره، وكأنه صبح يظهر بنوره، ليطرد ظلام الليل.

---

(١) تاريخ الأدب العربى ١/ ٩٠-٩١، الشعر والشعراء١/ ٢٥٠-٢٥٤، الروائع من الأدب العربى ١/٣٠٦-٣٠٧

عنترة ابن شداد، أو ابن عمرو، أو ابن معاوية، العبسى، كان ابن جارية حبشية سوداء، تدعى زبيبة، ويعد لذلك من أغربة العرب، وكان شداد أبوه لا يعترف به ابناءبل عبدا له، ولكن عنترة محا عن نفسه عار مولده، بما أظهره من شجاعة فى حرب داحس والغبراء، حيث اعترف به أبوه، وألحقه بنسبه، وقتل عنترة فى إحدى الغارات، بعد أن صار أشهر أبطال العرب، ولا تزال ذكراه بوصفه أشهر أبطال العرب، وفنه الشعرى فن بدوى نموذجى، يرسم موقفا غراميا ،وقيل : إن شداد جده، غلب على اسم أبيه، فنسب إليه، وقيل: شداد عمه، وهو أحد أغربة العرب، وهم ثلاثة، عنترة، وخفاف بن عمير الشريدى، وينسب إلى أمه ندبة، والسليك بن عمير السعدى، وأمه سلكة، واليها ينسب، ولقب بعنترة الفلحاء، لتشقق فى شفته، وكنى يأبى المغلس، وأبى المغايش، وأبى أوفى، وصار اسمه مادة لسيرة شعبية، وقد اختلفت الروايات حول زواج عنترة من عبلة.

(٢) ديوان عنترة ص ١٥٠

كذلك فالشيب يطرد سواد الشعر، فعبر عن هذا المعنى بقوله: تبلج صبح الشيب فى شعرى، ليؤكد ما يريد.

وقد أضاف المشبه به إلى المشبه فى قوله: صبح الشيب، وجعله يتبلج فى ليل شعره.

***

***

وقال النابغة

على حين عاتبت المشيب على الصبا   وقلت ألما أصح والشيب وازع[1]

أي عاتب المشيب على زمن الصبا ، أو على لهو الصبا ، لأن المشيب عقل، وفكر ، فقد عاتب مشيبه على مابدر منه فى صباه .

ولست أدرى، أيعاتب صباه، أم مشيبه لكنه ربما قصد أنه عاتب مشيبه، حتى لا يكون مثل صباه، وحتى يكون المشيب وازعا يمنعه من لهو الشباب الذى رقد فيه، ولذا قال: ألما أصح بعد من نوم الشباب فى اللهو، والعبث.

وهذا الشيب يمثل الوازع الذى يجعله يصحو من لهو شبابه، وعبث صباه.

والاستفهام هنا يفيد التمنى، أو الرجاء، أو الحث والاستنهاض، أو النصح والإرشاد ، أو إظهار الندم والحسرة على ما بدر منه فى صباه وشبابه.

وقد جعل المشيب معاتبا ، بفتح التاء، وجعل من نفسه معاتبا- بصيغة اسم الفاعل، لأن المشيب معاتب بصيغة اسم المفعول.

***

وقال النابغة يخاطب نفسه أو يتخذ من الصاحب مخاطبا ، أو

(١) الكامل فى اللغة والأدب ١/ ١٠٧

الصاحبة، أو العاذل، لذا ورد البيت بصيغة الخطاب، فيقول:

علقت بذكر المالكية بعدما علاك مشيب فى قذال ومفرق [1]

أى علاه المشيب فى مفرق رأسه، وجماع مؤخر رأسه، وهذه مواطن أول الشيب، ومع ذلك فقد علق المالكية، وتعلق قلبه بها.

وهذا عتاب، فكيف يعلق بذكر هذه الفتاة، وحاله هذه مع الشيب، أمر غريب لا شك.

***

(١) ديوان النابغة الذبيانى ص ١٨١

وقال عمرو بن معد يكرب الزبيدى

أشاب الرأس أيام طوال   وهم ما تضمنه الضلوع[١]

يذكر هنا سبب شيب الرأس، فالذى يشيب الرأس أمران هما:

أيام طوال تمر، فيظهر أثرها على رأسه، وهذه الأيام الطوال لشدتها، وبأسها، وما فيها مما يؤله ويغير حياته، ويعود عليه بالشيب، والكبر، والهرم.

والأمر الثانى الهم الذى بين الضلوع، أى الهم الذى يطغى على القلب، فيؤثر فى النفس، وفى الجسد، وفى الرأس.

وقد نكر الأيام الطوال، والهم، للتهويل، والتفخيم،.

وقد ذكر الفعل: أشاب، متعديا، لأنه جعل فاعلا للمشيب، وهو أيام طوال، وهم.

وقدم المفعول، الرأس، على الفاعل، أيام طوال، اعتناء بالمقدم.

***

وقال امرؤ القيس[٢]، زعيم أهل الصبوة، وأحد الذين ظهرت آثار صبوتهم فى أشعارهم، حيث جعل ذلك موضوعا لكثير من شعره، يقول:

---

(١) الشعر والشعراء ١/٣٧٤

(٢) ديوان امرئ القيس ص ٣٣٠-٣٣١

قد صحا: انكشف وذهب، اكتهلت: أى كثر شيبى، ثاب لى فؤادى: أى رجع عن الجهل، ذدت النفس: طردت ومنعت،السفاه، والسفاهة، بالتذكير والتأنيث، المطية:كل شئ ركبت مطاه،أى ظهر وأكثر ما يقال، المطية، والمطايا فى الإبل، وهو مثل ضربه لركوبه الجهل، والأفنان: الغصون، جمع فنن،بفتح الفاء والنون،أما الأفنان بمعنى الألوان،فهى فنون،واحدها فن، غراب الغى، مثل ضربه، شبه سواد رأسه بسواد الغراب، الغى: الفساد، النهى: العقل، الجديدوصف للمذكر والمؤنث.

إن يك شيبي قد علاني وفاتني ... شبابي وأضحى باطل القول قد صحا
وراصعت حلى واكتهلت وثاب لي ... فؤادي وذدت النفس عن تبع الهوي
وأصبحت قد عنفت بالجهل أهله ... وودعت إخوان السفاهة والقلـــــى
وشمرت من فضل الإزار وعريت ... مطية أفنان الشباب الذى مضـــــى
وطار غراب الغى عنى فلم يعد ... وأصبحت كهلا قاعدا من أولى النهى
وأبليت أثواب الشباب وحسنه ... وكل جديد سوف يدركه البلـــــى
فإن أمس كهلا قد علتنى كبرة ... فقد كنت قبل اليوم أهتز للندى
وذلك من دهر مضى من شبيبتى ... فلا يبعد الله الشباب إذا انقضـــى
فلست لمن يبكى الشباب بلائم ... ولكن أراه بين العذر إن بكـــــى

أبيات عجيبة من امرئ القيس، ولكن الأعجب أن ندرك أنه ما من سائر فى طريق الغى إلا سيصدم بحقيقة الحياة، ولا بد يوما يرجع إلى صوابه، وعقله، وحلمه، ورزانته، ويقلع عن غيه، وجهله وضلالته، وسفاهته، وطيشه، ولعبه، ولهوه، وعبثه.

فالحياة قدمت لامرئ القيس الكثير، فكان ابن ملك، قد أفرغ حياته فى اللهو، والعبث، والتشبيب بالنساء، والصيد والقنص، والخمر، ورفاق السوء.

لكن أباه قد قتل، وقد ألقت عليه هذه الكارثة بهمومها، وانتظرت منه أن يلقى بحياته القديمة جانبا، وأن يواجه ما استجد من ظروف.

يقول: علاه الشيب، ووخطه، ونونه فى شعره، فالشيب علاه، لأنه

سكن أعلى رأسه، وفاته شبابه، إذ ورد عليه الشيب الذى طرد الشبا . والشيب فيه ما فيه من الحلم، والتوبة.

وإذا كان الشباب قد فات، وعلاه المشيب، فقد أضحى باطل القول قد زال، وانكشف عنه، ورد إليه حلمه، وتعقله، ورشده، وهواه.

ويقول: وراجعت حلمى، أى رجع إليه، أو راجعه، أى طلب منه الرجوع.

واكتهلت: أي بلغت حد الكهولة بعد الشباب، أو كثر شيبى مما يدل على زوال عهد الشباب.

وثاب لى فؤادى: أى رجع إلى صوابى، وعقلى، فزال عنى جهلى، وصبوتى، ورد إلى عقلى، وفكرى الصحيح.

وقد عبر بالفؤاد عن العقل، والفكر، والاهتداء، أو عبر به عن المعانى النفسية التى تستكن فى القلب، أو المشاعر، والأحاسيس التى دفعت به إلى الحلم.

وذدت النفس عن تبع الهوى، أى طردتها، ومنعتها، وحميتها من أن تتبع الهوى، لأنها إذا اتبعت الهوى فقد ضاعت.

وأصبحت قد عنفت أهل الجهل بالجهل، ورميتهم بالسفه، أى ارتد إلى صوابى، حتى عرفت الجهل، فرميت أهله باتباعه، دلالة على أنه قد تاب عن هذا الجهل، وعن رفاق الجهل.

وودعت إخوان السفاهة، والقلى، أى تركت السفاهة، فودعت أصحاب السفاهة، والبغض.

أو ودعت إخوانى الذين صحبتهم أيام السفاهة التى مضت من عمرى.

وشمرت من فضل الإزار، أى تركت الصبوة، وبدأت أستعد للحلم، والعقل، أو أستعد للرحيل، وجعل تشمير الذيل كناية عن ألاستعداد للرحيل.

أو جعل تشمير الذيل كناية عن الاستعداد للحياه الجادة وتركت حياة اللهو ، والعبث، كما قال: اليوم خمر، وغدا أمر، وذلك بعد مقتل أبيه، واستعداده للثأر له من قاتليه.

وعريت مطية أفنان الشباب الذى مضي، هو تعبير كنائى، فقد عريت مطية ألوان الشباب، أى انقضى عهد انغمست فيه فى ألوان الصبوة، والجهالة فى الشباب.

وقد جعل ترك هذه الفترة بأن عريت مطية ألوان الشباب، لأن تعرية المطية دلالة على عدم الترحل، والسفر، فهو ينوى الإقامة.

والمعنى هنا أنه ترك مطية الشباب، وأقام فى حلم الكهولة.

وطار غراب الغى عنى غلم يعد، أى زال عنه الغى الذى كان نذيرا بالسوء، فجعله غرابا، والعرب تتشاءم من الغراب.

أو جعل الغى فى الشباب يلون الغراب فى السواد، حتى يجعل لون الكهولة أبيض، وهو لون المشيب.

وأصبحت كهلا قاعدا من أولى النهى، أى صار كهلا بعد ما كان شابا، قد قعد عن الغى، والفساد، والباطل، وصار من أولى النهى، والعقل، والحلم، والتدبر.

وأبليت أثواب الشباب وحسنه، أى مضى عهد شبابه، وتولى، ورد

إلى حلم الكهولة، ورزانتها، فجعل للشباب أثوابا، وحسنا، قد أبلاهما، ولم يبق منهما شيئا.

وللشباب ثياب وألوان، وفنون، وله حسن، وسيمياء، وجمال، وبهجة.

وينتهى إلى حكمة جميلة رائعة، وهى: وكل جديد سوف يدركه البلى، أى إن كل جديد سوف يبلى، فكذلك الشباب، وأثوابه، وحسنه، وكل ذلك سوف يبلى، ويزول، فلا غرو أن أبليت أثواب الشباب.

***

المصادر والمراجـــع

أولاً : المراجع الدينية :

- القرآن الكريم
- الحديث الشريف

ثانياً : المخطوطات :

- افتتاح الدعوة - نسخة مخطوطة بمكتبة الأستاذ/ محمد كامل حسين ألفه النعمان بن محمد المغربى.
- ديوان ابن قلاقس - نسخة المكتبة الأزهرية - صورة بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة برقم ٧٤٥.
- ديوان ابن قلاقس - نسخة المكتبة الأهلية بباريس، صورة بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة برقم ٧٥٣.
- ديوان ابن قلاقس - نسخة مكتبة جامع الباشا بالموصل بالعراق، صورة بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٣٢٢.
- روضة الأزهار فى ذكر من مات باسكندرية أو نزل بها من الأولياء والأفاضل الأخيار - حسين محمد أحمدين مخطوط بتاريخ ١٣١٧هـ بمكتبة البلدية بالإسكندرية برقم ٢٩٢١/ ١٠٤٣٦.
- سيرة جعفر - نسخة مخطوطة بمكتبة الأستاذ محمد كامل حسين.
- المجالس والمسايرات - نسخة مخطوط بمكتبة الأستاذ/ محمد كامل حسين.
- معجم السفر للحافظ السلفى - مخطوط مصور بدار الكتب المصرية.
- مختصر بلوغ الأمل، ابن العديم، مخطوط بمكتبة البلدية بالإسكندرية.

ثالثاً : المطبوعات :

- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا - للمقريزى مطبعة دار الفكر العربى - ١٩٤٨م.
- أحسن التقاسيم، المقدسى، تحقيق دى غويه، لندن ١٩٠٦م.

- أخبار مصر - لابن مسير مطبعة المعهد العلمى الفرنسى - ١٩١٩م.
- أدب الدول المتتابعة، د/ عمر موسى باشا، دمشق.
- الأدب العربى فى مصر من الفتح الإسلامى إلى نهاية العصر الأيوبى، القاهرة، ١٩٦٧م.
- الأدب وفنونه - عز الدين اسماعيل مطبعة دار النشر - ١٩٥٥م.
- إرشاد الأريب فى معرفة الأديب أو معجم الأدباء - لياقوت الحموى - مطبعة الحلبى - ١٩٣٦م.
- الأعلام - خير الدين الزركلي - الطبعة الأولى. المطبعة العربية بمصر - ١٣٤٥هـ الطبعة الثانية. المطبعة التجارية - ١٣٧٦هـ.
- أعلام الإسكندرية فى العصر الإسلامى - جمال الدين الشيال دار المعارف - ١٩٦٥م.
- أنباء الزمن من أخبار اليمن، ابن الحسين، برلين، ١٩٣٦م.
- إنباه الرواه على أنباه النحاه - للقفطى، دار الكتب المصرية - ١٩٥٠م.
- الإنتاج الأدبى فى مدينة الإسكندرية في العصرين الفاطمى والأيوبى أحمد النجار - المجلس الأعلى لرعاية الفنون - ١٣٨٣هـ.
- الأنساب، السمعانى، نشر مرجليوث، لندن ١٩١٢م.
- بدائع البدائه - على بن ظافر الأزدى مطبعة بولاق - ١٢٧٨هـ.
- بدائع الزهور فى وقائع الدهور - ابن إياس الحنفى مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - ١٣٧٩هـ.
- البداية و النهاية فى التاريخ - ابن كثير. مطبعة السعادة - ١٩٣٢م.
- بهجة المجالس، وأنس المجالس، وشحذ الذاهن والهاجس، القرطبى، القاهرة.
- البيان والتبيين - الجاحظ مطبعة الفتوح الأدبية - ١٣٣٢هـ.
تاريخ أداب اللغة العربية جرجى زيدان، القاهرة ١٩٢٧م.
- تاريخ الإسكندرية منذ أقدم العصور. مجموعة من المؤلفين محافظة الإسكندرية - ١٩٦٣م.
- تاريخ الدولة الفاطمية - حسن إبراهيم مطبعة النهضة - ١٩٤٨م.

- تاريخ الرسل والملوك - الطبرى، دار المعارف - ١٩٦٢م.
- تأهيل الغريب، ابن حجة الحموى، القاهرة، ١٢٩٣هـ.
ثمرات الأوراق، ابن حجة الحموى، القاهرة، ١٢٧٩هـ.
- الجوهر النفيس - محمد خليل الهجرسى، المطبعة الميرية بولاق - ١٣١٠هـ.
- الجامع المختصر، ابن الساعى، بغداد.
- حسن المحاضرة فى أخبار مصور القاهرة - جلال الدين السيوطى، مطبعة الموسوعات - ١٣٢١هـ.
- الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، القاهرة ١٩٥٤م.
- الحيوان - الجاحظ. المطبعة الحميدية - ١٣٢٣هـ.
- خريدة القصر وجريدة العصر- قسم شعراء مصر للعماد الأصفهانى.
مطبعة لجنة تأليف والترجمة والنشر - ١٩٥١م.
- خزانة الأدب وغاية الأرب - ابن حجة الحموى. المطبعة العامرة - ١٢٩١هـ.
- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب - البغدادى دار الكاتب العربى - ١٩٦٧م.
- الخطط التوفيقية، على مبارك بولاق ١٣٠٥هـ.
- الخطط المقريزية - المقريزى مطبعة وادى النيل - ١٣٢٤هـ.
- دائرة المعارف الإسلامية - محمد ثابت الفندى وآخرون مطبعة لجنة الترجمة - ١٣٥٢هـ.
- دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدى، القاهرة، ١٩٢٣م.
- ديوان ابن قلاقس - تحقيق خليل مطران مطبعة الجوائب - ١٣٢٣هـ.
- ديوان امرئ القيس.
- ديوان الخنساء.
- ديوان الصبابة، ابن أبى حجلة، القاهرة ١٢٧٩هـ.
- ديوان النابغة الذبيانى.
مطبعة مكتبة صابر - بيروت - ١٩٥٢م.

- رحلة ابن جبير - لابن جبير الكنانى الأ[illegible] السعادة - ١٣١٦هـ.

- الرسالة المصرية- لأمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت تحقيق الاستاذ/ عبد السلام هارون، من سلسلة نوادر المخطوطات.
مطبعة لجنة التأليف - ١٩٥٥م.

- الروضتين فى أخبار الدولتين لأبى شامه المقدسى. مطبعة وادى النيل - ١٣٨٧هـ.

- سحر العيون، أبو البقاء البديرى، القاهرة، ١٢٨٦هـ.

- سر الفصاحة - ابن سنان الخفاجى، مطبعة الرحمانية - ١٣٥٠هـ.

- شذرات الذهب فى أخبار من ذهب - ابن العماد الحنبلى مكتبة القدس - ١٣٥٠هـ.

- الشعر والشعراء - ابن قتيبة الدينورى مطبعة دار إحياء الكتب العربية - ١٣٦٤هـ.

- شعراء الإسكندرية فى العصور الإسلامية - عبد العليم القبانى الدار القومية - ١٩٦٣م.

- صبح الأعشى فى صناعة الإنشا - القلقشندى مطبعة دار الكتب المصرية - ١٩٢٢م.

- صلاح الأيوبى بين شعراء عصره، وكتابه، المكتبة الثقافية، القاهرة.

- صلة تاريخ الطبرى - غريب بن سعد.

- الصناعتين - لأبى هلال العسكرى - مطبعة الأستانة - ١٣٢٠هـ.

- طبقات الشافعية - ابن تقى الدين السبكى المطبعة الحسينية - ١٣٢٤هـ.

- ظهر الإسلام - أحمد أمين مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - ١٩٤٦م.

- العمدة - ابن رشيق القيروانى، مطبعة السعادة - ١٩٠٧م.

- عيار الشعر - ابن طباطبا المكتبة التجارية - ١٩٥٦م.

عيون الأخبار - ابن قتيبة الدينورى الدار المصرية للتأليف والترجمة - ١٩٦٤م.

عيون الأنباء فى طبقات الأطباء - ابن أبى أصيبعة المطبعة الوهبية - ١٨٨٢م.
- الفتح القسى فى الفتح القدسى - العماد الأصفهانى مطبعة الموسوعات - ١٣٢١هـ.
- الفاخر، أبو طالب المفضل تحقيق عبد العليم الطحاوى مراجعة محمد على النجار، القاهرة ١٩٧٤م.
- فوات الوفيات - ابن شاكر الكتبى مكتبة النهضة - ١٩٥١م.
- فى أدب مصر الفاطمية - محمد كامل حسين دار الفكر العربى - ١٩٥٠م.
- قانون ديوان الرسائل - ابن منجب مطبعة الواعظ بالقاهرة - ١٩٠٥م.
- قصة الأدب فى مصر، دكتور محمد عبد المنعم خفاجى، القاهرة ١٩٥٦م.
- كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون - ملا كاتب جلبى، حاجى خليفة مطبعة العالم بالأستانة - ١٣١٠هـ.
- الكامل فى التاريخ - ابن الأثير المطبعة الأزهرية - ١٣٠١هـ.
- اللباب فى تهذيب الأنساب، ابن الأثير، القاهرة ١٣٦٩هـ.
- المثل السائر - ابن الأثير المطبعة البهية - ١٣١٢هـ.
- مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان، ابن الجوزى، حيدر أباد، ١٩٥١م.
- مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار - ابن فضل الله العمرى مطبعة دار الكتب المصرية - ١٣٤٢هـ.
- مصر فى عصر الدولة الفاطمية - محمد جمال الدين سرور مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - ١٩٦٠م.
- مطلع الفوائد ومجمع الفرائد، ابن نحباتة، تحقيق عمر موسى باشا دمشق ١٩٧٢م.
- معجم البلدان - ياقوت الحموى مطبعة السعادة - ١٣٢٤هـ.
- المغرب فى حلى أهل المغرب - ابن سعيد مطبعة ليدن - ١٨٩٩م.
- مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، ابن واصل الحموى، تحقيق د/ الشيال، القاهرة ٥٢ - ١٩٥٩م.

- موسوعة تاريخ مصر - أحمد حسين دار الشعب - ١٩٧٠م.
- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة - ابن تغرى بردى مطبعة دار الكتب - ١٩٢٩م.
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب المقرى مطبعة الحلبى - ١٩٣٦م.
- نقد الشعر - قدامة بن جعفر مطبعة الجوائب قسطنطينية - ١٣٠٢هـ.
- النكت المصرية - عمارة اليمنى مطبعة سالون - ١٣٠٨هـ.
- نهاية الأرب فى فنون الأدب - النويرى الدار المصرية للتأليف والترجمة - ١٩٢٣م.
- نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب، القلقشندى، تحقيق إبراهيم الإبيارى، الطبعة الأولى، القاهرة.
- نوادر المخطوطات - تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون مطبعة لجنة التأليف - ١٩٥٥م.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان - القاضى ابن خلكان المطبعة الميمنية بمصر - ١٣٣١هـ.
- الولاة والقضاء - الكندى مطبعة بيروت - ١٩٠٨م.
- الوافى بالوفيات - الصفدى المطبعة الهاشمية - دمشق - ١٩٥٣.
- يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر، أبو منصور عبد الملك بن محمد اسماعيل الثعالبى عبد الحميد؛ القاهرة ١٣٧٧هـ.

رابعاً: المراجع اللغوية:

- القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز بادى، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٥٢م.
- لسان العرب، ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأنصارى، القاهرة.

خامساً: دواوين الشعراء:

الفهرست